جهاد شعب الجزائر


١٢

المجاهدون الجزائريون

بسام العسلي




دار النفائس


بسم الله الرحمن الرحيم



المجاهدون الجزائريون

بسّام العسلي

دار النفائس

الطبعة الأولى : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
الطبعة الثانية : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

© دار النفائس

بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقياً : دانفايسكو

الإهداء

إلى الشعب العظيم
شعبنا العربي ـ المسلم
الذي لا زال متمسكا بأصالته في الجزائر المجاهدة
وفي كل دنيا العرب المسلمين
أهدي هذه التجربة التاريخية

بسام

المقدمة

ويمضي المجاهدون الجزائريون قدماً على طريق الثورة ، فَيَخُطُّونَ بتضحياتهم ودمائهم أروع آيات الشهادة ، ويفوز بعضهم بإحدى الحسنيين - الشهادة - ويبقى لبعضهم إحدى الحسنيين - النصر - يمضي المجاهدون الجزائريون قدماً على طريق الثورة ، وتتشابه أيامهم ولياليهم ، وتتماثل حكاياتهم وقصصهم ، لتنسج بتشابهها وتماثلها وتكاملها ملحمة البطولة الخالدة، ملحمة الثورة العملاقة ، مفخرة العرب المسلمين في العصر الحديث .

وحكاية الثورة ، ككل حدث تاريخي ، يمكن أن تضيق حتى تقتصر على الخطوط العامة والمبادىء الرئيسية ، كما يمكن أن تنسع لتشمل أدق التفاصيل وأصغر الأمور . وتبقى الفائدة من التجربة التاريخية متوافرة في الحالين ، تبعاً لما يرغبه الباحث في الإفادة من هذه التجربة والتعلم منها . وفي الحقيقة ، فلا الإيجاز يغني عن التوسع والشمول ، ولا هذا يغني عن الإيجاز في عصر أصبح لعامل الوقت دوره الحاسم في حياة الأفراد والشعوب . وعند هذه النقطة يمكن الوصول إلى ما هو مقصود .

لقد تم وضع المخطط الأساسي بحيث يشمل الكتيب العاشر من هذه المجموعة (جيش التحرير الوطني الجزائري والصراع

المسلح) ما هو ضروري لتغطية أعمال القتال . ولكن تبين أنه من المحال تغطية هذه النقطة في كتيب واحد . فجاء الكتيب التالي (أيام جزائرية خالدة) لإكمال قصة الصراع المسلح في الثورة الجزائرية . وكان لا بد أيضاً من إعطاء البحث بعض أبعاده في الكتاب الحالي (المجاهدون الجزائريون وتطوّر الصراع المسلح) . وتبقى هناك نقاط تتطلب المزيد من العرض ، وهو هدف الكتاب التالي (المجاهدة الجزائرية والإرهاب الاستعماري) حلقات متماسكة ، متكاملة ، يمسك بعضها برقاب بعض ، وعلى الرغم من ذلك ، وإقراراً بالحقيقة ، فإن قصة الثورة ، وقصة الصراع المسلح فيها ، تبقى أكثر غنى ، وأكثر شمولاً واتساعا من أن تحيط بها بعض الكتيبات . غير أن المأمول هو ألّا يكون العرض المقدّم في هذه الكتيبات قد قصر عن الجمع بين متطلبات الإيجاز ومتطلبات الشمول .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فقد يظهر هناك بعض التشابه في (قصص الثورة) أو في (التحقيقات الواردة عن جهاد المجاهدين ، وأيامهم ، وأعمال الثورة) وقد يخيل أنه بالمستطاع الاستغناء عن قسم منها ، ولكن التدقيق في تلك القصص والوثائق يظهر أن هناك خيوطاً متجددة باستمرار في نسيج الثورة ، وهي بتجددها جديرة أن تذكر حتى لو كان فيها بعض التشابه مع ما سبقها . وقد كان بالمستطاع استخلاص تلك الخيوط وحدها . وإبرازها دون سواها ، ولكن ذلك كان من شأنه يقيناً تشويه النواحي الإبداعية ، الجمالية ، لسرد مسيرة الأحداث ، فيفقد البحث أحد ركنيه (المتعة والجمال) . ولما كان هدف هذه المجموعة تحقيق هدفين في وقت واحد وهما (الفائدة) ثم

(المتعة) فقد كان لزاماً الإبقاء على الفقرات المعروضة ، بشكلها ومضمونها ، قدر المستطاع ، حتى يتحقق المطلوب ، واللّه ولي التوفيق .

تبقى هنـاك كلمـة في اصـطلاح (المتعـة) الـذي سبق استخدامه .

لقد كانت الثورة الجزائرية ، مأساة (تراجيدي) بكل ما تحمله كلمة المأساة من أبعاد ومضامين . حتى بات من المتفق عليه بأنها أكبر مأساة في القرن العشرين ، إلى جانب مأساة العرب في فلسطين ، فأية (متعة) في استقراء فصول المأساة ؟ وهل هناك استمتاع باستقراء بعض ملامح ما عاناه المجاهدون من آلام وشقاء وما أقدموا على التضحية به من أغلى التضحيات وأنبلها ؟ أجل ! هناك متعة ، وهي متعة المجاهد وهو يسير فوق المأساة بإيمان لا حدود له . أجل ! هناك متعة ، وهي متعة الفدائي وهو يسمو ويرتفع عن الذات ليقدم النموذج الأعلى للإنسان العربي المسلم .

أجل ! هناك متعة ، خوض الصراع المرير في ظروف متناهية القسوة ، ووسط ضجيج الحرب بوسائط غير متكافئة وبقوى غير خاضعة لما هو معروف من موازين القوى . وبالرغم من ذلك ، وفوق كل ذلك ، يسير المجاهد والفدائي والمسبل (النصير) . الرجل والمرأة ، الشيخ والطفل ، وكلهم في ركب واحد ، وكلهم ثقة لا حدود لها بالنصر ، وحتمية الفوز .

إنه النموذج الأعلى للإنسان العربي المسلم خاصة ولكل إنسان عامة .

فهل هناك ما هو أكثر إمتاعا من مطالعة قصته .

غير أنها ليست في كل الأحوال متعة ما هو معروف من متع الدنيا .

إنها متعة الإعجاب بالإنسان المتفوق . وقد كان الجزائري المجاهد هو ذلك الإنسان المتفوق .

بسام العسلي

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ، وَزُلْزِلُوا ، حَتَّى يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ ٱللَّهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

(سورة البقرة - الآية - ٢١٤)

الفصل الأول

١ - أيام الجهاد .

٢ - فضائل الثوار .

٣ - الإدارة في مجتمع الثورة .

٤ - تنظيم الجاسوسية .

٥ - التطور الثوري في الشمال القسنطيني .

٦ - صدق الثورة ينتصر على كذب الاستعمار .

٧ - مواقف لا تنسى .

٨ - الثورة ومسؤولية القيادة .

٩ - الفلاح والثورة .

١٠ - الطفل الجزائري ضحية الاستعمار .



المجاهدون في زيارة لأهلهم على الحدود المغربية

١ ـ أيام الجهاد

لقد حاول الاستعمار الفرنسي ، باستمرار ، إسدال ستار كثيف على الجزائر لعزلها عما يحيط بها ، ولفصلها عن عالمها العربي الإسلامي ، ومقابل ذلك ، أقام ـ الاستعمار الفرنسي علاقات جديدة للجزائر تربطها بما كانوا يسمونه (أفريقيا الفرنسية) . وقد نجح الاستعمار في ذلك ، إلى حين ، وكان نجاحه محدوداً ، إذ بقيت قنوات الاتصال مفتوحة ينقلها إلى العالم العربي ـ الإسلامي طليعة مجاهدة يحتل عبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي ورابطة العلماء المرتبة الأولى فيها ، ومقابل ذلك ، كان العالم العربي ـ الإسلامي يحاول باستمرارٍ أيضاً ، اختراق جدار العزلة الافرنسية ، وليس هناك من ينسى تلك المناقشات التي كانت تدور في كل مقهى وفي كل مكان من فرنسا ذاتها كلما التقى جزائري بإنسان عربي مسلم من أبناء بلاد العالم العربي . ولقد كان هذا التأثير المتبادل محدوداً جداً ، وكان ذلك يثير نوعاً من التشاؤم في نفس الإنسان العربي بشأن مستقبل هذا القطر ، العزيز على قلب كل إنسان عربي مسلم .

لم يكن من الغريب ، بنتيجة ذلك ، أن يستقبل العالم أنباء انفجار الثورة في الجزائر صبيحة الفاتح من نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ

١٩٥٤ (يوم عيد جميع القديسين) بمزيج متناقض من المشاعر ، التقى فيها اليأس بالرجاء ، والقنوط بالأمل ، فهل يمكن (للجزائر الفرنسية) كما كانوا يسمونها ، أن ترفع صوتها بالتذمر والاحتجاج ، بعد طول استكانة ؟ وأسرع العالم العربي ـ الإسلامي ، بجماهيره الواسعة ، يحتضن الثورة بقلوب ملؤها الإيمان والثقة . ويتابع بعيون يقظة ما يحدث على ثرى الجزائر الطهور .

وحاولت فرنسا الاستمرار في سياستها لعزل الجزائر المجاهدة ، بشتى الأساليب ، وبمختلف الوسائل ، غير أنه بات من المحال عليها إخفاء وهج الشمس الساطعة .

وأخذ العالم ، شيئاً فشيئاً ، يخترق ببصره ستار الكتمان الفرنسي ، وأقبل الباحثون عن المعرفة ، أو الباحثون حتى عن المغامرة ، وهم يستطلعون معالم هذا الأفق الجديد . وكان بعضهم موضوعياً ، وحاول بعضهم الآخر تفسير ما يقع تحت بصره بمنظوره الخاص أو على أساس أفكار سلفية ، غير أن هؤلاء وأولئك اتفقوا على حقيقة واحدة لم يكن باستطاعتهم إنكارها أو التنكر لها : هنا عالم جديد يظهر للوجود، وهو عالم يناقض كل ما هو معروف مما صنعته الأجهزة الاستعمارية الفرنسية .

من هذا العالم الجديد ، توافرت المعلومات عن حقيقة المجاهدين ، وعن حقيقة ما يتضمنه مفهوم الجهاد ، وما تشمله أيام الجهاد من جلائل الأعمال ، التي يضيق المجال ، مهما كان متسعاً ، عن احتوائها والإحاطة بها ، وإذن ، فقد يكون التعرض لبعضها كافياً لتقديم صورة عنها . وقد جاء في (هذا المجال)[1]

(١) المرجع : شهادات حرب الجزائر كما شاهدوها (للكاتب داجنس نيهيتر) في صحيفة =

ما يلي :

« مضت ثلاث سنوات والمجاهدون الجزائريون يتابعون حرباً ضارية لا هوادة فيها ضد فرنسا ، والغاية من هذه الحرب هي تحرير الجزائر .

اجتزنا الحدود بعد أن عادت طائرات الاستطلاع الفرنسية إلى قواعدها فوق الشاطىء . كانت الحجارة تصرّ تحت الأحذية الثقيلة ، وكانت البغال تتسلق المرتفعات ، وكنا نبذل الجهد في سيرنا الصاعد ، عبر الدروب الضيقة التي تسير ملتوية بين القمم المشجرة من الجبال الجزائرية . وكانت آخر أشعة الشمس تصل إلينا عبر الغبار المتعالي من الطريق . وكان يصل مسامعنا دوي المدافع من المراكز العسكرية الفرنسية الموجودة وراء الجبال . وهذا القصف هو الموسيقى الخالدة التي اعتادت أسماع (المجاهدين)[1] عليها كل مساء في تلك الجبال المشجرة من شرقي الجزائر . ولم تكن هذه اللوحة خالية مما هو خيالي ، مثير ، بشكل لا يوصف . إن الشعور بأننا نعيش في حرب ، هو شعور لا زال بعيداً عنا ، ولا بد من انقضاء أيام عديدة قبل أن نلمس هذا الشعور لمساً ، عندما يفرض ذاته بسرعة ووحشية . إننا لن نشعر بذلك الشعور حقاً حتى تأخذ القنابل الفرنسية بالانفجار بين صفوفنا

= « سفن اوستى » السويد - (دراسات ووثائق عن الجزائر والثورة الجزائرية - مصلحة النشر في جبهة التحرير الوطني) - مطبعة الأديب . وهي مجموعة مقالات في الأصل بدأت في الظهور اعتباراً من يوم ١٩٥٧/٩/٦ .

(١) استخدمت هنا كلمة (المجاهدين) بدلاً من كلمة (العصاة) التي كان الكتاب الغربيون يستخدمونها متأثرين بالدعاية الفرنسية التي كانت تطلق على (المجاهدين) أسماء (العصاة) أو (الفلاقة) أو (المتمردين) الخ . . .

أثناء الهجوم الذي شنه الجزائريون على إحدى القلاع الفرنسية . ولكن ما إن شرع الملازم الجزائري قائد القافلة الصاعدة عبر القمم ، يروي لنا قصة آخر أيام المعركة ، حتى زال كل ما كان في نفوسنا من ذلك الشعور المثير . ولقد راح ذلك الملازم يروي لنا بهدوء ، وبصوت متزن ، جزءاً من العنف والإرهاب والانتقام الفرنسي ، من قرى الفلاحين ، هذه القصة التي تبدو لا نهاية لها :

ـ لقد سقط أحد رجالنا في ساحة الشرف ، أثناء هجومنا على قافلة ، غير أن الخسائر الفرنسية كانت أفدح . فما كان من الفرنسيين إلا أن انتقموا من السكان ، فدمروا ـ على عادتهم ـ دائماً ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها بمثل هذه التهمة الموجهة إلى الجيش الفرنسي فوق أرض الجزائر ، ولقد جاءت أصوات مريرة أخرى ، خارجة من الأكواخ التي يقيم فيها الفلاحون في الأودية لتضيف إلى هذه القصة فصولاً جديدة كل مساء . أمّا أشد ما في الأمر فظاعة ، فهو سماعك مثل هذه الأقوال ، تلقى عليك من غير دعوة مسبقة ، فتجعلك تشعر كل يوم بمزيد من الشكوك تدهم نفسك . فهل يمكن أن تقوم القوات الفرنسية بشن مثل هذه الحرب ؟! ثم إن موجة الشكوك هذه لا تلبث حتى تتحول إلى قناعة ثابتة تجعلك تؤمن بصدق ما يقولون .

* * *

إن كل ما يسمى تعباً جسدياً ، وسيراً منهكاً ، وحرارة مرهقة أثناء النهار ، وبرداً لاذعاً أثناء الليل ، وغذاء متواضعاً ، وحشرات تلصق بالجسم ، إن كل ذلك لا يرهق النفس بقدر ما يرهقها ذلك الصراع النفساني الذي يدهم المرء ويهيمن على مشاعره . إنه صراع بين الثقة القديمة بفرنسا والعاطفة الجديدة التي يبعثها في

النفس هؤلاء الشهود الجدد ، وأقوال (المجاهدين) ، التي لا يمكن إهمالها لمجرد الرغبة الحمقاء التي يخلقها في النفس ذلك الصراع العاطفي الذي لا يتوقف يوماً . وكيف يمكن أن يصح ما تزعمه الدعاية الفرنسية من أن (المجاهدين) يأتون بالسكان المدنيين ويرغمونهم ـ قسراً ـ على مساندة جيش التحرير الوطني ؟! وكيف يصح ذلك ونحن نرى الأهلين يشكلون عند مرورنا بهم ـ عبر الوادي ـ جماعات تهلل للنصر . أو عندما أطبقت عليَّ امرأة عجوز وراحت توسعني تقبيلاً بحماسة لا توصف ؟ كيف يصح ذلك ونحن نرى الفلاحين يرافقوننا خطوة خطوة ، وقد حملوا جرارهم المليئة بالماء ، وكل هدفهم تجديد الدعوة لنا حتى نعود لزيارتهم مرة أخرى ؟ وقد يفكر المرء بأن مظاهر الإعجاب والثقة هذه كلها مفتعلة ، مهيأة ، موعـز بها مسبقـاً ، وتحت تأثيـر التهديـد . ولكن الواقع هو أن المرارة التي يعرب بها سكان الأكواخ عن عواطفهم ، وهم يتحدثون عن الفرنسيين ، لا يمكن إلّا أن تكون حجة دامغة صادرة عن عاطفة صادقة ، غير مفتعلة .

لم يكن في وجه تلك المرأة العجوز ـ التي سبقت الإشارة إليها ـ شيء من الكذب أو الخداع ، فقد فقدت كل شيء . وكانت دموعها تنساب بسخاء وهي تتعلق بجواد الرئيس ، وتتوسل إليه أن يصحبها معه إلى الجبال الأمينة القريبة من الحدود . فقبل عدة أيام ، قامت المصفحات الفرنسية بحملة على المنطقة ، وهاجم الجنود الفرنسيون بيتها ، فلم يبقوا منه شيئاً ، وانتهبوا كل ما تملك ، ودمروا البيت . فبعد أن التحق ولدها بجيش التحرير الوطني ، على أثر استياق الفرنسيين لأبيه تعرضت العجوز مرتين خلال أشهر قليلة للنهب والتدمير .

لم يوضع أحد في طريقي حتى يملي عليّ دعايته ويفرضها فرضاً . إذ أن قوات (المجاهدين) لا تعتمد هذه الأساليب المعقدة . وجهاز دعايتها متناهٍ في بساطته ، وتقارير الجنود والضباط في موضوع الإرهاب الفرنسي ليست من ذلك النوع المعتاد ، المدروس ، الذي يهيأ ليلقى على مسامع الزوار ، بل هي عبارة عن انفجارات غضب غير مفتعل . وصحيح أن هذا ليس سوى مظهر واحد من مظاهر حرب الجزائر . وأن بلوغ مركز (المجاهدين) أمر ممكن . وكذلك الانتقال من مركز إلى مركز، ما بين الحدود التونسية والمغربية . ولكن هذه العملية تتطلب أشهراً عديدة من مسير ليلي منهك ، فضلاً عما تنطوي عليه من أخطار . وحتى لو أني لم أزر سوى عشرات الجبال والأودية المجاورة للحدود التونسية ، ولو افترضنا أن في الروايات التي سمعتها عن أعمال الخصم كثيراً من المبالغات وعديداً من النقاط القاتمة ، وحتى لو أن (المجاهدين) يرتكبون فظائع ضد العرب الذين يخدمون المصالح الفرنسية بنشاط ، حتى لو صح كل ذلك ، فهل لي أن أشك في أن (المجاهدين) قد نالوا الثقة وهم يمثلون الغالبية العظمى من العرب الجزائريين ، أو في أن الجيش الفرنسي يوسع ، يوماً فيوماً ، الهوة بين الطرفين المتنازعين ويزيد الحقد بوسائله العسكرية . إذن ، فلماذا تكون الجبال والأودية مختلفة عما عداها من أرض الجزائر ؟

أما أعمال التجنيد لجيش التحرير الوطني فهي واحدة في كل مكان . فأبناء المنطقة يلتحقون بالجبال ، ويتدربون على استخدام الأسلحة ، ويصبحون جنوداً ليلتحقوا بجيش التحرير الوطني . ويعتبر السكان أن جنود الجبل هم (جيش التحرير الحقيقي) أداة

النضال للظفر باستقلال الجزائر ، القائمون على الجهاد ، وفي المناقشات التي تجري مساء تحت سقوف الأكواخ ، ضمن نطاق الأسر ، ونهاراً في ملاجىء الأودية ، تعالج الوضع في الأشهر الستة الأخيرة . وقلما وصل إلى أسماع (المجاهدين) أصداء ما يتردد في فرنسا من احتجاجات أو انتقادات للأساليب الشريرة التي يطبقها الجيش الفرنسي في الجزائر .

إن معظم الناس ، خارج الجزائر والعالم العربي ، يستقون معلوماتهم ـ عن القتال ـ عن طريق باريس . والدعاية الفرنسية واسعة وبعيدة المدى ، أما دعاية (المجاهدين) فبدائية أو ضعيفة . وإن من يتقبل الدعاية الفرنسية المبتذلة المتطرفة ، فإنه لا يجرؤ ـ طبعاً ـ على الذهاب إلى مناطق الثوار : فهم يتوقعون أن يذبحوا هناك بدافع التعصب العرقي أو الديني ، وحتى لو أصم المرء أذنيه عن مثل هذه الأقوال ـ التي تروّج لها الدعاية الفرنسية ـ فلا يسعه أن يلحظ شيئاً من هذا عندما يصل إلى تونس . إن كل ذلك يتبدد في نظره عندما يتخذ طريقه السرية متجهاً نحو جبهة القتال . إن الفرنسيين يعتقدون أن جهاز جيش التحرير يفتقر إلى إدارة واعية ، وتنظيم دقيق محكم ، غير أن الذي يستطيع الحصول على رسالة توصية من أحد المفوضين في أوروبا ، ثم يصل إلى تونس ، ويأخذ بالبحث عن العنوان السري في ضواحي الأحياء العربية ، إن من يتاح له ذلك ، يقتنع فوراً ببطلان الدعاية الرامية إلى الحط من شأن الجهاز الإداري للحركة التحررية الجزائرية .

ولحركة التحرير في تونس مركز ، قد وافقت الحكومة التونسية ضمناً على إنشائه . وفي هذا المركز ترى طلاباً يعملون على آلات كاتبة عربية وأوروبية ، يكتبون بمختلف اللغات . وهناك ، حيث

رجال الفكر هم قادة الحركة الوطنية ، هؤلاء الرجال الذين تبلورت شخصياتهم في السجون الفرنسية خلال سنوات طويلة ، يشرفون ويوجهون الحركة ، فينقلون الأشخاص والمعدات ، ويسيرونهم إلى الجيش في الجزائر . وفي قرية تونسية ، بالقرب من الحدود الجزائرية ، كانت هناك بعض المنازل التابعة لمنظمة التحرير الوطني الجزائرية . وهنا يلمس المرء أول دليل على كذب الدعاية الفرنسية ، فهم يزعمون في باريس ، كما يزعم فرنسيو الجزائر ، بأن المجاهدين يفتقرون إلى نظام عسكري دائم بحيث لا يمكن تسميتهم منظمات مقاومة ، بل عصابات من المتمردين غير النظاميين الذين يسيرون العمليات الحربية في (سبع الأرض الجزائرية) . وفي غرفة من غرف هذه المنازل تجد جهازاً مرسلاً ـ لاسلكياً ـ يؤمّن الاتصال مع مختلف المراكز الكبيرة الأخرى في الجزائر . وفي مراكز أخرى ، أقيمت مستودعات للأسلحة ، ونظمت أبنية يمكن للجنود الجرحى والمرضى أن يجدوا فيها جميع وسائل الراحة والعلاج . وفي هذه القرية ، يمكن للمرء أن يلمس الدليل القاطع ، على أن المجاهدين يملكون جيشاً حديثاً يضم (٢٠ ـ ٣٠) ألفاً من المقاتلين .

* * *

لقد حصل مراسل صحيفة (سفن أوستي) السويدية ، تصريحاً بمرافقة قوة كانت متوجهة من (تونس) إلى (الجزائر) . وقد وصف هذا المراسل تجربته بقوله :

« . . . اضطررت أن أرتدي ثياب المجاهدين العسكرية ، غير أن رغبتي في وضع شارة العلم السويدي على ذراعي ـ كما نصحوني قبل حضوري ـ لاقت معارضة شديدة من المسؤولين في

هذا المركز ، الذين أكدوا لي بأني لو تجولت في المنطقة بتلك الألوان لكنت هدفاً صالحاً للفرنسيين ، ولوجدوا في ذلك حجة لاتهامنا . ووردت المعلومات قائلة أن الجبهة لم تكن (هادئة) ، وأنه من الخطر اجتيازها ذلك المساء . . وفي صبيحة الغد ، غادرنا القرية تحت حراسة عدد من الجنود بقيادة (النقيب سالم) . وقد خلفنا وراءنا هذه الحرارة القاتلة ، وركبنا ظهر مركبة نقل صغيرة ـ كميون ـ متجهين نحو الغرب . وبعد الظهيرة ، بينما كانت السيارة تتوغل بنا وراء الحدود ، طاردتنا طائرة استطلاع فرنسية ، لم يكن باستطاعتها مهاجمتنا ما دمنا داخل الحدود التونسية ، وكانت الطائرة تنتظر ، بوضوح ، فرصة مغادرتنا الأراضي التونسية ، وتوغلنا عبر الجبال والوهاد المشجرة حتى تمطرنا بوابل من نيرانها . وكانت تلك المطاردة عبارة عن حرب إنهاك خسرتها الطائرة التي لا بد أنها غادرت إلى قاعدتها . وعندما غادرنا السيارة ، وتوغلنا في الأرض الجزائرية ، استقبلنا ، في إحدى الغابات ، ملازم قادنا على طول طريق يسير فوق سفح الجبل نحو الروابي الجزائرية العالية التي ترتفع حتى ألف متر . وهذه المنطقة التي تصفها التقارير الفرنسية بكل فخر أنها مناطق هادئة ـ أي أنها مطهرة من الثوار ـ ما هي في الواقع إلاّ منطقة خاضعة لجيش التحرير الوطني ، حتى أن القوات الفرنسية لا تجرؤ على المخاطرة بالتوغل فيها إن لم يساندها الطيران وتدعمها المدفعية والقوات المدرعة !

وهكذا اجتزنا الحدود التي كانت على زعم الفرنسيين ، قلعة (ومقفلة) . وفي ساعة متأخرة من المساء بلغنا الأكواخ المغطاة بأوراق الأشجار ، وهناك كانت مكبرات الصوت ترسل موسيقى عربية تمتزج بدويّ المدافع وراء الجبال . وفجأة ، بدد ظلام الليل

نور تعشو له الأبصار ، فوق رؤوسنا . ولم تمضِ ثانية واحدة حتى صم آذاننا صوت انفجار قنبلة يدوية . . وبعد حين كان هجوم المجاهدين قد انتهى . وأعطى الرئيس أمره بالانسحاب عبر الروابي ، على إيقاع انفجارات القنابل . ولم يكن هجوم المجاهدين على مركز العدو قد استغرق أكثر من خمس دقائق ، غير أنها فترة رهيبة على قصرها ، كانت القنابل التي ألقيت على القلعة تمزق سكون الليل ، بينما شرعت في الرد عليها الأسلحة الآلية الثقيلة للقوات الفرنسية ، فترسم بقذائفها أقواساً مضيئة في الليل . ولم يكن يسمع في الأسفل سوى صراخ الفرنسيين ونداءاتهم من الخنادق والتحصينات .

كان هجوماً كغيره من الهجمات ، معركة بلغت خلال دقائق الذروة المرتجاة التي استعد المجاهدون لبلوغها خلال أيام عديدة . ولقد بدأت العملية بنشيد السير لجنود تملؤهم الحماسة ، ولا تتجاوز أعمارهم الخامسة عشرة ، ثم انتهت بانسحاب منهك عبر مجاري الأنهار المظلمة ، متعثرين بالحجارة ، ومتسلقين الروابي الرملية ، مع العدو والانبطاح على الأرض ، تبعاً لإيقاع رمي مدفعية الفرنسيين .

كان الأمر فورياً ، وقد تم إبلاغه من غير إنذار . فقد أدخل ضابط صف رأسه من باب الكوخ وأخبرنا أنه ينبغي لنا مغادرة الجبال والإسراع إلى الأودية . . إن الأمر بالعملية قد صدر ولا ريب ، من المقر العام بدقة ، وكنا خلال النهار قد تناقشنا حول إمكانية مرافقتهم كمراقب في عملية ليلية أو في كمين ضد قافلة فرنسية في وضح النهار ، غير أن الفرص لم تكن كثيرة . وكان ضابط مرح من فوج آخر قد دعاني لحضور معركة كبرى حقيقية ،

سلسلة من عمليات سوف تضطر الفرنسيين إلى زج (٢٠ - ٣٠) ألف مقاتل ضد جبال الشرق الجزائري ، وتعطي للمجاهدين إمكانيات هائلة لشن هجمات مضادة وكمائن . وهذا يعني أنني سوف أضطر إلى البقاء بين المقاومين مدة أطول مما كنت أعتقد وأتوقع . ولما كان الأمر غير المنتظر قد وصل ، فقد قطع المجال على كل جدل أو نقاش . وغادر القسم الأكبر من الجماعة الأكواخ ليشكلوا حملة طويلة تسير في اتجاه الأودية ، عبر الدروب الضيقة . ولم يكن الجنود يحملون معهم إلّا الأسلحة والأعتدة الضرورية .

مررنا خلال مسيرنا أمام مجموعة من أكواخ الفلاحين ، فرأينا جماعة من الصبية في أسمال بالية ، أخذوا في تحيتنا تحية عسكرية . وأوشكنا أن نسحق من قبل الفلاحين المتكأكئين حولنا في الظلام الذي يوشك أن يدلهم . وتبادل الجميع التحيات . . فكان الفلاحون يصافحون كل جندي بدوره . وكانت الأيدي تلتقي ثم ترفع إلى القلوب ، مع تبادل كلمات (السلام عليكم) . وأحياناً كان الفلاحون يضعون أيديهم على أكتاف الجنود أو الضباط ، ويقبلونهم على الخدين ، ويتبادلون معهم بعض الكلمات ، ثم ينتقلون إلى الشخص التالي . وتوقف الركب بعد عدة ساعات . وكانت النار تلتمع في أسفل الوادي حيث يتجمع الفلاحون . وكانت تلك غاية المرحلة الأولى . واستخرجت من الأكواخ أغطية ووسائد ، كما بسحر ساحر ، وسرعان ما تحلق حول الجنود رجال ونساء ، وقد حملوا صحافاً كبيرة عليها أقداح وأباريق القهوة المحلاة بالسكر . وبين وقت وآخر ، كان يظهر قوم آخرون ، تحدوهم الحماسة ذاتها ، وحب الضيافة ذاته ، وهم يحملون القهوة والعنب والتفاح .

استفقنا في الصباح على أزيز أولى طائرات الاستطلاع لهذا اليوم . ومرة أخرى ، وجدنا أنفسنا محاطين بالفلاحين ذوي الوجوه التي لوحتها الشمس ، وقد حملوا أقداح القهوة وعلب المحفوظات ، وظلت الجماعة قابعة في الأكواخ طوال فترة قبل الظهيرة ، ولكنهم شرعوا عند العصر ، بتحميل الرشاشات على البغال ، وفئة بعد فئة ، اختفوا وراء الضفة الجافة من النهر ، ها قد بدأ المسير نحو الهدف . وبعد ساعات من السير السريع ، ابتعدنا عن الأكواخ المنخفضة المعلقة على المنحدر ، والروابي الممتدة القاحلة ، وأصبحت الأكواخ أندر وجوداً ـ ولكن اهتمام السكان كان متعاظماً أبداً ، أيد ممدودة تتقدم منا دائماً ، فوق الروابي ، إلى اليمين وإلى اليسار . أمّا في الأمام ، فقد انحدر قرص الشمس إلى ما وراء الأفق ، فيما كانت طائرة إفرنسية ترسم في السماء دوائر واسعة . وتوقفت الجماعة الصغيرة من الأنصار (المسبلين) وهي تنتظر هبوط الظلام ، واختفاء الطائرة المعادية . وبدد الصمت صوت الضابط : هنالك أمامنا توجد (قلعة لامي) وفيها فوج فرنسي وحامية مؤلفة من (٨٠٠) رجل ، هذا هو هدفنا .

لم يبق الآن بيننا وبين القلعة أي شخص مدني ، فقد طرد الفرنسيون كل السكان ، وأجبروهم على سكنى القرية بدعوى حمايتها من الهجوم . ولم نلبث حتى مضينا إلى المرحلة الأخيرة ، ولم يعد أحد يغني أو يتكلم . فكان المرء لا يسمع في الظلام الدامس ، سوى لهاث الرجال ووقع أحذيتهم على الأرض أو فوق حصى الجداول . وكانت المدفعية الفرنسية قد صمتت ، ولكن أنوار القرية والحصن الفرنسي كانت تبدو وكأنها الضباب الخفيف المنتشر على المرتفعات ، واجتزنا الكيلومتر الأخير عبر مرتفعات

تملؤها الحفر والأشواك وتغطيها الصخور الضخمة التي أحرقتها حرارة الشمس . وخرج من الوادي شعاع من نور ، وتقدم فوق الروابي ، وتوقف الركب متحفزاً في الترقب بينما راحت أعمدة النور المنطلق من الكشافات تجوب الأرض على بعد عشرين متراً منا ، تدنو تارة وتختفي أخرى . وبعد دقائق قليلة وصلنا إلى القمة ، وقد بدت على بعد ستمائة متر تحتنا القلعة والقرية والأنوار . وكان شبح الرئيس يروح ويغدو فوق القمة . وكانت مدافع الهاون والأسلحة الآلية ـ الأوتوماتيكية ـ قد اتخذت أماكنها ، والجنود المزودون بالبنادق الرشاشة والرشاشات قد تفرقوا فوق قمم الهضاب .

كانت الساعة قد أشارت إلى العاشرة عندما انطلقت الرصاصة الأولى ، وفتح (المجاهدون) النار من كل أسلحتهم دفعة واحدة ، وأُطفئت الأنوار في القرية والقلعة . ولكن وميض القذائف ، وقنابل الهاون ، كانت تنير جدران التحصينات ، والأسلاك الشائكة . وما هي إلّا دقائق مرت بسرعة ، حتى أعقب الضجيج صمت غريب . وصدر الأمر بالتراجع والانسحاب . وانطلق الجميع يطوون الأرض ويتسلقون المرتفعات مبتعدين عن القلعة . وهنا بدأت مدفعية العدو في القصف على غير هدى ، وحدث انفجار بالقرب منا ، وانبطح الجميع على الأرض لينهضوا بعد ثوانٍ قليلة ، وتكرر ذلك مرات عديدة . وبدأنا نشعر بالتعب والإعياء . حتى بلغنا نهراً ، وأصبحت هناك رابية على الأقل تفصل بيننا وبين العدو ، وتحول الركض إلى سير وئيد تحت أوامر الملازم المطمئنة : لا يجرؤ الفرنسيون على الوصول إلى هنا ، لذلك فنحن سادة الموقف .

وصلنا في الساعة الثانية صباحاً إلى إحدى المزارع البيضاء ،

وجاءنا القوم يحملون إلينا الماء والخبز وحساء شديد اللذع وفرشاً من القش ،وأغطية، حملها فلاحون صامتون ، ثم حملوا إلينا شاياً بدون سكر ، كأنه أحضر بسحر ساحر . وجلسوا القرفصاء قربنا بينما كنا نأكل ، وكان الصمت يزداد ثقلاً لحظة بعد أخرى ، وأقام ابن المزارع حراسة حولنا ، فكان نور المصباح الزيتي ينير قسمات وجهه الشاحب ، والصارم .

* * *

إنهم يتكلمون عن الحرب فقط ، ولا يحلمون إلا بالحرب ، ولا يستطيعون ، أو بالأحرى لا يريدون الابتعاد عن مثل هذا الجو ، فذكرياتهم ليست سوى معارك . أما ما كان من أمرهم قبل إطلاق الرصاصة الأولى للثورة ، من شؤون عـائلية أو حيـاتية ، فـلا يتردد على ألسنتهم إلا نادراً . ومعظم مجاهدي الجبال يقيمون دونهم جدراناً ، فلا يريدون الاتصال بعائلاتهم ، ويتناسون كل شيء عن هذه العائلات ، كل هذا يفعلونه حتى لا يخونوا الجهاد الذي يضطلعون به ، والذي يعدون أنفسهم للاضطلاع به سنوات وسنوات .

وكان يوم آخر ، مثله كمثل بقية الأيام ، مضى علينا في الجبال المشجرة ، كان الجنود جالسين جماعات تحت ظلال الأغصان ، بين أشعة الشمس المتسربة منها . وذهبت الدوريات تتفقد الطرق التي مهدتها الأقدام ، وجماعات صغيرة أخرى كانت تعود من نوبتها في الحراسة . أما في الليل فكانت جماعات من الجنود تبتعد عن الأكواخ ، لتقيم الصلاة ، وأكد بعض الجنود أنهم يقومون بواجباتهم الدينية كاملة فيصلون في اليوم خمس مرات . وجاء جنود آخرون يحملون زجاجات وعلب صغيرة فيها ماء من غدير يكاد

يكون جافاً . وقد تعلموا بسرعة كيف يضعون منديلاً على فوهة الزجاجة لتصفية الماء وتخليصه من القاذورات التي تعطيه طعماً أو لوناً خاصاً . وما أن يفرغون من تسوية أمورهم في الصباح حتى يتجمعوا حول مائدة طويلة مصنوعة من جذوع الأشجار ، فلا يجلس أحدهم إلا بعد أن يصافح الآخرين أو يقبلهم على وجوههم .

جلس أحدهم يضرب على الآلة الكاتبة تقريراً عن الفوج باللغة الفرنسية إلى القيادة العامة ، وكان يجلس في الهواء الطلق ، ويتمتم باللغة العربية . ولم يكن من الصعب معرفة اتجاه الحديث ، وأنه يدور عن الحرب ، ذلك أن الضباط المجاهدين يستعملون الأعداد والشارات للأسلحة الفرنسية . وبدأ أحدهم يتكلم الفرنسية ، وكان يصف المدفعية العدوة بكثير من الدقة والتفصيل . فلا يترك شاردة إلا ويذكرها . ولا شك أنه درس في مدرسة فرنسية ، وكراهيته لمعلميه غير محدودة . قال : لقد حاربت في صفوف الجيش الفرنسي في فيتنام (الهند الصينية) وكنت في (ديان بيان فو) ولم نكن نحن الجزائريين ، في المرحلة الأخيرة من الحرب ، لنطلق النار على الأعداء . فجيش (ڤييت مينه) كان يحارب في سبيل حرية بلاده . وما كان للمعاقل الفرنسية أن تسقط لو أننا استبسلنا في الدفاع عنها . وأخذ ضابط آخر طرف الحديث : لقد قضى خمس سنوات في مزارع الأرز في دلتا الهند الصينية الجنوبية . ومع ذلك ، فقد احتجز أكثر من ستة أشهر بعد الهدنة ، ويؤكد هذا الضابط أن الفرنسيين رفضوا في البداية السماح له بالعودة الى وطنه ـ الجزائر ـ لعلمهم أن جميع أفراد عائلته قد التحقوا بقوات جيش التحرير ، ولكنهم في النهاية اضطروا للسماح له

بالرجوع إلى بلده فهرب بالطبع من الجيش فور وصوله إلى الوطن .

وهكذا استمر الحديث ساعات طويلة وهو يدور عن الحرب . وكانوا يتحدثون عن الفرنسيين بمرارة لما يقومون به من تدمير للقرى الآمنة ، ولما يمارسونه من تعذيب للسكان المدنيين الذين سقط منها آلاف الضحايا البريئة ، علاوة على المعتقلين في معسكرات الأسرى والذين يزيد عددهم في المعتقلات على مائتي ألف ، في تلك الفترة ، وكانوا يؤكدون لي أن فرنسا سوف تخسر الحرب ، وأن الثورة سوف تربحها مهما بلغ حجم الجيوش التي ترسلها حكومة باريس إلى الخطوط الأمامية ، وبالرغم من الموقف اللامبالي أو المساعدات التي تقدمها الدول الغربية ، فإن ثقة المجاهدين بالنصر هي ثقة راسخة لا تتزعزع .

بعد القيلولة ، في أيام الانتظار والراحة ، كنا ننزل نحو الوادي متخذين طرقات من الوعورة بحيث نضطر إلى التمسك بالشجيرات خشية السقوط . وبلغنا بعض الأكواخ ، حيث يقيم اللاجئون الذين جاؤ وا من وسط الجزائر باتجاه الشرق نحو الحدود التونسية ، حيث يجدون الأمن . وبينما ينصرف الضباط الى توزيع الألبسة والنقود ، على الرجال والنساء ، يجلس الجنود يتجاذبون أطراف الحديث مع المدنيين ، ويبدو أنهم يتجنبون الأطفال ، وأخذني جندي ضيق الوجه ، عصبي القسمات ، نحو شجرة أوتنا بظلها ، بحيث لا يسمعنا أحد ، وأسرّ إليّ بقوله : أنه كان يعمل قبل اليوم داخل الحدود التونسية ، في إحدى القواعد الكائنة في مدينة تونسية ، وجاءته ذات يوم امرأة جريح وقالت له إنها فقدت كل شيء ، أسرتها وبيتها أثناء غارة فرنسية شنت على القرية . وتابع الجندي : لن أنساها أبداً ، وددت لو آخذ بندقية ، وأخرج إلى المدينة التونسية ،

وأقتل كل من أصدفه من الفرنسيين فيها . ولكن حسناً كنت في تونس ، والأوروبيون هناك لم تبق جنسيتهم فرنسية ، بل تونسية . وقد يكون بعضهم بريئاً مما يرتكبه الفرنسيون في الشمال الأفريقي في السنوات الأخيرة . وصمت الجندي ثم إنه أضاف : هذا ما يصعب احتماله ، وتصعب رؤيته ، فإن الكثيرين منا يرهقهم أن يتذكروا ما حدث ، وما يمكن أن يحدث لعائلاتنا في القرى التي يسيطر عليها الفرنسيون أو يهاجمونها ، ولهذا تجدنا نتجنب كل ذكرى ، وكل اتصال بعائلاتنا . ولعل هذا هو الذي يحملنا على تجنب الاختلاط بالأطفال هنا واللعب معهم .

اتجهنا عند الغسق نحو المرتفعات ، حيث توجد أكواخنا المصنوعة من أغصان الشجر . وحملوا إلينا الطعام فوق موائد ، وكان مؤلفاً من خبز ضخم ، وطبق كبير من البصل ، وسلطات وبندورة (طماطم) وبطاطا مقلية ، وقطع من لحم الدجاج ، وماء يمازجه عصير بعض الفواكه . ويمكن للمرء هنا الاحتفاظ بشعوره بالسلم والطمأنينة والفرح ، في وسط الطبيعة الخلابة ، لو كان باستطاعته أن يصم أذنيه عن هدير عربات نقل الجند الفرنسية (الكميونات) الآتية من وراء الجبل ، وعن هدير طائرات الاستطلاع ، وإذا عميت عيناه عن رؤية بريق الأسلحة في الخنادق ، حيث يرتاح الجنود الجزائريون ، وإذا لم يعر المرء سمعه لأحاديث الشهود المريرة ، وطلبات العون والنجدة والحماية الصادرة عن الفلاحين ضد الحملة القادمة من الشمال .

وقد روت لي المرأة العجوز التي دعتني لتناول قدح من القهوة ، فحدثتني بهدوء عما حدث قبل شهر : حيث اجتازت الدبابات الفرنسية مجاري المياه ، وبدأت القنابل تتساقط بين

الأكواخ ، وعمّ الرعب القرى المحروقة ، وهرب السكان إلى الجبال . ولكن كل الناس لم يستطيعوا الهرب . ولم يتمكن أحد الرجال من النجاة من القنابل ، واثنان آخران أخذا أسيرين فأعدمهما الفرنسيون رمياً بالرصاص. وما أن تبددت سحب الدخان والغبار، وانكفأت الدبابات عائدة إلى الشمال ، حتى عاد سكان الوادي ليبحثوا عما كان (بيوتاً) لهم من قبل . وشرعوا ينبشون بين الرماد لاستخراج الحجارة ، ووضع أساسات جديدة . ولقد اختطف الفرنسيون زوج المرأة العجوز ، وانتهبوا كل ما كانت قد ادخرته لأيام العسرة . لم يقدني أحد لسماع شهادة هذه العجوز ، فليس ثمة وجود هنا لرجال الدعاية المحتالين .

ويبقى أقوى من كل الشهود والخرائب ، أيدي أولئك الفلاحين التي تتشبث بأسلحة الجنود : ورد الفعل عند الأطفال . وقد حدث لي أكثر من مرة أني عندما كنت أنزل بين تجمعات أكواخ الفلاحين أن ألتقي بأطفال يصرخون ذعراً وهم يختفون بين ظلام الأكواخ . وعندما يأخذ اليأس مني كل مأخذ ، أصحب معي أحد الجنود ، وأبحث عنهم لأهدىء من روعهم ، وأوضح لهم موقفي . وكان يكفي الطفل أن يراني بصحبة أحد الجنود حتى يتخلى عن كل خوف أو وجل ، بل إن خوفه ينقلب إلى حب استطلاع مثير للسلوى . وأما تفسير خوف الأطفال فإنه مبني ـ يقيناً ـ على تصورهم لأول وهلة أن وجهي الغريب هذا لا بد أن يكون وجهاً فرنسياً . وهكذا عشنا أياماً ، قام خلالها المجاهدون بشن هجوم على قلعة فرنسية .

قمنا بزيارة كوخ لا يختلف البتة عن بقية الأكواخ المحيطة به ما خلا علماً أبيض وأخضر يتوسطه الهلال والنجمة ، وهو علم جبهة

التحرير . كان البيت مستطيلاً ، وهو ذو أسس حجرية مستديرة ، وثمة أوتاد متينة تشكل واجهته وحوامل سقفه ، وكان السقف مؤلفاً من أغصان ضخمة تعلوها أخرى أرق وفوقها طبقة من قشر الشجر . ولم تكن المسامير مستعملة في هذا البناء ، إنما حلت الجبال محلها . وكان القسم الأكبر من الأرض مغطى بسجادة ذات ألوان عديدة ، واصطفت وسائد ضخمة على طول الجدران . ودخل فلاح يحمل قطعة ضخمة من الخبز ، ويبلغ هذا الخبز ضخامة دولاب الطاحون ، وهو يؤكل دائماً طرياً ساخناً . وكان فلاح آخر يتبعه بإبريق فيه حليب ، وثالث يحمل سلطة البصل . وأبداً كانت تشع في عيونهم تلك النظرة المرحبة ، وتمتد أيديهم بالمصافحة الحارة أو العناق والقبل على الخدين . وهم ينظرون إلى كل غريب نظرتهم إلى (أخ ـ ضيف) . وفي إحدى زوايا الكوخ كانت تقوم مائدة مطلية باللون الأخضر الفاتح وقد نقشت عليها حروف عربية . إنها آيات قرآنية كتبت لتكون درساً لطفل . ولكن أمداً طويلاً قد مضى دون أن يستطيع أحد نقل هذا اللوح ، ويضعه أمام أي طفل ، ويشير إلى الحروف المتداخلة ليلقنه إياها . أما كتاب التمارين فكان مهجوراً وقد علاه الغبار . وفي زاوية أخرى من الظل ـ في الكوخ ـ كانت بعض النسوة قد جلسن القرفصاء حول القدر ، كن يلقين بالدقيق في القدر ويقطعن لحماً . وثمة طفل مريض يصرخ وهو يلتصق بظهر أمه ، بينما لاذت الأخريات بالصمت ، ورحن يلاحقننا بأنظارهن . وهناك أيضاً ، أربعة أطفال في الخامسة تقريباً يرتدون الثياب البالية ، لم أرهم يلعبون أبداً . وهذه ـ كما أذكر ـ يسمونها تصرفات ما يسمى ـ بالأطفال الشيوخ ـ الذين ينطوون على أنفسهم في صمت ووجوم .

بعد الظهر ، غادرنا الوادي بشيوخه ونسائه وأطفاله ، وكانت القرية خالية من الشباب ، فالجميع قد قصدوا الجبال وحملوا السلاح . وكانت هذه آخر مرحلة في المسير إلى القلعة ، وليلة الهجوم قد أزفت . ولم تمض عدة دقائق حتى لحق بنا فتى في الرابعة عشر ورجل آخر متقدم في السن يتبع الفتى باستمرار ، وكان الفتى يحمل بندقية آلية ـ أوتوماتيكية ـ أغلب الظن أنه غنمها من جندي جريح ، وتقدم من الرئيس : انه يريد الذهاب مع المجاهدين الثوار ، والانضواء تحت لواء الجيش . وتقدم الرجل المسن هو الآخر ، ولا يكاد يشعر به أحد ، وصافح الرئيس ، وعانق ابنه على الخدين . واستدار ، وعاد ، من غير أن ينطق ولو بكلمة واحدة . وقد خفضت جميع الأنظار . وران صمت ثقيل ، ولحظت أني لم أكن الوحيد الذي ينظر إلى المنحدر والأشجار . ولكني لم أرَ الفتى أثناء سيرنا الليلي ، ولا شك أن الرئيس قد أرسله إلى القاعدة ليتدرب .

خاض المجاهدون معركتهم ـ ضد القلعة الفرنسية ـ بنجاح رائع ، كعادتهم ، واتخذوا بعد ذلك طريق العودة عبر أودية أخرى . حتى إذا ما وصل الجميع إلى مجموعة من الأكواخ ، وقف الرئيس خطيباً ، فألقى كلاماً حاداً وجه فيه اللوم إلى رجل لأنه لم يرسل ابنه المريض إلى المركز الصحي للمجاهدين ، والقريب من الحدود ، ومضى (الرئيس) يتدفق كالسيل في حديثه الموجه إلى الفلاحين ، وأظهر استجابته لطلباتهم بالمساعدة ، كما أنه أرشدهم إلى الملاجىء الأمينة المنظمة في كل المنطقة ، ونصحهم باللجوء إليها في حال حدوث حملات فرنسية . وفي قرية ثالثة ، قام ضابط من المجاهدين بتوزيع مساعدات عائلية وأقمشة . فكان كل فرد

يوقّع على الإيصال ، ومعظمهم ببصمة إبهامه على السجل . وكلما بلغنا مجموعة من الأكواخ ، انبرى لنا سكانها يحملون الماء في الأوعية والسطول . وكانوا أول ما يسعفون الجنود المرضى ، المحمولين على البغال . فيصبون الماء على أعناقهم . ويقدمون لهم الأكواب ليشربوا . وكان كل شيء يسير سيره الطبيعي ، من غير ضجة ولا ضوضاء . ثم وصلنا في ساعة متأخرة من الليل إلى مقر القيادة ، وكان عبارة عن كوخ غير مكتمل البناء ، يقع في سفح الجبل ، وأخذنا في الاستعداد للنوم ، حيث رقد بجانبي أحد الضباط ، وأخذ يحدثني بصوت خافت على الحدّ بين الحرب والإرهاب :

إننا نحصل على الطعام وغير الطعام من السكان . ونحن نمضي النهار في الأكواخ ، إنه شعبنا ونحن جيشه ، بل إخوته وأولاده أغلب الأحيان . ولكن هل يصح هذا ليكون ذريعة للغارات الجوية والقصف المدفعي والمذابح التي يقوم بها الفرنسيون ؟ وهل هذا ما يسميه الفرنسيون (التهدئة) ؟ وصمت . وطال الصمت . ورحنا في نوم عميق .

* * *

قال لي ضابط وهو يقدم لي مجموعة أوراق مكتوبة على الآلة الكاتبة : « هذا هو الإنذار الأخير » ! ثم استمر في تقليب عدد من المغلفات كانت موضوعة فوق محفظة . وكانت تلك الأوراق عبارة عن رسالة موجهة إلى موظف عربي في مدينة صغيرة تبعد بضعة عشر كيلومتراً عن الكوخ الذي كنا نطلب فيه مأوى لنا من حرارة الشمس . وكانت الرسالة تدعو الأخ المواطن بعبارات أنيقة ، وبأسلوب فيه لف ودوران أن يدير ظهره إلى الفرنسيين ويغادر مركزه حيث يعمل

لحساب الأعداء . فإذا رفض ، عندئذ يحكم عليه بالموت . وخلال عدة أيام تصل الرسالة إلى (الخائن) وسوف يرى شارة (الإنذار الأخير) على الزاوية اليسرى من المغلف (الظرف) فيفهم المقصود رغم لهجة الرسالة المطمئنة وختامها الرقيق ، مع الإخلاص والاحترام . وسوف يعلم أنه إذا لم يخضع للتهديد ، اجتمعت هيئة من المحلفين تحت علم الثورة ، وكلفت ثلاثة رجال بتنفيذ الحكم الذي تصدره ، وتكون مهمتهم مطاردة المحكوم عليه ليلاً ونهاراً . ووضع الضابط ربطة المغلفات بهدوء ، وكانت تناهز اثني عشر مغلفاً ، في محفظته . ثم تابع حديثه مع رئيسه بهدوء ـ باللغة العربية ـ وبعد بضع دقائق حمل محفظته واختفى . وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها هذا الضابط . لقد جاء من السهل ولا شك ، من الجانب الآخر للجبل . ونظر إليّ الرئيس ، وقدم لي النار لأشعل لفافة التبغ (السيكارة) وأجاب على سؤالي : « كلا ! إننا لم ننفذ أي حكم في قطاعي ، غير أنه سبق لنا أن حاكمنا وصفينا بعض الخونة والجواسيس » .

وكانت هذه هي المرة الأولى التي أقابل فيها ، بشكل مباشر ومؤثر شهود الحرب الأخرى . معركة (المجاهدين) بالقنابل اليدوية والمسدسات والمدي ـ السكاكين ـ في المناطق الواقعة تحت المراقبة الفرنسية جزئياً أو كلياً . وقلما يتحدثون في المجال عن هذه المعارك . غير أني التقيت برجال آخرين من جيش التحرير الوطني الجزائري ومن أنصاره الذين أعطوا تفصيلات عن (المغاوير ـ الفدائيين) وعن (فرق الانتحار) وعن (الإرهاب في المدن) . وتصف الدعاية الفرنسية الأعمال التي تستخدم فيها القنابل اليدوية بأنها تعبير عن (التعطش إلى الدماء) ، وأنها أعمال (وحشية غير

انضباطية) . غير أن المجاهدين يدافعون عن ذلك قائلين : إنه تنفيذ لأحكام (محكمة عسكرية) . فالعرب الذين يتعاونون مع الأعداء ، ويرفضون الإصغاء إلى الإنذارات ، يحكمون بالخيانة ، والتعاون مع العدو ، وهذا يستدعي حكم الموت . وأكد لي رجل سياسي من (المجاهدين) : بأنهم لا يطلبون إلى هؤلاء تبديل موقفهم ومساندة منظماتهم ، بل مجرد التخلي عن خدماتهم في المؤسسات الفرنسية . والبقاء دون أي نشاط . فإذا كان هذا ما يسمونه ـ الإرهاب ـ فليكن . وإن المرء ليجد مثيلاً لهذا في تصفية الذين يتعاونون مع الاحتلال الألماني في السويد ، وكان يشرف على ذلك عدد من منظمات المقاومة في بلدان عديدة من أوروبا الغربية ، خلال الحرب العالمية الثانية .

* * *

تسمى الجماعات التي تعمل في مدنها أو مناطقها (الفدائيين) . ويتناقل الناس قصصاً فريدة عن معارك هؤلاء الفدائيين . فإذا ما لقي أحد هذه الجماعة حتفه متأثراً بالتعذيب الذي يلقاه على يد الجنود الفرنسيين ، تسلل أفراد الجماعة ليلاً إلى مراكز العدو ، إلى حيث يوجد المسؤول عن قتل زميلهم ، ويختفوا بعد أن يذبحوا العشرات من الجنود الفرنسيين . وتطرق الأذان قصص هؤلاء الفدائيين . فقد جاء تقرير يقول إن أحد الأسرى من المجاهدين ، يكاد أن يتكلم ويبوح بالأسرار تحت وطأة التعذيب الهائل . فما كان من الضابط إلا أن أرسل أحد عشر متطوعاً لقتل رفيق السجين . ولم يعد من الأحدعشر سوى واحد فقط . والفدائي جندي نموذجي ، والفقرات الأربع الأولى من القسم الذي يلفظه الفدائي بالغة الروعة . وهي :

١ ـ إن من يضعف أمام العدو يستحق الموت .
٢ ـ يجب على الفدائي أن يهتم بنظافة جسمه .
٣ ـ لا ينبغي للفدائي إهمال فروض الصلاة .
٤ ـ يجب على الفدائي إطاعة أوامر القيادة العليا إطاعة عمياء .

والمعروف أن هؤلاء الفدائيين لا يشهرون السلاح في وجه الخونة العرب فحسب ، بل إنهم يتصدون للجنود والشرطة الفرنسيين ممن يمارسون أعمال العنف التي تؤدي إلى موت الجزائريين . وكذلك ضد عشرات ألوف المزارعين الفرنسيين أو من يسمونهم (بالمعمرين) . والكراهية التي يكنها المجاهدون (للمعمرين) كراهية عميقة تلمس آثارها ليلاً ونهاراً في الجبال ، ويروي هؤلاء المجاهدون قصصاً مريعة عن وحشية المزارعين الفرنسيين (المعمرين) في معاملتهم للعرب الذين يعملون لديهم . وعن الأجور الضئيلة التي يتقاضونها والظلم الذي يتعرضون له . وكان يوجد في الجيش الفرنسي فرق كاملة مؤلفة من أولئك (المعمرين) . غير أن السلطات الفرنسية عملت في سنة **١٩٥٦** على حل هذه الفرق لما لمسته من قسوة متناهية تجاه المواطنين المدنيين الجزائريين .

٢ ـ فضائل الثوار

في تقرير عن (جيش التحرير الوطني الجزائري ومجاهديه)[1] ورد ما يلي : « يتمتع جيش التحرير بنظام محكم ، إنه جيش منظم يرتدي جنوده زيّاً عسكرياً موحداً ، ولقد أقرت بهذا البلاغات الحكومية ، ويحمل كل جندي منهم على كتفه الأيسر شارة تمثل العلم الجزائري ، نقشت عليها عبارة : « جيش التحرير الوطني الجزائري » ويحمل على صدره علامة رسم عليها هلال ونجمة ، وهذه الشارة تعطى للمتطوع عندما ينضم لصفوف الجيش . ولا ترى إلا قلة ممن يضعون على رؤوسهم (الشملة) أو (الزمالة) . ولا يقتصر تنظيم الجيش على اللباس فحسب ، بل إن كل جندي من جيش التحرير يتبع وحدة نظامية مرتبة ترتيباً واضحاً من الجندي البسيط حتى القائد الأعلى ، ومن الواجب أن يتقدم بجميع طلباته إلى رئيسه المباشر ، وتهتم المنظمة العسكرية كذلك بكل ما يتعلق بعائلات الجنود ، فتسجل جميع المعلومات التي تمكنها من إعانة تلك العائلات .

ومن الوجهة الحربية ، فإن تنقلات الوحدات وهجماتها لا

---

(١) جريدة (المقاومة الجزائرية) ٢٢ نيسان ـ ابريل ـ ١٩٥٧ ص ٦ ـ ٨ عن كتاب (شهادة ضابط فرنسي) .

تجري إلّا حسب التعليمات الواردة من الأعلى ، من القيادة ، وفقاً لبرنامج يتفق عليه داخل المنطقة ، أو باتصال مع المناطق الأخرى التي يتكون منها الوطن الجزائري . وأما طاعة الأوامر ، فهي أمر مفروغ منه ، ولم أر طوال إقامتي في صحبة الجنود من استخدم القيود ـ الأغلال ـ إلا على سبيل المزاح . ولا يعني ذلك أنه لا توجد قوانين عسكرية يعمل بها جيش التحرير ، بل على العكس من ذلك ، فإنه باستطاعة أي جندي أن يشرح بصفة معقولة وطبيعية النظم التي يخضع لها جيش التحرير ، ومما يدل على ذلك، أن الحكم بالإعدام ، لم ينفذ إلّا مرتين في كامل الولاية ، لمدة سنة كاملة . وقد نفذ في المرة الأولى بسبب التعدي على حرمة امرأة . وقد حكي لي أن الجندي الذي نفذ حكم الإعدام كان يبكي عندما رماه بالرصاص . ومن ذلك الحين ، صار كل مدني يستطيع أن يؤوي الجندي في نفس البيت الذي تنام فيه بناته من غير تحرز أو خوف . أما في المرة الثانية فقد نفذ على جندي أضاع سلاحه : إذ أن الجيش لا يسمح لأي كان أن يفرط في سلاحه ، بل يوصيه بتخبئة سلاحه إن هو أصيب بجراح بالغة تمنعه من حمله .

هذا ، ويتمتع جيش التحرير بمصالح مختلفة ، مثل (مصلحة الصحة) فكل وحدة عسكرية تضم ممرضاً قادراً على إخراج الرصاص من الجرحى . ولدى كل جهة ، أو ناحية ، أطباء يعالجون الجرحى والمرضى ، ويقومون في الوقت ذاته بتدريب الممرضات والممرضين ، ولا يهملون مع ذلك الأهالي بل يأتونهم بأدوية لا تتوافر لدى الجيش الفرنسي . ومن مهام الأطباء ، فحص المتطوعين الجدد ، واتخاذ القرار بقبولهم ورفضهم ، حسب حالتهم الصحية .

كان مما لاحظته أثناء مقامي في المناطق التي زرتها : أن جنود جيش التحرير يحترمون بكل دقة قوانين الحرب ، والدليل على ذلك ، ما شهد به أسيران من الجيش الفرنسي التقيت بهما ، فقالا : خرجنا من مراكزنا لنأتي بالماء على البغال ، ولكننا وقعنا في كمين ، فيئسنا من الحياة ، واعتقدنا أننا لن نرى فرنسا أبد الدهر . واليوم وجدتهما يعيشان بين المجاهدين ، ويأكلان مما يأكلون ويطالعان الصحف ، ويبعثان بالرسائل إلى عائلتيهما . وقد أكد لي المسؤولين في تلك الناحية أنهم كلما أغاروا على قرية لتدميرها ، بادروا قبل كل شيء إلى إبعاد المدنيين . وقد سمعت من أفواه جنود عديدين أن قائد وحدتهم ، أمرهم في بعض الكمائن بإيقاف إطلاق النار عندما شاهد سيارة مدنية في وسط قافلة عسكرية ، وقال لهم : « لا ترموا المدنيين ! لا ترموا المدنيين ! » .

ثم إن جيش التحرير الوطني ، يعلم يقيناً ، أنه جيش وطني يجاهد من أجل الحصول على السيادة الوطنية لبلاده ، ولست ترى وحدة لا تحمل العلم الجزائري المحمول على طرف بندقية الجنود . وإن كل وحدة من وحدات جيش التحرير الوطني (بوهران) لتهتز طرباً للانتصارات التي تحرزها وحدة أخرى في مناطق (قسنطينة أو الجزائر) وانها لتتألم أيضاً عندما تبلغها ما تتعرض له (قبائل الأوراس) من التعذيب الذي يسلطه عليها الفرنسيون ، ذلك أن كل مجاهد من مجاهدي جيش التحرير يدرك أنه لا معنى لجهاده اليومي إلا داخل إطار الجهاد الذي يخوضه مجاهد آخر في الطرف الثاني من القطر الجزائري ، ولذلك ، يتابع كل مجاهد تفاصيل العمليات التي تقع في الجزائر ـ العاصمة ـ أو في بلاد القبائل الكبرى أو في جبال الأوراس . هذا وتعمل معظم

الوحدات في الجهات التي تنتمي إليها ، ولكن المجاهد من (بسكرة) أو من (قسنطينة) ـ على سبيل المثال ـ والذي فر من الجيش الاستعماري ، والتحق أثناء المعارك بالمجاهدين ، يجد بطبيعة الحال مكانه بصفوفهم ، حتى لو كان ذلك بعيداً عن المنطقة التي ينتمي إليها . ويتغنى المجاهدون بأناشيد وطنية تربط بين كفاحهم من جبال (الأوراس) إلى جبال (تلمسان) ومن ذلك نشيدهم .

من بلادنا طلع صوت الأحرار يـنـادينـا لـلاسـتـقـلال
يـنـادينـا لـلاسـتـقـلال الاسـتـقـلال لـوطـنـنـا
تضحيتنا للوطن خير من الحياة أضحي بحياتي وبمالي عليه
يـا بـلادي يـا بـلادي أنـا لا أهـوى سـواك
قـد سـلا الـشـوق فـؤادي وتـفـانـى فـي هـواك

مـن جبالـنا

نحن سـور بك دائـر وجـبـال راسـيـات
نحن أبنـاء الجـزائـر أهـل عـزم وثـبـات

مـن جبالـنا

نحن بـالأرواح نفـدي كـل جـزء من ثـراك
إنـنـا أشـبـال أسـد فـاصـرفينـا لـعـداك

من جـبالـنـا

تظهر الوحدة والتلاحم بين الجيش والشعب كل يوم في الأقوال والأعمال ، ويؤكد ذلك عمق ما يجمع بينهما من روابط اللغة والدين والأرض والعادات . ورغم جميع الكوارث والنكبات فإن الفلاح الجزائري لم يهمل أخلاقه الطيبة . ولم ينس تقاليده الأصيلة

التي اشتهرت بها الخيمة والمنزل في الجزائر . فصاحب الدار يقدم بنفسه للجنود الماء ، ليغسلوا أيديهم ووجوههم في الصباح وقبل الأكل وبعده . ويعرض عليهم كذلك عند نزولهم عنده الشاي والقهوة . ولا يمكن أن تسمع في جيش التحرير كلمة نابية ـ بذيئة ـ . والكل ينادي الآخر بعبارة (يا أخي أو ـ يا صاحبي !) . وهم يتذوقون حلاوة النوادر المضحكة ذاتها ، ويستمتعون بالأغاني الشعبية التي توحي بها المعارك البطولية ، وكثيراً ما يساهم الجنود في حراثة الأرض التي تركوا خدمتها منذ ما يقارب السنتين .

وبما أن جيش التحرير يضم أغلبية ساحقة من أهالي البادية ، فإنه يشتهر بذات الصفات التي اشتهروا بها ، وأبرزها : الصبر والصمود والبساطة . ويملك معظم الجنود قطعاً صغيرة من الأرض كانوا يعملون فيها بأيديهم ، ومنهم من كان يعمل عند المعمرين ، من غير أن يكون له مورد رزق آخر . ولذلك ، فإن جيش التحرير يضم جماعة ممن تطوعوا للحرب في (الهند الصينية) للحصول على مورد للرزق .

وأما سكان المدن ، فيمثلهم في جيش التحرير أولئك العمال الذين عاشوا طويلاً في فرنسا ، وأولئك الطلاب الذين كانوا في معاهد الجزائر أو فرنسا ، والتحقوا بالجبال . وكذلك الأطباء الذين هجروا مراكزهم وانضموا الى الجيش كجنود . والحقيقة هي أن العناوين ليست هي المقياس في الاضطلاع بالمسؤوليات ، إنما هي الكفاءات ، ولذلك فإنه كثيراً ما يكون قائد الوحدة عاملاً أو فلاحاً بسيطاً كوّنه الكفاح والجهاد .

إن جيش التحرير الوطني الجزائري هو جيش ثوري ، ومعنى ذلك أنه يتكون في معظمه من الشبان الذين يدفعهم الإيمان ،

وتربطهم أواصر الأخوة . ومن هؤلاء الشبان الذين لا تتجاوز أعمارهم الخامسة والعشرين سنة ، يتخرج الضباط والقادة العسكريون والمسؤولون الحربيون من بين المئات والألوف من المواطنين الجزائريين الذين تقول فيهم أغنية شعبية :

« إن شباب اليوم شابت رؤوسهم »

غير أنهم احتفظوا بالرغم من ذلك ، بحيويتهم وابتسامتهم وإيمانهم بالمستقبل ، وقد لمست عمق هذا الإيمان في مناسبات كثيرة ، وهو الأمر الذي تبرزه محادثة أجريتها مع أحد المجاهدين ، حيث قال لي ببساطة : **هل يحسب المستعمرون أن أولئك الذين صعدوا إلى الجبال سوف ينزلون منها ، قبل أن يحصلوا على الاستقلال ، ولو فرضنا أنه لم يبق بالجزائر إلاّ امرأة واحدة ، إلاّ امرأة عمياء ، فإنها لن تتردد في حمل السلاح والكفاح من أجل وطننا . ولو فرضنا أن تلك المرأة قد استشهدت بدورها أثناء اضطلاعها بواجبها ، فإن الجزائر كلها ، الجزائر التي أبيد أهلها وأحرقت غاباتها سوف تثور حجارتها على المستعمر الطاغية »** .

وعندما يتحدث المجاهدون فيما بينهم عن مشاريعهم في المستقبل ، فإنهم لا يقولون مثلاً : « في اليوم الذي يقف فيه القتال » وإنما يقولون : « في يوم الاستقلال » . هذا وإن المسؤولين لا يتم تعيينهم في مواقع المسؤولية تبعاً لكفاءتهم العسكرية والقيادية فحسب ، وإنما تراعى زيادة على ذلك أقدميتهم في العمل الثوري قبل اندلاع الثورة ، ولا يحتمل القائد أثناء التدريب أي تقصير أو تهاون ، ولا يقبل أية مخالفة أو تمرد على الأوامر ، ولكن شرفه لا يسمح له في الوقت ذاته بإهانة الجندي أو التصغير من شأنه . إذ أنه يعتبر كل واحد نفسه أنه مجاهد يؤدي

واجبه وفقاً لعزته وكرامته . وإن أشد ما كانوا يبغضون في الجيش الافرنسي إقدامه على ضربهم وإهانتهم . ولهذا فإن الاحترام يسود علاقاتهم . وتعتمد الأخوة التي تؤلف بين قلوبهم على المساواة التامة فيما بينهم ، وعلى الشعور العميق بالصداقة ، والبساطة التي تتصف بها علاقة الجندي بقائده ، فهم يأكلون من طعام واحد ، وينامون على حصير واحد ، ويتصدون لأخطار واحدة . وإن أسخف الأكاذيب التي ترددها الدعاية الاستعمارية هي ما يرمون به القادة من التهرب من مواجهة الأخطار ، وتعريض الجنود لها . وقد قال لي أحد المسؤولين : « **إن حياتي ليست ذات أهمية تفوق أهمية حياة أي مجاهد آخر ، طالب مثلي أو فلاح أو عامل** » . وفعلاً فقد استشهد هذا المسؤول في أول معركة ، وهذا برهان على صدق قوله ، كما يكفي لتأكيد هذا القول ما يردده الجميع ، قادة وجنود ، بقولهم : « **ان الشعب أعز علينا من عيوننا ، وإننا لنفتخر به** » .

وأعترف أنني لم أتمكن من التجول في مجموع الجهات التي تقع تحت نفوذ جبهة التحرير الوطني ، ولكن شاهدت كثيراً من البراهين والدلائل التي تؤكد أن جبهة التحرير الوطني وجيشها يسيطران على مناطق واسعة جداً من الوطن الجزائري . فهذا مسؤول حضر من منطقة الجزائر أو قسنطينة أو الجنوب ، وهذا جريح أوتي به من مكان بعيد ، وهذا جندي فرّ من الجيش الفرنسي من نقطة بعيدة عن النقطة التي يوجد بها الآن . ولاحظت أثناء تنقلاتي بين الدواوير والمداشر أن الجيش حاضر في كل مكان ، وأن نفوذ الجبهة موجود في كل موضع ، وقد صرح لي مسؤول قائلاً : « **إننا لا نريد إظهار قوتنا إذا كان في ذلك ضرر للشعب ،**

ولهذا تجدنا نوصي المواطنين بالامتثال إلى عمليات ـ إعلان الولاء ـ التي تنظمها السلطات الفرنسية حتى لا يكونوا عرضة لقمع لا فائدة منه » . وهذا ما جعل نظام الجبهة يختفي أحياناً في الظاهر فقط ، في جهات كاملة ، وبالعكس من ذلك ، فإن الإدارة الفرنسية أصبحت معدومة في الواقع .

وهكذا ، نرى السكان المدنيين يعيشون بصفة سرية في جزائر مستقلة ، يديرها جزائريون وفقاً لتجاربهم الخاصة ، نعم ، إن السلطات الاستعمارية لا زالت تفرض الضرائب على الأهالي في الجهات التي تتمركز فيها قواتها ، ولكن سجلات الأحوال المدنية فارغة ، إذ صار المواطنون يسجلون مواليدهم لدى الإدارة الجزائرية ، ويحتكمون إلى محاكمهم الشعبية في جميع المنازعات المتعلقة بالأملاك والإرث والطلاق ، الذي لم يعد فيه للزوج التصرف المطلق . كما أن الإدارة الجزائرية تجمع الضرائب ، من غير أن تفرض على الأهالي مبالغ باهظة على نحو ما كان يفعله المستعمرون ، فكل فرد يدفع ما هو مناسب لوضعه ، حتى المعمرون الذين صاروا يعترفون بنفوذ إدارة الجبهة باتوا يقدمون الضرائب لجبهة التحرير الوطني . وتتحمل الإدارة الأهلية مقابل ذلك أعباء نفقات عائلات المجاهدين والمنفيين والمسجونين والمبعدين والشهداء من الجنود والمدنيين وحتى عائلات الخونة الذين أعدموا . وقد قضى جيش التحرير على أبغض ممثلي الإدارة الاستعمارية مثل (الشنابط) و (القياد) الذين عوضوا بضباط الشؤون الأهلية . وإذا بقي قائد في منصبه من غير أن يستقيل ، فذلك لأنه متفق مع الجبهة ومتعاون معها .

إن الجبهة منظمة شعبية ، تضم في صفوفها كل مواطن ، ولا



المرأة المسلمة ـ صمود في مواجهة الاستعمار

ترفض من صفوفها إلاّ أولئك الذين اشتهروا بتواطئهم مع الاستعمار ، وهي قبل كل شيء منظمة الشعب التي تعمل لتحقيق التحرير الوطني ، ولكل فرد منها مسؤوليته : « **إذ إن الشعب هو العين التي يرى بها جيش التحرير ، وإن جيش التحرير هو عمدة الشعب** » . هذا ما قاله لي أحد المجاهدين . وفعلاً ، فإن وحدات جيش التحرير لا تستطيع العيش بدون تأييد الأهالي لها ، فهي تجد عندهم السلامة وحفظ أسرار التنقلات والمأوى والمأكل والمساعدة في تأدية العمليات الضخمة مثل تلك التي سمحت في صيف سنة ١٩٥٧ بقطع مائة كيلو متر من الأسلاك الشائكة وتدميرها في ليلة واحدة على الحدود المغربية . ويشكل المواطنون ، بالنسبة إلى جيش التحرير ، جيشاً آخر من العيون والحرس الذين يراقبون تحركات العدو ، ويكشفون عملاء الاستعمار . فتجد مثلاً الراعي الصغير الذي لا يتجاوز عمره الخمس سنوات ، يرد على كل من يسأله عن حركات المجاهدين بقوله : « إني لا أعرف اللغة العربية » وهو يقول ذلك بالعربية ، ثم يمضي لشأنه مرفوع الرأس . وقد تحدث في بعض الأحيان مناقشة بين العسكريين والمدنيين ولكن ذلك لا يؤدي إلى أي اصطدام بين الفريقين ، إذ أن لكل منهما أن يحل مشاكله أمام الهيئة المشتركة من الجبهة والجيش . وتقوم الإدارة الجزائرية ، باستمرار، بإدخال تطورات عميقة على نظام العيش في البوادي . وهي تكتفي في كل مرحلة ، بتطبيق المبادىء التي تسمح لها بتكتيل الشعب وتوجيهه نحو هدف واحد . وقد نجحت الجبهة في الوصول إلى هذا الهدف ، إذ لم يعد هناك أثر للمنازعات التي كان يغذيها الاستعماريون ، وأصبح باستطاعة المجاهد أن يأتي من جهة بعيدة ليأخذ مكانه في خيمة ، أو تحت سقف ، قبيلة أخرى ، ويجلس بين أفرادها ، وهو

جالس بين أهله وإخوانه ، إنه جزائري . **فكيف نسمي هذا الجهاد ؟ . .**

إننا نسميه (ظهور العدالة) . إن هذه الحرب هي من نوع الحروب التي تنطوي على معنى أن الانتصار الذي سوف يتحقق ، سيكون نتيجة انتصار قوة على أخرى ، وسيكون خاتمة تطور وتحسن ثورة عسكرية وسياسية ومادية . والدليل على ذلك أن الثورة التي بدأ بها عشرات المجاهدين لا يمتلكون أكثر من بنادق للصيد . ولم تمض عليهم إلا سنة واحدة حتى صاروا آلافاً من المجاهدين ، يقاتلون بأسلحة عصرية ، ويسيطرون على مناطق واسعة . ولم توجد قبل ذلك إلا بعض الخلايا الثورية السرية التي باتت بعد ذلك تشكل منظمة شعبية تقود الكفاح ، وليست هذه النتائج كلها إلا مرحلة من مراحل الثورة . أما النتيجة الأخيرة ، فسوف تظهر في المستقبل ، وقد عبّر عن ذلك مجاهد فلاح في هذه الكلمات : « **لقد حرثنا الأرض ، وبذرنا ، وما تراه اليوم ليس إلا نبتة أولى ، أما الحصاد فموعده الغد** » .

ولقد قضى الجزائريون وقتاً طويلاً لتحقيق وحدتهم ، وهذه الوحدة الملموسة هي أساس قوتهم . وهذا ما عبر عنه فلاح مجاهد أيضاً بقوله : « **كان الشعب ينتظر بلهفة أكثر من لهفة الجائع الذي يترقب نضج الثمار حتى يسد بها رمقه** » . إن الاستعمار يمثل لنا سلسلة من المصائب التي حملها معه المعمرون والإدارة الفرنسية ، ولم يكن لنا حول أمام هذه الإدارة سوى الرشوة نعطيها للموظفين كلما اضطررنا إليها . إني فقير الحال ، ولست أملك إلا قطعة صغيرة من الأرض أحرثها وأعيش من زرعها . وكلما أقبل الشتاء ذهبت إلى الغابة لأقطع شيئاً من الحطب ، وأصنع منه كمية من

الفحم ، وإذا عثر عليّ حارس الغابة ،فإنه يفتك مني الفحم والبغل ، وحينئذ أجد نفسي مضطراً إلى شراء بغلتي ودفع غرامة مالية تتراوح بين الخمسين والمائة ألف فرنك ، هكذا كنا نعيش . أما المعمر ، فإنه لا يشبع من ضم أراض جديدة الى ممتلكاته وهو لا ينفك يحتال على الفلاحين البؤساء مثلي ليأخذ أراضيهم . وبما أنني أجهل القراءة والكتابة ، باللغتين العربية والفرنسية ، فإنه تمكن من تغليطي ببعض الأوراق المزيفة ، وهكذا سلبت مني أرضي . وبحثت عن أرض أستأجرها ـ أكتريها ـ ولكن الأرض باهظة الثمن ولم تبق لي إلا وسيلة واحدة أرتزق منها وهي العمل على الطرقات وتكسير الحجارة . وليس ذلك بالعمل السهل ، إذ أن الشرط الأول لتحصل على هذا العمل هو دفع ألف فرنك إلى القائد هذا إن رضي بها . وحتى ذلك العمل لم يدم طويلاً ، فاضطررت عندئذ إلى طلب العمل عند المعمر الذي افتك مني أرضي . والمعمر لا يدفع الأجور إلّا حسب مشيئته . وإذا اشتكينا ، فإنه يهددنا بالفصل عن العمل ، أو يرمي بنا في السجن ، وبذلك نضطر للخضوع لشروطه حتى لا تبقى عائلاتنا طعمة للجوع . وفي النهاية ، لا يبقي لنا الاستعمار ، وأجهزته من إداريين وَمعمرين ، إلّا زوجاتنا وأولادنا . وهذا ما كان يضطر الجزائريين إلى بيع أجسادهم عن طريق الانخراط في القوات الفرنسية العاملة في الهند الصينية . وهكذا فإن الاستعمار وأجهزته ومن يمثله باتوا في نظر الشعب : « أبغض مخلوقات الله على الأرض » .

إن مجاهدي الجزائر لا يعتبرون في ثورتهم المشاكل المحلية فحسب ، وإنما أصبحوا ينظرون إلى وطنهم بجميع ما يشتمل عليه من ثروات معدنية ، وأرض خصبة وغابات رائعة ، ولهذا فإنهم لا

يهدفون إلاّ لشيء واحد هو تحرير الوطن بكامله . فهم مقتنعون بأن الاستقلال هو الضمان الوحيد لتمكين الشعب من السيطرة على توجيه مصيره . وكثيراً ما سمعت الجزائريين يؤكدون أن اليوم الذي يقبلون فيه إصلاحات (لاكوست) سيكون نهاية الحياة في الجزائر ، إذ أن الشعب الجزائري يريد حكومة منبثقة عن الشعب تكون مسؤولة أمامه . وإذا ما أراد المعمرون البقاء في الجزائر ، والعيش فيها ، فما عليهم إلاّ أن يخضعوا لسلطة جزائرية . وأكد لي أحد المسؤولين موقف الثورة بقوله :

«إننا نحارب من أجل التحرير الوطني ، وإن جهادنا لا يقوم على التعصب العرقي - العربي - ضد الأوروبيين ، أو التعصب الإسلامي ضد المسيحيين» .

وقد أكدت مشاهداتي ومحادثاتي صحة هذا التصريح . وما على (السيد سوستيل) إلا أن يزور الثوار إذا ما أراد أن يتحقق من وجود شبح (التعصب العربي) . وإذا كان هناك تعصب فإن الفرنسيين هم السبب في تكوينه ، إذ أن المجاهدين لم يكونوا أبداً لينشغلوا بظاهرة التعصب لولا العدوان الفرنسي . وليس أدل على عدم تعصب الجزائريين من معاملتهم للأسرى الفرنسيين معاملة طيبة ، وكذلك فرار الجنود من الجيش الفرنسي ، وهم يعلمون يقيناً أن أفراداً أوروبيين ، وحتى يهوداً ، يخوضون الحرب داخل إطار جبهة التحرير من أجل تحقيق هدف واحد . وإذا ما كان يجهل ذلك ، فإنه سيجد من يخبره به ، وكثيراً ما سمعتهم يقولون لبعضهم : « تذكر يا أخي ، أن هناك أجانب يكافحون إلى جانبنا » . وإذا تناقش المجاهدون في مسألة الإصلاح الزراعي ، فإنهم يتفقون على أن ذلك مبدأ يجب على الحكومة الجزائرية أن تطبقه في

المستقبل على كبار الملاكين سواء كانوا أوروبيين أو مسلمين .

لقد لاحظت أن كثيراً من جنود جيش التحرير متأثرون شديد التأثر بالدين الإسلامي . ولهذا فإنك تجدهم متصفين بأخلاق أوصى بها القرآن الكريم ، سواء في معاملاتهم للجار أو في معاملتهم للأسير والعدو . فهم يدركون أعمق الإدراك مشاعر التضحية والأخوة والكرامة الإنسانية ، واحترام الآخرين والعدالة . . .

* * *

وأخيراً فهذه رسالة ، في جملة ما ضمته (وثائق الثورة) تظهر الروح الحقيقية لمجاهدي الثورة :

الجمهورية الجزائرية .

الولاية (١) ـ المنطقة (١) الناحية (٤) القسمة (٢)

إخواني الأعزاء رجال لجنة الشعب رقم (٢) أحييكم وشعبكم وأرضكم وسماءكم ، شاكراً جميلكم على الرسالة التي وجهتموها إلي ، مخبرين إياي على حياتكم في تاريخ اليوم ، معلنين لي رغبتكم للقيام بزيارتكم ، وإني أبتهل الله الكريم أن يمنحني فرصة التقابل معكم ، سواء في هذه الدنيا التي نجاهد فيها ، أو في الآخرة التي سنحيا مرة أخرى فيها .

أيها السادة ! إن الاستعمار إذا خرج من مقركم الحالي ، بكل قواه ، فهو ما زال في وطنكم ، وفي بلدان تجاوركم . وعليه يمكنني أن أقول لكم جميعاً ، اليوم يجب عليكم أن تحتفظوا بأنفسكم من جهته أكثر ولا تغتروا بأنه بعيد عنكم ، هو والخونة

الذين يبغضونكم وما زالوا في تتبع آثاركم. فعليكم بهزيمتهم دائماً ، لتبقوا وشعبكم دائماً منتصرين . فإلى الأمام ، ولشعبكم مني ومن كل المواطنين هنا أحر التحية وأزكى السلام .

(الإمضاء : أخوكم في الجهاد عبد القادر)

في ٢٠/٦/١٩٦١ م .

٣ ـ الإدارة في مجتمع الثورة

لقد عملت الإدارة الفرنسية الاستعمارية طوال ليل الاستعمار على تدمير الإنسـان الجزائري من أجل إحكام السيطرة على الثرى الجزائري والوطن الجزائري ، وأحكمت سيطرتها على الأرض الجزائرية من أجل تدمير الإنسـان الجزائري والتحكم بأموره ومصيره ، واسترقاقه من غير إعلان عن تطوير نظام الرق . ومن خلال عملية التدمير المتعمد والتعسفي للإنسان الجزائري والأرض الجزائرية ، زالت أو كادت تزول شخصية الجزائر المادية والمعنوية . وهكذا فعندما انطلقت شرارة الثورة كان لا بد للقيادة التاريخية من ممارسة عمل مزدوج : تحرير الأرض من جهة ، وتحرير الإنسان من جهة ثانية ، ولم تكن هذه العملية بالعملية السهلة ، إذ كانت أعباء قيادة الجهاد في تلك الظروف العسيرة كافية لإرهاق أقوى القيادات وأصلبها . غير أن الضرورات فرضت وجودها واضطر القادة التاريخيون للقيام بالعمل المزدوج في وقت واحد : بناء المجتمع الجزائري وتنظيم الإدارة الجـزائريـة . وكان هذا العمل المتكامل هو الذي أعطى الثورة الجزائرية طابعها المدني ـ العسكري ، إذا جاز التعبير ، أو مجتمع السلم والحرب ، بتعبير آخر . ويفسر ذلك الطابع الذي لا زالت الجزائر تحمل أثره

ذلك التلاحم في العمل العسكري والعمل الاجتماعي .

لقد كان على قيادة جيش التحرير بناء العلاقات الاجتماعية من (الصفر) أو من (العدم) . وإيجاد الحلول الناجعة والفعالة للمشكلات التي كانت تتركها ، أو تخلقها ، طبيعة الصراع والتي لم تكن تميز بين المجاهد الجزائري والمجتمع الجزائري . وقد استطاعت القيادة التاريخية للثورة وضع أسس الحلول في مؤتمراتها المتتالية ، بهدف توحيد نظم الإدارة للمجتمع الجزائري الجديد ـ مجتمع المستقبل ـ وعملت باستمرار على تطوير تلك النظم ، وقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند أحد الأوامر التنظيمية لولاية من ولايات الكفاح التي صدرت في بداية سنة (١٩٥٩) حيث تلقي الضوء على (روح التنظيم) في تلك الحقبة التاريخية .

الجمهورية الجزائرية

جبهة التحرير الوطني	جيش التحرير الوطني
الولاية السادسة	أركان الحرب
التحرير في ٥٨/١١٠	رقم ٥٨/ ٥٢٧ ط .

المجالس البلدية

إلى أعضاء المجالس البلدية .

نوجه إليكم هذه النقاط لتسيروا على ضوئها حتى تنير لكم الطريق لبلوغ ما رسمته لكم حكومتكم الجزائرية . ولتعينكم على تسيير شؤونكم الداخلية من تأسيس وتشييد . بهذا يجب علينا أن نعمل ونسير بنظام مع العزم والحزم في كل عمل حتى نصبح قادرين على تسيير أعمالنا ، والله معنا ما دمنا سائرين في سبيل العدل والأخوة . **الطاعة لله ولحكومتنا .**

تركيب المجالس البلدية : يتكون المجلس من خمسة أعضاء ينتخبون من بينهم رئيساً يسمى (شيخ البلدية) ويحتوي تنظيمه على خمسة مكاتب :

أ ـ **مكتب شؤون الأمة** : يشرف عليه (شيخ البلدية) كما يشرف على المكاتب الأربعة الأُخرى ويتولى رقابتها ، وله اتصال مباشر بلجنة الأوقاف المدنية .

ب ـ **مكتب الإصلاحات البلدية والحالة الصحية** : ويقوم بتوزيع المياه والأراضي والغابات والبناء والتعمير وتسجيل الولادات والوفيات والاصلاحات الحيوية في دائرة السكان .

ج ـ **المكتب المالي** :

ويقوم بتنفيذ مهمتين :

١ ـ جمع المدخولات من : الزكاة ، الاشتراكات ، والتبرعات والضرائب ، والإعانات الخاصة أو العامة .

٢ ـ توزيع الإعانات على : المكاتب الشعبية المستحقة لها ، وللأئمة ، وللمعلمين ، وللفقراء من أفراد الشعب ، للمسجونين ، ولعائلات المجاهدين والشهداء والأسرى ، وتقديم الإعانات للفلاحين لمؤازرتهم وتشجيعهم على الحرث والزراعة .

د ـ **المكتب التجاري** : ويتولى الحالة الاقتصادية من صادرات وواردات ، وتأمين كل ما يطلبه منه العريف الأول السياسي من شراء .

هـ ـ **مكتب الشرطة** : يتولى حفظ الأمن ، وإقرار السلام ، ومراقبة الشعب من ظالم ومظلوم ، وكل من ارتكب ما حرم الله ، وفي ذلك الامتثال والسير تحت أوامر (شيخ البلدية) .

توضيحات :

أ ـ مكتب شؤون الأمة :

١ ـ كل المسائل الشرعية تتولاها لجنة الأوقاف .

٢ ـ له إبداء الرأي في حل المشاكل ، إذا طلبت منه اللجنة المذكورة .

٣ ـ يتولى رقابة كل التسجيلات للمكاتب الأربعة الأخرى .

ب ـ مكتب الإصلاحات البلدية والحالة الصحية :

١ ـ يتولى تسجيل الولادات والوفيات ، فور حدوثها ، وبألا تتجاوز مهلة تأخير التسجيل مدة أسبوع .

٢ ـ عليه أن يدرس كل الأراضي الصالحة للتعمير والبناء ويقوم بتقديم تقرير يوضح فيه كل ما يراه صالحاً للشعب .

ج ـ المكتب المالي ، وواجبه :

١ ـ الاتصال بكافة أفراد الشعب ، وجمع الاشتراكات وغيرها .

٢ ـ تسجيل كل ما حصل عليه من المال .

٣ ـ دفع المال كله إلى العريف الأول السياسي شهرياً .

٤ ـ تسجيل كل من فرضت عليه الإعانة وامتنع عن دفعها .

٥ ـ تسجيل اسم كل شخص لم يتمكن من إعلامه بالطلب .

٦ ـ فرض الضرائب وتحصيلها من أصحابها .

٧ ـ تقديم إيصالات رسمية لكل من يقدم مبلغاً من المال ـ من أفراد الشعب ـ وكذلك استلام إيصال رسمي من العريف الأول السياسي عندما يتم تسليمه المال .

د ـ المكتب التجاري :

١ ـ لا يعترف بأي طلب كان ، إلّا من العريف الأول السياسي .

٢ ـ لا بد أن يكون كل شراء مصحوباً بالحجة ـ فاتورة الشراء ـ .

٣ ـ إذا احتاج المال ، فليطلبه من العريف الأول ـ الإتصال والإخبار .

هـ ـ مكتب الشرطة :

١ ـ يجب عليه إطاعة وتنفيذ كل ما يأمره به (شيخ البلدة) .

٢ ـ القيام بالسهر الدائم لحماية الشعب والدفاع عن كيانه وشرفه .

٣ ـ التحقيق في كل مشاجرة ـ نزاع ـ وبحثها ، ورفع تقرير عنها إلى شيخ البلدة .

٤ ـ يمنع من فرض الضرائب ، ويكتفي بإبلاغ شيخ البلدة عن كل حادث وقع وهو يتولى تنفيذ واجب **تحصيل الضرائب** .

تعليمات :

١ ـ يجب على كل فرد من الأعضاء المذكورين أن يحتل مكانه حسب معرفته ومقدرته ، لأن الشعب يحاسب كل واحد منا على عمله ومسؤوليته .

٢ ـ يشترط في أعضاء هذا المجلس التحلي بالأخلاق الإسلامية ، والتشبع بالروح الوطنية ، وأن يكون الإخلاص رائدهم ، مع الحرص على إحراز ثقة الشعب ، وتقوية الروابط فيما بينهم ، متجاوزين الحزازات القديمة ، والأغراض الشخصية

التي من طبيعتها زرع روح الانشقاق بين أفراد الشعب وطبقاته .

٣ ـ تكون الأحكام مستمدة من الشريعة الإسلامية ، أو العرف السائد ـ الموجود .

٤ ـ إذا عجز المجلس عن حل مشكلة أو تنفيذها :

ـ إن كانت من الناحية العسكرية فيقدمها إلى العريف الأول السياسي .

ـ وإذا كانت شرعية فيقدمها إلى لجنة الأوقاف والشؤون الدينية والثقافية .

٥ ـ يمنع على المجالس البلدية إصدار حكم الإعدام ، أو التأديب ، على أي مدني كان ، وعلى هذه المجالس تقديم ـ المرتكب ـ إلى العريف الأول السياسي مصحوباً بالحجج والبراهين الدالة على إجرامه ، وهو يتولى الحكم في ذلك .

٦ ـ كل نزاع أو خصام أدى الى قتل أحد الخصمين ، فيحجر قبل كل شيء على ما تم النزاع عليه ، كما يحجر على القاتل ، ويقدم إلى الجيش .

٧ ـ يمنع تقاضي أي أجر عن تسجيل العقود والزواج والطلاق والتركة .

٨ ـ يدفع الشاري الجزائري ثلث المال المشترى به عند شراء الأملاك إذا ما تجاوز مبلغ الشراء الخمسمائة ألف فرنك ، هذا إذا كان البيع والشراء بين الجزائريين . كما يرخص للجزائريين بشراء أملاك (المعمرين) .

٩ ـ يجب على المكتب الشعبي أن يهتم بالمحافظة على عائلات الشهداء وأولادهم وأملاكهم ، وكذلك الأسرى والمعتقلين من عسكريين ومدنيين ، وتعيين الكفيل للقاصرين وأملاكهم .

١٠ - يجب على كل مجلس عقد اجتماعين في كل شهر لدراسة شؤونهم العامة وفحص تقاريرهم الشهرية ويقدم كل مكتب أعماله التي قام بها والتي هو مأمور بتنفيذها. كما يدرسون الأعمال المقبلة وتسييرها وكذلك توزيعها على أقسامها . وبعد الاجتماع ، يعقد كل مكتب اجتماعاً لأعضائه ليقدم لهم الأعمال التي كلف بتنفيذها .

١١ - يجب على (شيخ البلدة) مراقبة عمل المكاتب الخمسة .

١٢ - تسجيل (القوم)[١] ولمن ينتمون ، مع ملاحظة عن أسباب انخراطهم .

١٣ - رفع التقارير الشهرية إلى الجيش في اليوم المعين لاستلام البريد من الجيش وتسليمه إليه . وكذلك الأمر بالنسبة للبريد الأسبوعي بين المجلس والقسمة في يومه المعين من قبل المساعد .

١٤ - على كل من لم يصله البريد في موعده المعين رفع تقرير إلى مسؤول الناحية أو المنطقة .

١٥ - التعليم إلزامي للبنين والبنات .

١٦ - يمنع كل مدني من غير أعضاء هذه المكاتب التدخل في شؤونها أو معارضتها في أعمالها ، وإذا صدر عنها ما يخالف القانون ، فعليه رفع شكواه إلى العريف الأول السياسي .

١٧ - يمنع كافة أعضاء المكاتب الشعبية الاطلاع أو التدخل

---

(١) القوم : تنظيم عسكري من الجزائريين ، أقامته السلطات الاستعمارية الفرنسية لمحاربة الثورة ، وما لبث هذا التنظيم أن انحل بسبب انضمام أفراده تباعاً لقوة الثورة . (المؤلف) .

في شؤون بعضهم البعض ، وكل فرع مسؤول عن عمله وأسراره .

١٨ ـ يمنع كل فرد من أفراد الشعب ، أو المجالس البلدية ، التدخل أو الاتصال أو رفع الشكوى ، عن غير طريق مسؤوله ـ أي قسمته وناحيته ـ .

١٩ ـ يمنع منعاً باتاً تأسيس المنظمات أو الأحزاب السياسية أو الانخراط فيها ، ويحال إلى المجلس العسكري من يلاحظ عليه مخالفة ذلك .

٢٠ ـ يحال فوراً إلى الجيش ، وعن طريق الدرك ، كل مجاهد أو مدني يعثر عليه بدون رخصة ـ تصريح ـ .

محكمة المدنيين : إن للمدنيين أحكاماً ينفذها الجيش في مجالسه العسكرية ، ويحاكمون بالعقوبات التالية :

١ ـ التأديب . ٢ ـ الغرامة . ٣ ـ الإبعاد . ٤ ـ الإعدام .

الفصل الأول ـ الإعدام :

١ ـ كل ما يمس أمن الدولة (الحكومة) .
٢ ـ اختلاس أموال الجيش .
٣ ـ ارتكاب ما يمس بمبادىء الإسلام .

الفصل الثاني ـ التأديب :

١ ـ إفشاء السر . ٢ ـ رفض الأوامر . ٣ ـ التمرد على المكاتب الشعبية ومنها البلدية والدرك والشرطة .

الفصل الثالث ـ الغرامة :

١ ـ رفض المشاركة في أداء الواجب الوطني . ٢ ـ الاعتداء على ممتلكات الآخرين . ٣ ـ المشاجرة .

الفصل الرابع ـ الإبعاد :

١ ـ التهم بدون حجج (الافتراء) . ٢ ـ قلة الثقة وفقدانها .
٣ ـ الإساءة الى الجوار .

تأكيد : تلغى من الآن فصاعداً التسميات القديمة ، وتكون كالتالي :

١ ـ اللجان ـ يسمون (المجالس البلدية) .
٢ ـ المسبلون ـ يسمون (رجال الدرك) .
٣ ـ المنظمات الشعبية تسمى (المكاتب الشعبية) .
٤ ـ خلايا الجاسوسية تسمى (المكاتب السرية) .

تنبيه : هذا القانون مؤقت ، وتلغى جميع القرارات السابقة ، ويتم العمل بما ذكر أعلاه ، وبما يتم إبلاغكم به في المستقبل . ويعتمد تنفيذ هذا القرار على إخلاصكم وتضحيتكم لوطنكم المفدى ، وجمهوريتكم الفتية . **عاشت الجزائر بأبنائها المخلصين لها .**

الصدور في : فبراير (شباط) ١٩٥٩
الصاغ الثاني للولاية السادسة
أحمد بن عبد الرزاق

* * *

٤ ـ تنظيم الجاسوسية

اتبعت قيادة جيش التحرير الوطني كل الطرائق الممكنة لتطوير إمكانات الجيش مادياً ومعنوياً ، واستخدمت كل الوسائل المتوافرة لرفع مستوى كفاءة المجاهدين القتالية ، سواء في مجال التسلح أو في مجال التدريب التعبوي والفني ، أو في مجال الإعداد الفكري . وكان في جملة الوسائل المستخدمة تلك النشرات الدورية ، مثل (مجلة المجاهد) و(مجلة الشباب) و(جريدة المقاومة) أو عن طريق نشرات تصدرها الولايات ذاتها (مثل صدى الجبال) . وكثيراً ما كان يتم الاعتماد على إصدار نشرات خاصة لمعالجة مواقف معينة . وكانت هذه النشرات تصدر إمّا عن قيادة إحدى الولايات الستة (ولايات الكفاح) أو تصدرها القيادة العامة ، ويمكن هنا التوقف عند إحدى تلك النشرات التي تحمل عنوان (التعليمات السوداء) والتي تعالج موضوع (الجاسوسية) :

الجمهورية الجزائرية

جبهة التحرير الوطني الجزائري جيش التحرير الوطني الجزائري

الولاية السادسة أركان الحرب

الفقرة الاولى

أهمية الجاسوسية :

تعتبر (الجاسوسية) من الأركان الأساسية التي تجعل الدول والشعوب في أمن واستقرار ، وتصير في المستوى اللائق بها بين الأمم . فالجاسوسية بالنسبة للدولة هي عبارة عن نبراس ينير الطريق ، وهي عبارة أيضاً عن حارس أمين يوقف العابثين والمتآمرين عند حدودهم ، ودرع متين يقي الدولة والشعب من الانهيار ، وسد منيع يتعرض للغزاة الطامعين . والدولة الخالية من الجاسوسية هي جسد بلا روح . ولما كان لهذا الفرع من كبير الأهمية ، فقد تم استخلاص بعض نقاط الجاسوسية من تجارب الماضي وأحداث الحاضر ، بهدف تقديم بعض الفائدة التكميلية التي يمكن للمسؤولين في هذا الفرع الإفادة منها . وقد تم ترتيب هذه النقاط على النحو التالي .

الفقرة الثانية

صفات الجاسوس :

١ ـ أن يكون متشبعاً بالروح الإسلامية والمبادىء الوطنية ، وأن يكون كتوماً (صاحب سر) .

٢ ـ أن تتوافر لديه الرغبة في أداء مهمته الدقيقة مع ثقته بنفسه في نجاحها ، وأن يكون ذا عزيمة صادقة وصبر قوي ، قادراً على احتمال أقسى الشدائد ، وألاّ يشعر باليأس أو الملل قبل بلوغ أهدافه المعينة ، مهما طال أمد الوصول إليها ، وألاّ يؤخذ بالانفعالات العاطفية أو المشاعر الحساسة .

٣ ـ أن يكون الجاسوس اجتماعياً ، بمعنى أن تتوافر له القدرة على الاتصال بكل طبقات الشعب ، بما في ذلك الأجانب ، وبحيث يستطيع العيش مع الطبقات المذكورة ، مهما كانت بيئتها ، أكان ذلك في المدن أو البوادي .

٤ ـ يشترط في الجاسوس ألّا يكون ذا ميل سياسي ، ولا يمنعه ذلك من الانخراط في أية منظمة سياسية بهدف الحصول على المعلومات ، مع التظاهر بالمظهر المناسب للوسط الذي يؤدي فيه مهمته حتى لا يلفت إليه الأنظار بأي شكل من الأشكال .

٥ ـ أن يكون الجاسوس متزناً ـ بعيداً عن النزق والطيش ـ لا يندفع لأي عارض من العوارض ، وهذا ما يفرض عليه أن يكون مستمعاً أكثر منه متحدثاً ، لا سيما في الأوساط التي لا تتوافر له معرفة كافية بها ، وعليه ألّا يظهر حزنه وقت الهزيمة أو إظهار فرحه وقت النصر .

٦ ـ يشترط في الجاسوس ألّا يكون صاحب إعجاب بنفسه ، بعيداً عن الغرور والتبجح ـ الافتخار والفخفخة ـ لأن صفات كهذه تتنافى وأعماله ، وأن يبتعد عن الثرثارين : كثيري الكلام ، وألا يستخدمهم في أعماله وأغراضه لأن ضررهم أكثر من نفعهم ، وألّا يكون للجاسوس أصدقاء ملازمين له ، لأنه يصبح بذلك أكثر قدرة على الاحتفاظ بأسراره .

٧ ـ أن يهجر جميع الملاذ الدنيوية ، ويبتعد عن الأطماع والأهواء الشخصية التي عادة ما تجعل الانسان أداة في قبضة الآخرين .

٨ ـ أن تتوافر له القدرة على التكهن ـ التوقع ـ غير أن عليه ألّا يبني تصرفاته واستنتاجاته على هذا التكهن ، بل عليه أن يتوخّى الحقيقة

من خلال تحرياته وأبحاثه .

٩ ـ أن تتوافر له الكفاءة والمهارة والفطنة والحيلة والدهاء ، حتى يتمكن من الاطلاع على أسرار الآخرين من غير أن يطلع عليها أحداً .

١٠ ـ أن يستخدم الجاسوس المناورات الخداعية ـ التضليلية ـ لأن ذلك هو سبيله لكشف أسرار العدو وتحطيم مخططاته التي يهدف من خلالها معرفة أهدافنا وكشف جواسيسنا ومخططاتنا في هذا المجال .

الفقرة الثالثة

تقسيم الجاسوسية : (وهي تنقسم الى قسمين) :

أولها : ما يسمى (بالمهاجمة) ومعناه جلب أسرار العدو ، والاطلاع على برامجه السياسية والعسكرية والإعلامية وغيرها ، والتعرف على أهدافه حتى يسهل القضاء عليها . وللوصول إلى هذا الهدف يجب علينا بذل قصارى جهودنا ، وأن نضحي من أجله بالرجال والأموال . وعلى هذا ، فلنبدأ بشرح الأعمال الأولية التي يقوم بها العدو . . فبمجرد تعيين ضابط للعمل في مكاتب الشؤون الأهلية (الساس) في جهة ما ، من مدينة أو قرية أو عرش ، يقوم بما يلي :

١ ـ يبحث عن تاريخ المدينة أو القرية أو العرش قبل سنة (١٨٣٠) أي قبل دخول فرنسا الى الجزائر ، وموقفها من فرنسا بتأييد دخولها أو مقاومته .

٢ ـ يبحث عن موقفها من الثورات التي وقعت بعد سنة (١٨٣٠) .

٣ ـ يبحث عن (الأعراش) الموالية للعرش المؤيد للثورات ، والأعراش المضادة له ، كما يبحث عن عدد أبنائه الموجودين مع قوات جيش التحرير ، وأولئك الموجودين مع القوات الفرنسية ، ويقارن النسبة بينهما . كما يطلع على حالة أعيان العرش (وجهائهم وقادتهم) ، ودراسة حالاتهم ، ومحاولة التقرب منهم بكل وسيلة .

٤ ـ يبحث عن المستوى المعاشي ـ الحياتي ـ والثقافي ، وعن النظم الاجتماعية ، والعادات والتقاليد ويضبط جميع ممتلكات الأهالي .

٥ ـ يبحث عن موقف ذلك العرش ، أو تلك المدينة ، من ثورة سنة ١٩٥٤ .

٦ ـ يطلب من المسؤول عن مكتب الشؤون الأهلية (الساس) الذي سبقه إلى ذلك العرش ، أن يبدي له رأيه ، وأن يشرح له شرحاً مستفيضاً أحوال العرش وعاداته وأخلاقه ، ويشرع بعد ذلك في تنفيذ خطته التي تتلخص بما يلي :

إعادة تنظيم شبكة الجاسوسية في الأوساط الشعبية ، وفي سائر المجتمعات ، مثل منظمات الطلاب والمعلمين والأئمة والتجار والموظفين والعمال والرياضيين والأطباء والصيادلة والرعاة والحاطبين وصانعي القطران والنساء ، بما في ذلك الممرضات وعمال إدارات البريد والإسعاف (في الهلال الأحمر والصليب الأحمر) . وحتى في صفوف العسكريين ـ المجاهدين في جيش التحرير الوطني ـ وهو يلبس للظروف لبوسها ، متخذاً لذلك أساليب خاصة تناسب كل صنف من الأصناف الآتية :

العرش : يجعل العدو جاسوساً أو جاسوسين أو ثلاثة في كل لقب أو عائلة ، بحسب كثرة عدد أفرادها أو قلتهم ، ويختار الذين يثق

فيهم ويعتمد عليهم ، وهذا النوع من جواسيس العدو مكلف بمراقبة الطائفة والعائلة التي تحمل ذلك اللقب ، والموقف العام من الثورة لكل فرد منها . **كما أنه مكلف بتمزيق روابط العائلة ، والرفقة ، وإضعاف الشعور الوطني ، والترويج لشائعات فشل الثورة وعدم فائدتها وجدواها ، والإعلان عن هزائم ـ غير صحيحة ـ لحقت بالثورة . وإظهار فوائد بقاء فرنسا في الجزائر ، وبث هذه الروح ـ الانهزامية ـ في قالب إرشادات وتوجيهات ، مستفيداً في ذلك من كل الفرص والمناسبات** . ويمكن لجاسوس (جيش التحرير الوطني) الاطلاع على هذا النوع من الجواسيس بفضل دراسته للشعب ، وفهم جميع أفراده ، وميولهم ، وأفكارهم ومن كان منهم حتى الأمس منعزلاً ومنكمشاً في زاوية ، ثم بات اليوم وهو يختلط بجميع طبقات المواطنين .

التجار : يحاول العدو أن يجعل في كل أربعة تجار جاسوساً ، مهمته مراقبة الباعة من المواطنين والتعرف على من كان بالأمس يشتري قنطاراً من السميد ـ على سبيل المثال ـ في كل شهر وقد أصبح فيما بعد يشتري بالعشرة قناطير مع ملاحظة عدم الزيادة في أفراد عائلته . ويمكن لجواسيس (جبهة التحرير الوطني) معرفة جواسيس العدو ، وكشفهم ، بالاعتماد على مهارتهم في فنهم ودهائهم وذكائهم وفطنتهم وملاحظتهم الدقيقة ممن كان بالأمس ـ من التجار ـ يخاف العدو ويهاب سطوته ، ولا يبيع للمواطنين إلا المحدد لهم ، وهو يتظاهر اليوم بأنه مستعد لسد كل الحاجات التي يطلبونها من البضائع . وعلى من كان منهم لا يجلب من السلع إلّا كمية محدودة ، وقد أفسح له المجال بعد ذلك ليستورد كل ما يريده .

الأطباء والصيادلة : يسمح لهم إما ببيع أدوية زائدة ، أو ببيع

أدوية سامة لجيش التحرير .

الممرضون والممرضات والهلال الأحمر والصليب الأحمر : تنحصر مهمتهم في الحصول على المعلومات من النساء والأطفال الصغار ، لما تسمح به مهمتهم من التمكن من الاتصال بجميع طبقات الشعب ، وإظهار مزايا فرنسا للمواطنين من عطف وشفقة ومعالجة وتوزيع الأدوية مجاناً .

المعلمون : تنحصر مهمتهم بإضعاف إرادة التلاميذ والطلاب الجزائريين العرب ، وتشريبهم كره اللغة العربية ، ومحبة اللغة الفرنسية ، وإظهار ضعف العرب وقصورهم ، والتشهير بالثورة على اعتبارها عملاً همجياً ، مع إعطاء الشرعية للحرب التدميرية التي تقوم بها فرنسا ضد جزائر الثورة . كما يدخل في مهمتهم ، كشف الطلاب العاملين مع الثورة وجبهة التحرير الوطني . **والسعي باستمرار لإفساد أخلاق الطلاب ، بحملهم على تعاطي الخمر وسواه . وإبعادهم عن أداء فرائضهم الدينية** .

الأئمة : وتنحصر مهمتهم في التنديد - أثناء خطبهم - بالمجاهدين ، وأن ما يقومون به لا يعد جهاداً ، ولا عملاً شرعياً ، مدّعين بأن القوة لا تواجه إلاّ بقوة مثلها . والعمل على تفسير بعض آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة تفسيراً معكوساً ، والتشهير بأعمال الثورة ، وبكل ما من شأنه هدم أسس الدين والعقيدة الإسلامية والوحدة .

النساء : يقمن ببث روح الفرقة وسوء التفاهم بين النساء ورجالهن ، وحملهن على أن يشتكين ببعولتهن إلى مكتب الشؤون الأهلية (الساس) . وأن يقمن بمراقبة زيادة الأطفال والنساء في العائلات ، ومن أين طرأت هذه الزيادة ؟ وكذلك الاتصال بنساء

المجاهدين وبث فيهن ما من شأنه التأثير عليهن ، وإضعاف عقيدتهن الـوطنيـة ، والإيحـاء لهن بـأن أزواجهن قـد تـزوج البعض منهم بالتونسيات ، والآخرون بالمغربيات ، وهجرن زوجاتهم الجزائريات .

الرعاة والحاطبون وصانعوا القطران : وتنحصر مهمة الجواسيس من هذا النوع بما يلي :

١ ـ البحث عن آثار جيش التحرير الوطني ، ومتابعة تحركاته .

٢ ـ تحديد الطرق التي يتبعها جيش التحرير كثيراً في تنقلاته .

٣ ـ مراقبة الذين يتصلون بالجيش من مسبلين (أنصار) وغيرهم من المواطنين ، واكتشاف الطرق إلى مخابيء التموين ، ومراكزها ، إذا استطاعوا إلى ذلـك سبيلاً . ويستـطيع جـواسيس (جيش التحريـر الوطني) كشف هذا النوع من الجواسيس بمراقبة وجودهم مرات كثيرة في أماكن ممنوعة .

البطالون (العـاطلون عن العمل) : يعمـل العدو عـلى إقامـة المشاريع لفتح المجال أمام العاطلين عن العمل مثل خدمة الـطرقات وشقها ، وإقامة بعض الأبنية ، ثم ينتخب بعد ذلك منهم الجواسيس الذين تنحصر مهمتهم بما يلي ـ :

١ ـ حملهم على الاعتراف بفضل فرنسا وجميلها لأنها سهلت لهم طرق العيش ، ومحاولة إقناعهم بالنفور من الثورة التي لا تجديهم نفعاً . ويمكن لجـواسيس (جيش التحريـر الوطني) كشف هـذا النـوع من الجواسيس عن طريق مراقبة الذين يكثرون منهم التردد على الإدارات المكلفة بالعمل (الشغل) ومكاتب النقابة ، بعد التعرف على مهماتهم من هذا الغدو والـرواح وغيره . ويجب عـلى جواسيسنـا (جواسيس جيش التحرير) الاعتماد على العقل والدهاء في كل الأمـور لكشف جواسيس العدو .

المنظمات العاملة مع الجيش :

بعدما يتعرف العدو على عضو من المنظمات الجزائرية الوطنية ، أو أحد المسبلين (الأنصار) أو أحد أعضاء المجالس وغيرهم ، يحاول الاتصال بهذا العضو العامل من غير إشعاره بأنه على معرفة بنشاطاته وأعماله ، ويجرب إقناعه بفائدة بقاء فرنسا في الجزائر ، وأهمية التعاون معها ، مع مقارنة بعض الأحوال الحاضرة مع ما كانت عليه هذه الأحوال في الماضي ، وإبراز نسبة التحسن ـ المزوّرة ـ . ويتعهد له بإعطائه الوظيفة اللائقة به والتي يرغب فيها . وبعد كل هذا الإغراء ، يعرض عليه العمل معه ، فإذا رضي بذلك انتهت مشكلته وأصبح جاسوساً للعدو . أما إذا رفض ، فإنه يترك وشأنه لمدة أيام قليلة ، ثم تصدر السلطة ـ الاستعمارية ـ أمرها بالقاء القبض عليه ، بتهمة العمل مع جيش التحرير الوطني ، ويسلط عليه أنواعاً من العذاب الوحشي لإرغامه على الاعتراف بمهمته ودوره ، ويتظاهر له ـ أثناء التحقيق ـ بالشفقة عليه أحياناً ، مع الاستمرار في تعذيبه إن لم يعترف . وأما إذا أقر بعمله ، فإن مكتب الشؤ ون الأهلية (الساس) يقتاده فوراً إلى مكتبه ، مذكراً إياه بكل ما صرح به أثناء استجوابه ، وبالأعمال التي قام بها . ويهدده بأن كل ذلك يستوجب قتله . ويقول له : على فرض أني تسامحت معك ، فلا بد لي من إلقاء القبض على رفاقك في العمل ، الأمر الذي يؤدي إلى إعدامك من قبل جيش التحرير الذي سيتهمك بكشف أمرهم والإقرار عنهم . غير أني أرى من النصيحة لك ، ومن الواجب الإنساني ، أن أطلق سراحك ، حتى ترجع الى عملك كما كنت ، ولا ألقي القبض على رفاقك في العمل ، وسأشيع بأنك لم تعترف بأي شيء . كل ذلك لتعمل معنا بعد خروجك من السجن . وعليك أن تخبرنا عن تحركات الجيش ، وعن أعمالك وأعمال أصحابك .

وتنحصر مهمة هذا النوع من الجواسيس بالتالي :

١ ـ محاولة التعرف على المنظمات الثورية الوطنية العاملة في الأعراش والبلدان المجاورة .

٢ ـ بث روح التفرقة بين الطبقات والمنظمات العاملة مع الثورة .

٣ ـ جمع أسرار الشعب بصورة عامة .

٤ ـ دفع تلك المنظمات لاستخدام وسائل العنف والشدة وسوء المعاملة بطريقة لا يحتملها الشعب ولا يستسيغ قبولها من منظمات يعتبرها مثل أمه الحنون . وهذه الطرق ، وأشباهها ، تنفر الشعب من الجيش والعاملين في صفوفه ، وتسقط من قيمة المنظمات الثورية في أنظار الشعب ، وتدفع المواطنين للاقتراب من شيوخ البلديات (الأميار) الاستعماريين ، وعملاء العدو ، والاقتراب منهم قدر ابتعادهم عن جيش التحرير الوطني والتنظيمات التابعة له .

٥ ـ إعطاء معلومات عن الأموال التي يساهم بها المواطنون في الثورة ، من حيث الزيادة أو النقصان ، وموقف التموين والذخائر لدى قوات الثورة . والعمل **على إضعاف** ميزانية الجيش ، إما عن طريق الحد من الدخل المالي ، وإما عن طريق شراء القليل من المواد التموينية بمبالغ باهظة ، مع إبلاغ السلطات الفرنسية عن طرائق تموين جيش التحرير الوطني وأساليب نقلها . وكذلك السعي للحد من النشاط السياسي للثورة عن طريق إبلاغ ونشر أوامر مزورة من جيش التحرير الى المواطنين . ويمكن لشبكة جاسوسية جيش التحرير الوطني كشف جواسيس العدو من هذا النوع وذلك بفضل معرفة حقيقة أعمال المنظمات الوطنية ونشاطاتها ومواقفها ، وملاحظة النقاط التي سبق ذكرها . وكذلك من خلال مراقبة أعضاء المنظمات بعد خروجهم من السجن ، ومقارنة أعمالهم ومواقفهم مع ما كانت عليه قبل دخولهم السجن .

جواسيس العدو داخل جيش التحرير الوطني :

يعمل العدو على تشكيل هذا النوع من الجواسيس وتكوينهم ، إما عن طريق بعض المواطنين المزودين بالتعليمات الضرورية والتوجيهات اللازمة ، وإما عن طريق الذين يطلبون التطوع في صفوف الجيش الفرنسي وإما عن طريق عساكره (جنوده) الذين يدفعون للانضمام إلى جيش التحرير الوطني بعد تزويدهم بالتعليمات والتوجيهات الضرورية ، وكذلك عن طريق الأسرى من مجاهدي جيش التحرير الذين يقعون في قبضة العدو ، أو حتى المدنيين الجزائريين الذين يعدهم العدو في السجون والمعتقلات ثم يسهل لهم عملية الفرار . وإما عن طريق النساء . ومهمة هؤلاء الجواسيس ، كما يحددها لهم العدو ، هي على النحو التالي :

١ ـ جمع المعلومات السرية عن حالة الجيش (قوات جيش التحرير) مثل : عدد أفراد الجيش ، والمساحة الجغرافية التي يحتلها ـ يشغلها ـ وأنواع أسلحته ومستوى تدريبه العسكري ، ومسؤوليه وأسماءهم وعلاقتهم بعضهم ببعض ، وعلاقتهم بجنودهم ، والنظام الإداري ، والحالة المعنوية للجيش في حياته الجبلية ، وموقفه من النظام الثوري . وموقف قواته من غارات القوات الفرنسية وما يظهره هؤلاء من ضروب الشجاعة ، أو الحذر ، والنسبة المائوية لتكوين القوات وتشكيلها مثل : يوجد من العرش الفلاني عدد كذا ، ومن العرش الفلاني عدد كذا ، معيشتهم ، أكلهم ، أعمالهم اليومية ، عدالة الجيش ، تزوير الأعمال إن وجدت . تمركز أفراد الجيش ، سيرتهم ، حراستهم الخ . .

٢ ـ القيام بالدعاية لفرنسا في وسط جيش التحرير ، وحمل أفراد منه على إفشاء أسراره ، كل ذلك مقابل ما يقوم به مكتب الشؤون

الأهلية (الساس) من تموين لعائلات جواسيس فرنسا ، وضمان حياتهم ووعدهم بالمستقبل الزاهر قصد التأثير على معنوياتهم ، وإضعاف إرادتهم ، وحملهم في النهاية على الاستسلام لمخططاته .

٣ ـ بث روح الفرقة في وسط المجاهدين ، وإشاعة الروح الانهزامية ـ الملل من الجهاد واليأس من النصر ـ مع تقديم الوعود المغرية : مثل ضمان مصير الأسرى ، والعفو عن المجاهدين إلخ . .

٤ ـ التظاهر بالحماسة للعمل حتى يحتل الجاسوس مركزاً مسؤولاً في التنظيمات الثورية ، الأمر الذي يساعده على فتح باب التجنيد أمام عملاء العدو وجواسيسه .

٥ ـ النساء : يقمن بالأعمال ذاتها ، علاوة على محاولة الزواج من المسؤولين . واتهام المجاهدين بارتكاب الفحشاء معهن . ويستطيع جواسيس جبهة التحرير الوطني كشف هؤلاء الجواسيس من خلال متابعة أعمالهم وأعمالهن ، حيث يمكن تقويم الأعمال بذكاء ، وإعطاء الأمور حقها من المراقبة ، وإجراء دراسة دقيقة لأحوال الأفراد : سيرتهم وتحركهم وأعمالهم وحال العاملين مع العدو . وبذلك يمكن فرز الخائن عن المخلص ، كمن كان بالأمس ذو ميل للعدو ، أو كان منعزلاً عن الثورة ، ثم جاء يطلب فجأة التجنيد للتطوع في الجيش من غير أن يطلب منه ذلك ، وكذلك من كان في صفوف قوات العدو ومعروفاً بعدائه للثورة ، وممارسته أعمالاً بشعة ضد جمهور المواطنين ، ثم جاء يطلب هو الآخر الانضمام لقوات جيش التحرير ، من غير القيام بأعمال إيجابية تؤكد صدقه وإخلاصه . أو الأسرى الفارون من العدو ، أو الذين يتم إطلاق سراحهم . الأمر الذي يقتضي دراسة حياتهم في

الجيش قبل وقوعهم في الأسر ، وكيفية أسرهم ، ومعاملة العدو لهم طوال المدة التي قضوها في السجن ، وطريقة فرارهم ، إذا كانوا قد هربوا من السجن ، أو خروجهم منه ، إذا كان العدو هو الذي أطلق سراحهم .

الاتصال بين العدو وجواسيسه

أ ـ الاتصال المباشر ، ويتحقق كما يلي :

١ ـ مع المواطنين الذين لهم اتصال دائم بالعدو .

٢ ـ مع الجنود الموجودين في صفوف العدو .

٣ ـ مع المساجين الذين أطلق العدو سراحهم ، والذين يترددون على الإدارات الاستعمارية مرة في كل أسبوع أو كل ثلاثة أيام ، حيث يتظاهر العدو بأنه لا زال يشك في أمر هؤلاء ، مستخدماً هذه الطريقة للتمويه ، وللحصول على المعلومات ، وهذا النوع قليل .

٤ ـ يقوم العدو بحملات تفتيشية ، يجمع فيها المواطنين ، ويتصل بجواسيسه أثناء البحث ، ويتلقى منهم المعلومات ، بينما هو يتابع في الوقت ذاته استجواب المواطنين بأسئلة لا تمت أحياناً إلى الثورة بأية صلة . ويظهر هذا النوع لجواسيس الثورة ، الذين عادة ما يكونون بين المواطنين ، من خلال إطالة البحث والتحقيق مع بعض أفراد الشعب ، في حين يكون موضوع الاستجواب واحداً للجميع .

٥ ـ ويوجد هذا النوع أيضاً بين الذين يتصلون دائماً بالإدارات الفرنسية ، معتمدين في ذرائعهم على قضاء مهام خاصة بهم . ويستطيع جواسيس الشبكات الوطنية فهمهم ومتابعة مراقبتهم ،

والتمييز بين ما هو صحيح من هذه الاتصالات ، وبين ما هو كاذب مخادع .

ب ـ الاتصال غير المباشر :

١ ـ ينحصر هذا النوع في أفراد يقدموز معلوماتهم إلى مكتب الشؤون الأهلية (الساس) عن طريق البريد . ويعرف هؤلاء بكثرة أسفارهم إلى بعض المدن والقرى التي يوجد فيها مركز للبريد ، ويتم تحرك هؤلاء حسب خطة محددة ، وفي وقت معين (مرة في كل أسبوع ، أو في كل خمسة عشر يوماً ، أو حتى كل ثلاثة أشهر) . ويمكن لشبكة جاسوسية الثورة كشف هؤلاء عن طريق الجواسيس الثوريين الذين يعملون في مكاتب البريد ، حيث يقومون بقراءة الرسائل الموجهة إلى الإدارات الفرنسية ، وتحديد مصدر هذه الرسائل . وخط العنوان ، ومكان تحرير الرسالة ، والضبط اللازم لهذه الأشكال من الاتصالات المتبادلة .

٢ ـ يكتب بعض الجواسيس من هذا النوع تقاريرهم ، ويضعونها في أمكنة معينة متفق عليها مع العدو . وتنقل هذه التقارير عن طريق الدوريات المتجولة العادية التي ينظمها العدو . وتقوم هذه الدوريات بدورها أيضاً بوضع تقارير عن ملاحظاتها . ويظهر هذا النوع للأذكياء من جواسيس الثورة ، عن طريق مراقبة دوريات العدو المتجولة، وترددها على مكان ـ أو أمكنة ـ معينة في أوقات محددة . وعندئذ تنظم جاسوسية الثورة رقابة دقيقة ومستمرة للأمكنة المذكورة حتى يتم إلقاء القبض على الخائن .

٣ ـ قد يقوم العدو بتجهيز بعض جواسيس هذا النوع بالأجهزة اللاسلكية ، ويستطيع جواسيس الثورة كشف هؤلاء بفضل ما يتوافر لهم من الفطنة والحكمة .

٤ ـ ويوجد هذا النوع من الجواسيس بين المواطنين الذين لهم اتصال ببعض الإدارات الفرنسية البعيدة ، في بلاد أخرى ، بحيث لا يكونون معروفين هناك أو يكونون موضعاً للشبهات . ولهذا يجب مراقبة كل المسافرين ، وخاصة الذين تكون أسفارهم إلى بلد معين ، والتعرف على الأسباب الداعية إلى أسفارهم . ومن هنا يستطيع جواسيس الثورة استخلاص النتائج الحقيقية ، عن طريق مراقبة جميع الحركات وفهمها ، على أن تتخذ بعد ذلك الاجراءات التالية :

١ ـ حمل هؤلاء الجواسيس على العمل مع الثورة من غير إشعارهم بمعرفة حقيقتهم على أنهم جواسيس للعدو ،

٢ . إذا لم تتحقق النتيجة المذكورة ، واستمروا في ممارسة عملهم العدواني ، فيلزم قتلهم .

مناورات العدو

أ ـ بالنسبة لجواسيس الثورة العاملين في إدارات البريد وغيرها ، يسلك معهم إحدى طريقتين :

يحاول العدو معرفتهم واكتشافهم في الإدارات المذكورة ، فإذا ما تمكن من ذلك ، فإنه سيحاول استخدامهم لتزويد الثورة بأخبار ومعلومات مضادة وفي صالحه ، وذلك إما بالاتفاق معهم بعد تسخيرهم لغرضه وإما من غير علمهم وبحيث لا يشعرون بها ، وهي ترمي إلى الغرض ذاته .

ب ـ يحاول العدو تلطيخ سمعة منظماتنا الثورية ـ الشعبية ـ العاملة بكل حماستها الوطنية الحقيقية ،

والنيـل من غيرتهـا وإخلاصهـا بكل الـوسـائـل الممكنـة، مثل :

١ ـ بعد معرفتها وكشف أمرها ، يعمل على امتداح أفرادها وإزجاء الشكر لهم أمام المواطنين ، بهدف دفع الثورة إلى الشك بأمرهم والعمل على تدميرهم والقضاء عليهم .

٢ ـ عندما يكتشف العدو أمر عملاء مخلصين للثورة ، ومن النوع الذي لا يرقى لإخلاصهم شك أو ريبة ، فإنه يكثر من التردد عليهم وزيارتهم في محلاتهم أو مضاربهم (خيامهم) ويتقرب إليهم في كل المناسبات ، وهدفه من ذلك إثارة الشك حولهم ، والريبة في أمر إخلاصهم ، وحرمانهم من ثقة الثورة ودفعها للقضاء عليهم .

٣ ـ توجيه بعض الرسائل إلى أولئك المخلصين ، ووضع إعلانات شكر لهم على الطرق العامة لإقدامهم على إفشاء أسرار أو غير ذلك من افتراءات ومزاعم يلصقها بهم .

٤ ـ قيام العدو بتكليف عملائه غير المعروفين من قبل جاسوسية الثورة ـ إن وجدوا ـ للتوجه إلى جيش التحرير الوطني ، وإبلاغه بأن (فلاناً) يعمل مع العدو . والزعم بأن العميل الفرنسي لم يتقدم بمعلوماته (الكاذبة طبعاً) إلى جيش التحرير ، إلّا بدافع الغيرة الوطنية . مع التظاهر بعدم معرفته للشخص الذي نقل إلبه المعلومات بتعاون المتهم مع الفرنسيين ـ أعداء البلاد ـ .

٥ ـ يوصي العدو عملاءه : بأنه إذا ما أُلقي عليهم القبض من قبل أجهزة الثورة ، أن يتهموا بعض المخلصين العاملين مع الثورة .

٦ - يلقي العدو القبض على بعض الأفراد المتعاونين مع الثورة ، والمتفانين في خدمتها والإخلاص لها ، ثم يطلق سراحهم بعد فترة وجيزة ، وهدفه من ذلك هو دفع الثورة للقضاء عليهم قبل التروي في أمرهم .

٧ - يستخدم العدو هذه المناورات ذاتها مع الفرع العسكري لجيش التحرير - ما عدا طريقة الاتصال لأنها لا تحدث .

ج - يستعمل العدو ، بالنسبة للعاملين معه ، وبهدف تضليل جاسوسية الثورة ، المناورات الآتية :

* يبعث لهم رسائل يهددهم فيها بالموت ، بزعم أنهم يعملون مع (جيش التحرير الوطني) .

* يزج بهم في سجونه ، ثم يطلق سراحهم بعد فترة وجيزة من الزمن .

* يعلن أمام المواطنين أن فلاناً (جاسوسه) هو عنصر عامل مع جيش التحرير ، وأنه في سبيله لإلقاء القبض عليه لا محالة .

* يصادر أموالهم ، ويهدم ديارهم ، ويعوض عليهم خسائرهم خفية، ويلزم بعض عملائه بالتظاهر بعدم الذهاب إلى السوق، وتأمين متطلباته الضرورية إلاّ خفية وبصورة سرية .

* وتستخدم فرنسا هذه المناورات ضد أعراش بكاملها ، وحتى ضد قرى أو مدن ، حيث تعمل على تمييز عرش على آخر ، فتفتح لأحد الأعراش المجال للحصول على كل الموارد ، في حين يفرض الحصار الاقتصادي على أخرى . ويقيم المحتشدات في ناحية من النراحي ، ويطلق في الوقت ذاته الحرية في ناحية أخرى . ويسجن عدداً من أفراد أحد الأعراش ، في حين يتجنب اعتقال ولو فرد واحد من أخرى . وإزاء هذا ، يجب على جواسيسنا

أن يكونوا متبصرين ومدركين لأهداف هذه المناورات ، وما تلحقه من الضرر بالأفراد والجماعات ، ومعرفة نوايا كل مواطن ومقدار حبه لنظام الثورة وتعلقه به وإخلاصه له . والتمييز بين هؤلاء الصادقين في إخلاصهم وأولئك الجواسيس المخادعين ، لأن الأساليب الاستعمارية شديدة التعقيد ، ولا يمكن فضحها وكشفها إلّا بانتباه ومهارة وفطنة . وعلى (جواسيس الثورة) استخدام كل الوسائل الممكنة لحمل عملاء العدو وجواسيسه على العمل لمصلحة الثورة ، من غير أن يشعروهم بذلك . مع العمل على حمل ضباط الشؤون الأهلية (الساس) وضباط (اللفيف الأجنبي) للعمل على خدمة الثورة ، وذلك بدراسة ميولهم وحالاتهم السياسية ومشاعرهم ، ومقدار حبهم للمال ، لأن معظمهم يحب المادة حباً جماً ، ويموت من أجلها ، إذ هم أشبه ما يكونون بالبهائم ، لا هم لهم في هذه الحياة إلّا إشباع رغباتهم وإرضاء ميولهم وملذاتهم ، وهذا مما يساعد على شراء هؤلاء الضعفاء بالمال للحصول على ما يتوافر لهم من معلومات .

والجد كل الجد في تأدية الرسالة على أكمل وجه والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد .

ملاحظة : يجب على مسؤولي هذا الفرع أن يعتمدوا بالدرجة الأولى على دهائهم وذكائهم وفطنتهم واعتنائهم ليستطيعوا تأدية مهمتهم كاملة ، وإفادة بلادهم وثورتهم .

: على حامل هذه التعليمات أن يخبر حالاً السلطات المسؤولة إذا ضاعت منه .

صدر في ١٥/ ٦/ ١٩٦١ .

٥ ـ التطور الثوري في الشمال القسنطيني

وصلت الثورة الجزائرية بعد انقضاء السنوات الأولى من الصراع المرير ، إلى مرحلة متقدمة من التنظيم الشامل ، وإذا كانت (الولاية الثانية ـ أو ولاية الشمال القسنطيني) هي إحدى ولايات الكفاح التي كان لها شرف السبق في التطور الثوري ، فإنها بالمقابل قد تعرضت لقسط أكبر من ويلات الحرب . ولكن ، وبالرغم من ذلك فقد أمكن للقيادة الثورية فيها ، كما في غيرها ، تجاوز كل المحن والمصائب ، وإجراء التطور الضروري للتكيف مع الظروف المتجددة باستمرار . وقد يكون من المناسب ملاحظة ملامح ذلك التطور عبر ولايات الكفاح كلها ، من خلال ما حدث (في الولاية الثانية)[1] من تطور .

إن تصور مدى ما بلغه جيش التحرير الوطني من التقدم ، وما أمكن له إحرازه من انتصارات ، هو أمر يتطلب بالضرورة العودة قليلاً لاستقراء ملامح الأساليب التعبوية (التكتيكية) والتي طبقها الجيش الفرنسي في سنتي ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ ، ضمن إطار محاولة

---

(١) من حديث مع قائد الولاية الثانية (علي الكافي ـ كولونيل) ونشرته مجلة (المجاهد) الجزائرية ١٦/٤/١٩٥٩ .

القضاء على الثورة . ومن المعروف أن المرحلة الأولى من هذا التكتيك كانت تتمثل في نظام التربيعات (الكادرياج) . وهو نظام يتلخص بإقامة مراكز عسكرية متعددة في مختلف الجهات التي انتشرت فيها الثورة ، والمقصود من تلك المراكز هو محاصرة تحركات جيش التحرير الوطني ، وخنق الجهاز التنظيمي الذي تقوم عليه حياة جيش التحرير في المشاتي والقرى ومحاولة القضاء على جميع العناصر المدنية والعسكرية العاملة في الثورة .

وبعد فشل هذه المحاولة ، لجأ العدو إلى أسلوب جديد هو أسلوب (التجمعات) الذي يتلخص بإجلاء السكان المدنيين عن المناطق التي تتمركز فيها الثورة ، وجميعهم في مراكز قرب الجيش الفرنسي ، ومهدوا لهذه العمليات بمسألتين ، أولاهما : إعلان المناطق المحرمة التي تشمل ثلثي مساحة (الشمال القسنطيني) . وثانيتهما : تنظيم عمليات مسح كبرى (راتيساج) لنقل المدنيين وإجلائهم بالقوة عن مساكنهم ، وخلال هذه العمليات كان الجيش الفرنسي يقتل أو يحمل معه جميع الحيوانات التي يصادفها في طريقه ، كما يدمر جميع مصادر الحياة . وقد اضطر الجيش الفرنسي إلى اتخاذ هذه الطريقة بعد أن سيطرت الثورة على مناطق شاسعة ، أصبح هو عاجزاً عن الدخول إليها ، وكان مقصوده من ذلك هو عزل جيش التحرير عن السكان ، وحرمانه من الاتصال بهم ، ومن العون والمؤونة التي يجدها عندهم ، ريثما يقضي الطيران شيئاً فشيئاً على جيش التحرير. وقد توهم العدو أنه بهذه الطريقة قد قسم الأرض تقسيماً طبيعياً بفصله الجبال عن السهول . وتوهم أنه وضع بذلك حاجزاً حصيناً بين جيش التحرير والسكان . لكن الذي غاب عن الجيش الفرنسي هو أن جيش التحرير الوطني

موجود في كل مكان . وأنه رغم إقامة (المناطق المحرمة) فإنه لم ينقطع أبداً عن سيل المعلومات التي كان يحتاج إليها ، كما أنه لم يفتأ ، رغم التجمعات من البقاء على اتصال دائم بالسكان ، بل لقد تبين للجيش الفرنسي أن هذه المناطق المحرمة أصبحت خطراً عليه أكثر مما هي لفائدته ، فقد قطعت عليه الاتصال بالمناطق المحرمة ، وانقطع عن التزود بالمعلومات عن تحركات جيش التحرير ، إذ لم يعد في اسطاعته إرسال جواسيسه وأعوانه إلى مناطق الثورة (المحررة) للتزود منها بالمعلومات عن تنقلات قوات جيش التحرير ونشاطها . لقد أراد العدو فصل الثورة عن قاعدتها الشعبية ، فكانت النتيجة أن أصيب هو بالعزلة التامة ، ولم يعد يعرف شيئاً عن نشاط جيش التحرير ، وأصبح من جراء ذلك في خوف دائم من الهجمات المفاجئة والكمائن المباغتة .

أدرك قادة الجيش الفرنسي أنهم أصيبوا بخيبة أمل مريرة في الميدان العسكري . وكان شعورهم بالفشل قاسياً ، فبحثوا لأنفسهم عن غطاء يسترون به هذه الهزيمة . فكان انقلاب (١٣ ـ أيار ـ مايو ـ ١٩٥٨) والذي أزال (الجمهورية الرابعة) وجاء بجمهورية ديغول (الخامسة) . وحاولوا تصوير هذا الانقلاب على شكل انتصار سياسي كبير . وقد كنا نتوقع حدوث مثل هذا الانقلاب ، ليس فقط لأنه يمثل التطور الطبيعي للأحداث منذ (٦ شباط ـ فبراير ـ ١٩٥٨) حيث وقع العدوان على الحدود التونسية (حادثة ساقية سيدي يوسف) . ولكن لأننا كنا بالإضافة إلى ذلك على علم بالاتصال القائم بين غلاة المستعمرين وبين قادة الجيش الفرنسي . وقد كان هدف غلاة الاستعمار هو تأكيد استعدادهم لقلب كل حكومة تفكر بالتفاوض مع جبهة التحرير الوطني . وقد بدأت هذه

الاتصالات قبل (١٣ أيـار ـ مايو) بزمن طويل ، حيث عرضوا على (الجنرال ماسو) أن يعمل معهم على إعداد الجهاز الذي ينفذ الانقلاب ، فرفض ، فهددوه بالقتل ، فقبل وخضع لهم ، وعرضوا المسألة ذاتها على (الجنرال سالان) فرفض بدوره ولذلك حاولوا اغتياله في (حادث البازوكا الشهير ـ في أول سنة ١٩٥٧) . ورغم أن (سالان) لم يشترك معهم ، فإن الاطارات العسكرية الكبيرة قد رضيت بهذا العمل لأن شعورها بمرارة الفشل العسكري جعلها تبحث ، كما قلنا ، عن تعويض لذلك ، وتوجه مسؤولية خيبتها إلى الجهاز السياسي الفرنسي المتمثل في حكومات (الجمهورية الرابعة) والاستعداد لقلب هذا النظام (الفاسد) وهذا هو سر الالتحام الذي وقع في الماضي بين قادة الجيش الفرنسي وغلاة الاستعمار . كما أننا علمنا قبل (أيـار مايو ـ ١٩٥٨) أن (جاك سوستيل) له ضلع كبير في تهيئة الانقلاب ، وأنه ينوي الحضور إلى الجزائر لقيادته وتنفيذه .

لقد شعر الجنود الفرنسيون بعد (١٣ أيـار ـ مايو) بفرحة كبيرة ، وراحوا يرقصون ويغنون ويشربون . لقد توهموا أنها نهاية الحرب ، وأنه لم يبق أمامهم إلاّ العودة إلى بلادهم وعائلاتهم وذلك طبيعي . لقد أفهمهم قادتهم أن حكومات الجمهورية الرابعة هي المسؤولة عن هزائمهم ، وعن استمرار الثورة ، فكان من البدهي أن يتصوروا قرب نهاية الحرب بعد أن أسقطت الجمهورية الرابعة ، وتم إبعاد رجالها السياسيين . ولكن لم يروع الجنود الفرنسيين بمثل ما روعوا عندما تسلموا تعليمات جديدة تحذرهم من التمادي بالمرح ، وتحثهم على مواجهة جيش التحرير الوطني مرة أخرى ، فكانت خيبة أمل الجنود الفرنسيين عاملاً جديداً زاد من تدهور

روحهم المعنوية . ولئن زعم جهاز الدولة الفرنسية أن الفرنسيين كانوا كلهم كلمة واحدة يوم (١٣ أيـار ـ مايو) . فقد كنا نحن نعلم خلاف ذلك ، إذ كنا على علم بوجود هيئات فرنسية تناهض (١٣ ـ أيار ـ مايو) وتقاوم رجاله .

جاءت بعد ذلك (معركة الاستفتاء) لتشكل معركة سياسية كبيرة ، استعد لها الفرنسيون عسكرياً وسياسياً . وكان هدف الفرنسيين هو جمع الجزائريين بالقوة وإظهارهم في مظهر من رضي بالاستفتاء . لكن جيش التحرير الوطني كان قد استعد بدوره لمواجهة العدو في هذه المعركة ، فعبأنا المناضلين في حملة مضادة للحملة الفرنسية ، ووزعنا تعليمات خاصة إلى جميع المسؤولين لينسقوا أعمالهم . وأصدرنا نشرات خاصة لإيضاح حقيقة (حركة ـ ١٣ أيـار ـ مايو) و (بالجنرال ديغول) و (مجازر ٨ أيـار ـ مايو ـ ١٩٤٥) التي حدثت في عهد الجنرال (ديغول) وأصدرنا نشرات خاصة بالنساء ، مع تكليف النساء المثقفات باللغة العربية ، للاتصال بالنساء ، وأن يشرحن لهن دور المرأة في مقاومة حملة الاستفتاء الفرنسية . وكنا في الميدان العسكري على استعداد أيضاً لمواجهة العدو ، ووعدنا جميع المدنيين بأنهم لن ينفذوا أوامر العدو . وحدثت منافسة بين سكان البوادي وسكان المدن ، أيهم يكون أكثر التحاماً مع الثورة ، وتنفيذاً لأوامرها ، وأفسدنا جميع خطط الجيش الفرنسي الذي كان مقسماً إلى فرق لحراسة الصناديق ، وأخرى للدعاية بالأبواق ، وأخرى لرد الهجمات المتوقعة . وقدر العدو اتساع الحملة التي نظمناها ، فحاول مكتب الدعاية الفرنسي (المكتب الخامس) أن يرد علينا في نشرات خاصة ، لكنها في الواقع لم تزد على أن أسهمت في نشر حججنا

وأقوالنا ، إذ كانت تنقل فقرات من نشراتنا لترد عليها رداً متهافتاً ضعيفاً . ورغم أن العدو قد أجرى الاستفتاء في البوادي قبل الموعد الذي كان حدده ، فإنه لم يجد أمامه إلاّ الفراغ ، إذ أن سكان البوادي كانوا قد لجأوا إلى قواعدنا واحتموا فيها . أما سكان المدن فقد أظهروا شجاعة كبيرة ، رغم ألوان الإرهاب الفرنسي التي سلطت عليهم . وأحرزنا فعلاً انتصارات سياسية وعسكرية هامة ، وخرجنا بنتيجة ملموسة ، ازداد الشعب الجزائري فيها نضجاً ووعياً .

لم نكن نتوقع بداهة أن تتحدث الصحافة الفرنسية عن هذه الانتصارات ، فقد تعودت تلك الصحافة أن تعمل في خدمة الاستعمار ـ إلاّ أقلها ـ وأن تصمت عن ذكر الحقيقة حتى ولو كانت صارخة ، فمن ذلك سكوتها عن الخيبة التي مني بها (ديغول) في زيارته الأولى للجزائر ، وخصوصاً عند مروره بمدينة (قسنطينة) ولم تتعرض ولو بكلمة واحدة للمظاهرة التي نظمها الجزائريون بعد خطابه ، وفي نفس المكان ، وهي مظاهرة ضمت الشبان والشابات وهم يهتفون (تحيا الجزائر) و (تحيا جبهة التحرير الوطني) و يسقط سوستيل) . كما صمتت الصحافة الاستعمارية عن الهجوم الذي قام به بعض الفدائيين على الحرس الخاص المرافق للجنرال (ديغول) في قلب مدينة (قسنطينة) أثناء مروره بين الحديقتين الواقعتين بين (ساحة لابريش) و (باب الوادي) . وسكتت أيضاً عن الهجوم الذي قتل فيه ضابط وجرح اثنين من بين الضباط الذين كانوا ذاهبين من (الميلية) لمقابلة (ديغول) .

لقد تصدى الفرنسيون (المستوطنون) للثورة منذ البداية ، غير أن عداء هؤلاء للثورة ليس على درجة واحدة ، ومن الممكن تقسيم

الأوروبيين ـ عامة ـ إلى قسمين : (**الطبقة المتوسطة**) وهذه لها موقفها السلبي سواء من حكومتنا أو الحكومة الفرنسية ، وكل ما تأمله هذه الطبقة هو أن تحدث معجزة تحل (المشكلة الجزائرية) وقد أبدوا مخاوفهم من مستقبل الاستقلال أن يقضي على مصالحهم لأنهم يريدون البقاء في الجزائر . لكننا أفهمناهم بواسطة نشرات خاصة ، وطمأناهم على مستقبلهم في الجزائر المستقلة . وهناك (**غلاة الاستعمار**) ورؤ وس الفتنة الذين يريدون أن يمسكوا بأيديهم زمام الموقف السياسي في الجزائر وفي فرنسا ، وهؤلاء تبينوا الآن أن آمالهم في (ديغول) قد تبخرت ، وأغضبتهم بعض تدابير (الجنرال ديغول) مثل الفصل بين السلطات المدنية والعسكرية ، وإبعاد بعض القادة العسكريين المشتغلين بالسياسة ، كما أغضبهم صمته عن (قضية الدمج) . وقد فهموا من هذه التدابير أن (ديغول) يريد القضاء عليهم ، ولذلك فهم يفكرون في انقلاب جديد ، وفي مجابهة كل حكومة تريد التفاوض .

أما (**المعمرون**) فيعرف كل واحد ، أننا عندما هاجمنا مزارعهم في أول الأمر ، جعلوا في كل مزرعة مركزاً عسكرياً لحمايتهم وحراسة ممتلكاتهم ، لكن على أثر انقلاب (١٣ أيار ـ مايو) انسحب الجيش الفرنسي من بعض المزارع ، ونتج عن ذلك أن فقد المعمرون ثقتهم في جيشهم ، ولذلك احتجوا على الجيش والحكومة . وسبب انسحاب الجيش الفرنسي أن جيش التحرير قد تمركز تمركزاً قوياً وأصبح يشكل خطراً كبيراً على المراكز العسكرية الفرنسية ذاتها ، ومما يجدر تسجيله هو أن اتصال المدنيين الفرنسيين بجيش التحرير قد كثر وتعدد في المدة الأخيرة ، وأصبحوا يدفعون اشتراكاتهم طوعاً كبقية الجزائريين ، من غير أن يفرض عليهم أحد

ذلك . وعلى كل حال ، فليس المدنيون الفرنسيون هم وحدهم المنقسمون على أنفسهم ، بل إن العسكريين بدورهم منقسمون وممزقون أيضاً . فهناك العسكريون الخلص ـ إذا جاز التعبير ـ وهناك العسكريون الذين يمارسون العمل السياسي . وقد وزعنا منشورات عديدة على الجنود الفرنسيين شرحنا فيها طبيعة المعركة التي نقوم بها . وقد أثرت فيهم تلك المنشورات حتى أن بعض الضباط أظهروا سخطهم وثاروا على قادتهم فزج بهم في السجون . كما وجهنا عنايتنا واهتمامنا الى (**فرق القوم والحركة**) ووزعنا عليهم منشورات عديدة ، حتى صاروا ينضمون إلينا أكثر من ذي قبل ، ومن المعروف أن نظام (رجال الحركة) يعتمد على المتطوعين الذين يعملون في دواويرهم ، ويتم تسليحهم لمحاربة جيش التحرير ، أي أن القيادة الفرنسية لا تنقلهم الى أماكن أخرى عندما تريد ، كما تفعل مع بقية الجنود ، كما أنها تدفع لهم رواتب وأجوراً مرتفعة جداً . لكن لما كثرت عمليات انضمامهم إلينا أجبرتهم القيادة الفرنسية على التنقل من دواويرهم ، وصارت تدفع لهم رواتب وأجوراً مساوية لبقية الجنود . وأفاد جهاز إعلامنا ـ دعايتنا ـ من هذه المعاملة الجديدة (**لرجال القوم والحركة**) فوجه الدعوة إليهم من أجل الالتحاق بقواتنا . ولقيت هذه الدعوة الاستجابة المناسبة .

جاءت بعد ذلك مناسبة تشكيل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، فكان أول عيد يحتفل به الشعب منذ قيام الثورة ، ونظمت الاجتماعات ، وأقيمت الأفراح ، ورفعت الرايات الجزائرية على رؤوس الجبال ، وبقيت هناك أكثر من عشرين يوماً . وأطلقنا المدافع إعلاناً لهذا الحدث التاريخي . وقد كان تشكيل الحكومة الجزائرية عاملاً هاماً في تكتل قوى الشعب الجزائري ،

والتفافها حول (جبهة التحرير الوطني) و (جيش التحرير الوطني) . ومنذ إعلان تشكيل الحكومة ونحن نتلقى البيانات المتعددةمن مجالس الشعب ، وهي تؤكد لنا ولاء الشعب لحكومته ، ومبايعته لها ، مع المطالبة بالسلاح وبالطائرات ، ومن طرائف ما سجلناه أن إحدى الرسائل التي وصلتنا كانت تقول : « أعطونا طائرات ، حتى لو لم يكن لدينا وقود لها ، لتسييرها ، فإننا مستعدون لدفعها بأيدينا » .

وخلاصة القول ، فإن الثورة الجزائرية ما انفكت تسير في اتجاه تصاعدي ، ففي الميدان العسكري تمكنا من تدعيم أجهزتنا العسكرية رغم المحاولات الفرنسية العديدة لإضعافنا ، مثل إقامة الخطين المكهربين على الحدود التونسية والمغربية ، كما حاول الفرنسيون أن يجرونا إلى المعارك الكبرى دائماً ، لكننا لم نقع في الفخ ، ورحنا نواصل حربنا كما نريد نحن ، بأسلوب يجمع بين حرب العصابات والحرب التقليدية ، وبذلك تمكنا من المحافظة على قواتنا في نفس الوقت الذي كبدنا فيه العدو خسائر فادحة . واستطعنا في الفترة الأخيرة إقامة معامل خاصة لصنع الألغام ووسائل التدمير في كامل الولاية . وقد أصبحت هذه المصانع تشكل خطراً جديداً على العدو ، إذ أمكن بفضلها تدمير خط مواصلات (قسنطينة ـ الجزائر) وخط (قسنطينة ـ سكيكدة ـ عنابة) . كما أمكن لنا بفضل وسائل التدمير هذه ، تدمير محاور الاتصال وعزل قسنطينة عن العالم عزلاً كاملاً طوال ثلاثة أيام وحرمانها من الكهرباء والماء والمخابرات الهاتفية ، وهذا ميدان لم يكن العدو متضرراً به كثيراً قبل هذه المدة .

وبفضل تعاظم هذه القدرة العسكرية ، تمكنا من تدعيم بقية

أجهزتنا الثورية ، فقد أنشأنا اللجان القضائية المكلفة بالفصل في الخلافات (النزاعات) بين المدنيين على أسس الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي ، وأغلب أعضاء هذه اللجان من ذوي الثقافة العربية . وهذه اللجان القضائية تتصل بنشرات خاصة تحدد لها البنود القانونية . كما أنشأنا اللجان الخيرية التي تتولى جمع الأموال وتوزيعها على الفقراء ، وتنظيم اللجان الاحتياطية التي تشرف على توجيه المجتمع وإرشاده ، ولدينا مستشفيات متعددة ، وقد أنشأنا أيضاً مدارس لتعليم اللغة العربية في كامل أنحاء الولاية . مع تنظيم مدارس لإعداد الأطر (الكادرات) السياسية والعسكرية . ومدرسة لتخريج الممرضين يشرف عليها دكتور في الطب .

* * *

لقد أدرك الفرنسيون مبلغ إحكام نظامنا ، وعرفوا مدى دقته ، وعلى هذا الأساس فقد حاولوا التسلل إلينا عن طريق آخر ، هو طريق التفرقة بين جيش التحرير وحكومته ، فزعموا أن الحكومة الجزائرية لا تسيطر على الداخل ، وانطلاقاً من هذا الزعم اتصل بنا قائد فرقة من (قسنطينة) . وعرض علينا أن نطلق سراح أسيرين فرنسيين كانا بين أيدينا ، وأن نعين له أسيرين من أسرانا يطلق سراحهما مقابل ذلك ، وأدركنا هدف هذه المحاولة ، وهو التمهيد لايجاد اتصالات محلية ، وتعزيز فكرتهم القائلة بأن الحكومة الجزائرية لا تسيطر على الموقف داخل الجزائر . ولذلك كان جوابنا ما يلي :

« إن لنا مسؤولين سياسيين ، ولكم حكومتكم ، فما عليكم الا أن تتصلوا بحكومتكم ، وتطلبوا منها الاتصال بحكومتنا لتسوية هذه المسألة » .

* * *

لقد استشهد في الفترة الأخيرة القائدان (عميروش ـ مارس ـ آذار ـ **١٩٥٩**) و (حواس) . وعلى اثر ذلك ، انطلقت أبواق الدعاية الاستعمارية لتقول بأن غيابهما عن ساحة الصراع سيضعف الثورة في ولاية (قسنطينة) . أو (الولاية الثانية) . والحقيقة المعروفة هي أن ثورتنا ثورة شعبية ، إنها لم تقم أبداً على الأشخاص بل هي ثورة يشارك الشعب كله في صنعها ، ولذلك فهي لن تتوقف أبداً باستشهاد أحد أبطالها وقادتها . ولقد استشهد أبطال كثيرون ، كان غيابهم عنا خسارة حقيقية لنا ، لكن ذلك لم يؤثر أبداً على سير الجهاد ، بل إن استشهاد كل واحد من القادة كان يزيد الآخرين حماسة للقيام بالواجب والجد في العمل طلباً لإحدى الحسنيين الشهادة أو النصر . ولا أدل على الطابع الشعبي الذي تتسم به ثورتنا ، أننا لم نصطدم حتى الآن بأية مشكلة في تجنيد المجاهدين لدعم قوة جيش التحرير الوطني . مع العلم أننا لا نقبل إلاّ المتطوعين ، وبشرط أن يكونوا قد عملوا في صفوف الثورة من قبل ، وبشرط آخر هو أن يكون من المحال عليهم الاستمرار في البقاء ضمن المدن .

وإذن ، فدع الفرنسيين في ثرثرتهم وهذيهم يغرقون ، إذ أن الواقع الجبار بالجزائر أبلغ من كل دعاية ، وهذا الواقع نحن الذين نمسك بزمامه ، ونحن الذين نوجهه . أجل ، إن جيش التحرير الوطني هو الذي يسيطر على الموقف بحق ، وهو الذي يختار ميادين المعارك كما يريد هو لا كما يريد الجيش الفرنسي . وتلك هي الحقيقة في بساطتها التي لا تحتاج الى أي تنميق أو تزويق .



تقضي الرجولة أن نمد جسومنا   جسراً فقل لرفاقنا أن يعبروا

٦ ـ صدق الثورة ينتصر على كذب الاستعمار

وتستمر الثورة في طريقها ، متمسكة بفضائلها ، معززة لقيمها ، متباهية بأخلاقها ، متحلية بإيمانها ، لا يردعها عن هدفها رادع ، ولا يحرفها عن طريقها عارض ، مهما كبر وتعاظم ، ويظن الاستعماريون أنهم بافتراءاتهم ومزاعمهم الكاذبة قادرون على حجب وهج الحقيقة الساطعة والمعتمدة على صدق الثوار وعزيمة الأحرار . فلا تلبث المزاعم الكاذبة أن تتهاوى ، ولا تلبث الأقنعة المخادعة أن تتساقط . وتصاب الأجهزة الاستعمارية بالإحباط المرة بعد المرة ، وتتلاحق عليها الهزائم الكرة بعد الكرة ، وتتلقى الضربات الموجعة الضربة في إثر الضربة ، وكان من أقسى تلك الهزائم ، وأوجع تلك الضربات هي التي جاءت عن طريق (المحايدين) من المراقبين ، أو حتى عن طريق الفرنسيين ذاتهم ممن عاشوا حياة الثورة بصفائها ونقائها وطهرها ، سواء بسبب وقوعهم في أسر الثوار ، أو بسبب معايشتهم لظروف الثورة . وقد تحدث الأسرى الفرنسيون بصراحة أذهلت الاستعماريين ، فكان في ذلك نصراً حاسماً من انتصارات جيش التحرير على الأكاذيب الفرنسية[١] .

لقد أطلقت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في بداية سنة

---

(١) المرجع ، مجلة (المجاهد) الجزائرية ، العدد ٤٣ تاريخ ١/٦/١٩٥٩ .

(١٩٥٩) سراح مجموعة مكونة من (١٦) أسيراً ، بينهم أسير سويسري و(٦) مدنيين فرنسيين والبقية من العسكريين الفرنسيين . وقد كان لهذا العمل الإنساني صداه البعيد في أوساط (الصليب الأحمر الدولي) الذي نشر بلاغاً عبر فيه ارتياحه لموقف جيش التحرير . وقد قام جيش التحرير الوطني بهذا العمل الإنساني في الوقت الذي كان فيه العسكريون الفرنسيون يمارسون أبشع أعمال القمع والعنف والتعذيب ضد المدنيين الجزائريين ، وفي ذات الوقت الذي يتعرض فيه أكثر من مليون جزائري في مراكز التجمع الى الموت البطيء والمجاعة المنظمة . وقد صرح أسيران فرنسيان ممن كانوا بالولاية الثالثة ، تصريحات عبرا فيها عن المعاملة الطيبة التي يلقاها أسرى جيش التحرير ، وكان في أقوالهما ما يلي : « **إننا نحب أن نعلن عن المعاملة الطيبة التي لقيناها من الوطنيين الجزائريين ، فلم نتعرض أبداً للشتم أو الإهانة ، ولم يستعمل ضدنا أي ضغط مادي أو معنوي ، وكنا نتناول طعامنا قبل الجميع . وفي غالب الأحيان كنا نخجل من هؤلاء الرجال الذين يعاملوننا بمنتهى الطيبة والروح الإنسانية في الوقت الذي خربت ديار أكثرهم وقتلت عائلاتهم** » .

«لقد كنا نظن أننا وقعنا بين أيدي عصابة من القتلة، ولكننا اكتشفنا جيشاً نظامياً ، ولقينا رجالاً يمتازون بالنظام والحماسة والعزيمة القوية ويجاهدون لتحقيق هدف نبيل يؤمنون به .

إن جنود جيش التحرير شبان متفائلون ، يستقبلون الحياة بالبهجة والثقة ، وهم يضجون حيوية ونشاطاً ، ويشعر الانسان معهم أن الحياة تتدفق من نفوسهم الفتية ، الشابة ، في قوتها وخصب ، وأن هذه الصفة هي الميزة الرئيسية لكل من وقفوا حياتهم في جميع

أنحاء العالم من أجل خدمة العدالة والحرية .

إن أهم ما لاحظناه كذلك هو الروح الأخوية المهيمنة على علاقات جنود جيش التحرير بعضهم ببعض . فالضباط والجنود يعيشون بطريقة واحدة ، ويتناولون طعاماً واحداً . ولا تمنع الروح الأخوية من وجود طاعة شاملة ونظام متين يستمد قوته من كونه صادر عن طواعية واختيار .

لقد كان ضباطنا يقولون لنا في الثكنات أن جنود جيش التحرير لا يجدون ما يأكلون ، ويتغذون من الأعشاب وجذور النباتات ، ولكننا وجدنا الأمر على النقيض من ذلك ؛ فالطعام متوافر بكميات كافية ، وهو جيد في نوعه ـ في معظم الأحيان ـ وقد دهشنا للمستوى الرفيع من التنظيم الذي لم يكن لنا أن نتصوره على الإطلاق . ولقد رأينا وحدات عديدة وهي مسلحة بأفضل وأحدث الأسلحة . والتقينا بممرضين أكفياء ، وبرجال فنيين يعملون في صناعة الأسلحة وإصلاحها ، وبغيرهم من العناصر التي لا يضمها إلاّ جيش منظم حديث» .

* * *

ومقابل ذلك ، فإن معنويات الجيش الفرنسي منهارة جداً ، فهو لا يحارب في سبيل مثل عليا أو هدف نبيل . ونحن نعلم أن الحرب التي يدفعوننا إليها تقوم على الظلم والاستعمار . ولو كان الجنود الفرنسيون يحاربون دفاعاً عن استقلال وطنهم ، لأظهروا نفس العناد ، وذات الشجاعة التي يبديها مجاهدوا جيش التحرير الوطني الجزائري ، ولكنهم يرفضون أن يقتلوا من أجل حفنة من الاستعماريين (الكولون) . إن الجندي الفرنسي يؤدي مهمته في

هم وقلق . وفي القلعة الزرقاء أطلق جندي رصاصة على فخذه حتى لا يشترك في العمليات . وفي كل الثكنات والمراكز يرتفع صوت واحد : « اتركونا نرجع إلى أهلنا » . وإذا كان الشباب المترف من أبناء الإستعماريين (الكولون) يريد متابعة الحرب ، فما عليه إلاّ أن يحارب بنفسه . إن من السهل على الرجال الاستعماريين أن يتصايحوا في طرقات الجزائر ، بعد الرجوع من حفلات الرقص أو السينما ، ومن السهل عليهم أن يتابعوا الحرب بدماء غيرهم . فليأتوا بأنفسهم الى المجزرة ، وليحتملوا جزءاً من غرائم الحرب .

إننا نعرف زيف البلاغات الفرنسية وكذبها ، ولهذا فإنه ما من أحد منا يصدقها . إنهم لا يعرفون كيف يكذبون ، وفي كثير من المرات كنا نعيش بأنفسنا الوقائع الصارخة التي تكذب بلاغات القيادة الفرنسية . فمنذ بضعة شهور ، وقع جنود فرنسيون في كمين بناحية (المياه الساخنة) وقتل فيه (١٢) جندياً من زملائنا . وفي الغد قرأنا في الصحف أن الجيش الفرنسي نصب كميناً في المكان ذاته وقتل عشرات من الثوار . ولم ندهش لهذا الخبر ، لأننا لو صدقنا البلاغات العسكرية الفرنسية ، وما تقتله هذه البلاغات كل يوم من جنود جيش التحرير الوطني ، لما بقي حتى الآن أي جزائري على قيد الحياة ولكانت الحرب قد انتهت منذ زمن بعيد .

أما في مجال علاقة الجنود الفرنسيين بالاستعماريين (الكولون) فيكفي القول بأن رجال الكولون يتظاهرون بالرقة واللطف مع القادة والضباط ، ولكنهم يعاملون الجنود بوقاحة سافرة ، وباستهتار يتجاوز كل الحدود . ففي الوقت الذي نسهر فيه على حراسة مزارعهم ، محتملين قسوة البرد ولهب الحر ، ومعرضين للموت المباغت في ظلمة الليل ، يعيشون هم حياة

مترفة ناعمة هنيئة . ونفسيتهم هي نفسية محدثي النعمة الذين لا يحترمون إلّا القوة المرافقة (للرتب والألقاب) . وذات مرة كنا نقضي الليل في حراسة مزرعة (الأخوة صوير) قام هؤلاء بدعوة ضباطنا لتناول القهوة داخل المزرعة . وعندما سألهم أحد زملائنا إذا كان لديهم شيء من القهوة للجنود ، أجابوه : بأن أمامهم الماء إن أرادوا شرب شيء .

وفي مجال علاقة الجنود الفرنسيين بجنود (القوم والحركة ـ من الجزائريين) فإنه بالامكان القول ، بأنه لم تكن لنا علاقة وثيقة بهؤلاء المرتزقة الذين لا نثق فيهم . وكنا نحتقر بيعهم لأنفسهم من أجل المال ، وهم يعيشون منعزلين ، ويتناولون طعامهم وحدهم ، وينامون منعزلين ، ومما زاد من مضايقاتهم وجود نسائهم معهم في المركز . الأمر الذي أدى في احدى المرات ، بالضابط المسؤول عن المركز ، الى طردهم جميعاً ما عدا ثلاثة منهم . أما فيما يتعلق بقائدهم ، المدعو (الشريف بن العيد) والذي سمى نفسه (الكولونيل ـ العقيدسي الشريف) فإننا لم نلتق به أو نجتمع إليه ، ولكننا نعرف أنه تلقى في شهر كانون الثاني ـ جانفي ـ **١٩٥٩** : أمراً من الجنرال (ديغول) بأن يحمل رتبة (ملازم ثان ـ سوليتنان) فقط . وكان هو ينتحل رتبة عقيد (كولونيل) فتألم للأمر ، واتخذت الاحتياطات توقعاً لأي احتمال يمكن حدوثه ، وألغيت إجازاتنا ، وأعلنت حالة الطوارىء حتى نشدد الحراسة عليه حتى لا يفر . ولا يحمل ضباطنا أي احترام لهذا الشخص الذي يأخذون عليه رفضه الدائم للمشاركة في المعارك . أما هو ، فإنه يتشبث بحمل رتبة عقيد ، رغم ابتسامات السخرية التي يلقاها من الضباط الفرنسيين .

***

ما إن تم إطلاق سراح الأسرى حتى أسرع مراسلوا الصحف الفرنسية بالجزائر ، لإجراء المقابلات معهم ، والاستعلام عن **طبيعة** حياتهم في الأسر ، وعن معاملة جيش التحرير لهم ، **فكتبت صحيفة** (أوران ريبو بليكان) الصادرة يوم **٢١** أيار - مايو - **١٩٥٩ ما يلي** : « كان من بين الأسرى ثلاثة جنود مكثوا في الأسر مدة خمسة عشر شهراً ونصف وهم : بيير دي غانيدو ، وريمون كابل ، وبرانجينوا ديفيزا . **وقد سردوا قصتهم فقال - دي غانيدو -** : **بعد وقوعنا في الأسر أخذنا الثوار معهم** ، **ومشينا لمدة خمسة عشر يوماً ، ثم قدمونا الى الكولونيل - العقيد عميروش - الذي أكد لنا أنه سيطلق سراحنا قريباً ، إما عن طريق الصليب الأحمر ، أو عند نهاية الحرب . وهنا قاطعه صاحبه كوبل بقوله** : **ولم يسألنا عميروش أي سؤال ، بل قال لنا أنه لا يطلب منا المعلومات لأنه يعرفها أحسن منا ، وأخبرنا على سبيل المثال عن عدد الجنود في مراكزنا ، مع أننا لم نكن نعرف نحن عددنا بالضبط** . ثم استأنف - بيير دي غانيدو - حديثه قائلاً : وفي الفترة الاولى من أسرنا حدث أن مكثنا في مكان واحد لمدة خمسة أشهر ، وفي الليل ، لا يتحدث حراسنا إلاّ عن حياة الجهاد ، أما نحن فلا نتحدث إلا عن الطعام والمأكل ، ونحلم بالمآدب الفخمة والأطعمة الفاخرة الشهية » .

وكتبت صحيفة « صدى الجزائر - ايكو دالجي » الصادرة يوم **٢١** أيار - مايو - **١٩٥٩** تحقيقاً مع الأسرى جاء فيه : «قال دي غانيدو : لقد سمعت يوماً بوضوح تام ضابطاً فرنسياً يعطي أوامر السير لفصيلته ، ولم يكن الجنود الفرنسيون يبعدون عن مخابئنا بأكثر من ثلاثين متراً ، كما كانت الطائرات العمودية - الهيليكوبتر - تحلق فوق تلك المخابىء على مسافة منخفضة ، من غير أن تتمكن من اكتشافها

أو رؤ يتها . ولم يكن المجاهدون يعتبروننا مسؤولين عن الخسائر التي تصيب المدنيين من جراء قصف الطائرات الفرنسية . وفي المساء يأتوننا بالصحف ، ويقرؤ ون لنا الأخبار ، وكان أمين سر الولاية الثالثة ـ السكرتير ـ يقرأ لنا ما تحتويه صحيفتي (لوموند) و (الاكسبريس) .

لقد جاء (ديغول) الى الجزائر ، وإذ ذاك راود بعض الجنود أمل بأن تحصل الحكومة الجزائرية على استقلال الجزائر ، عن طريق المفاوضات مع (ديغول) ولكن طبيبهم الذي كان يتناقش معهم أقنعهم بأن هذا الأمل بعيد التحقيق . لأن (ديغول) لن يقبل بالتفاوض مع (عباس فرحات) في بلد محايد . ولن يقبل (عباس) كذلك أن يذهب إلى باريس إذا لم يسبق ذلك مفاوضات تمهيدية . وحينئذ قال الجنود ـ المجاهدون ـ أنهم سيحاربون حتى النهاية من أجل الحصول على الاستقلال الذي هو مثلهم الأعلى ، ولكنهم كانوا يعبرون عن هذا الإصرار من غير حقد ولا ضغينة . وتابع ـ دي غانيد ـ قوله : لقد بلغ عدد الأسرى ـ في بعض الأوقات ـ وفي المعسكر الذي كنا فيه فقط (٢٥) أسيراً . أما (ديفيزا) صانع الأخشاب في (بوفاريك) و(هرننديز) الذي يعمل طباخاً في (بوغني) الذي أسر منذ شهر ونصف عند عودته من إجازته في طريق (شعبة العامر) فقد أكد الإثنان بأن الثوار ليس لهم أي شعور عدائي خاص نحو الأوروبيين القاطنين في الجزائر . وقال (ديفبزا) : لقد كانوا يعاملوننا معاملة حسنة ، مثل بقية زملائنا الأوروبيين القادمين من فرنسا ، وكانوا يتوجهون بالحديث إلينا على الخصوص لأننا نفهم اللهجة العربية .

لقد علم الأسرى بموت القائد (سي عميروش) بعد يومين أو

ثلاثة من وقوع الاشتباك في (بو سعادة) . وكان الحراس يتناقلون همساً بأن (سي عميروش) قد استشهد . ولكن لم يظهر عليهم أي تخوف من عواقب الحادث ، بل كانوا يرددون بأنه (مكتوب) . وفي ١١ أيـار ـ مايو ـ جاءنا القائد الذي تولى قيادة الولاية الثالثة بعد (عميروش) . وقال لنا : إني أحمل لكم خبراً سعيداً فإننا سنطلق سراحكم يوم ١٨ أيـار ـ مايو ـ جميعاً ، من مدنيين وعسكريين . فقد وصلتنا أوامر من حكومتنا بإطلاق سراحكم . ثم زارنا الطبيب في يوم ١٦ أيـار ـ مايو ـ وسلم لنا ملابس نظيفة ، وقبل ذهابنا قال لنا أمين سر الولاية الثالثة ـ سكرتيرها ـ : إننا لا نطلق سراحكم من أجل الدعاية في الخارج ، ولكننا نرجع إليكم حريتكم بدافع إنساني محض . وعند توديعنا صافحنا جنود (جيش التحرير الوطني) بـودٍّ خالص وقالوا لنا : إنهم مسرورون من أجل إطلاق سراحنا ، واستعادتنا لحريتنا .

لقد أثارت هذه المقولات عاصفة قوية في غير مصلحة فرنسا ، لا سيما وأنها أثارت مجال المقارنة بين هذه المعاملة الإنسانية السمحاء ، وبين ما يلقاه مجاهدو جيش التحرير الوطني ، ومناضلو جبهة التحرير الوطني ، على أيدي الجلادين الفرنسيين عندما يقعون في قبضتهم ، لا في الجزائر وحدها ، وإنما في فرنسا أيضاً . وكان من المفروض أن تتعلم (فرنسا الحضارة) من (جزائر الثورة) أساليب التعامل الانساني . غير أن الحضارة المجردة من إنسانيتها مضت في وحشيتها ، ويكفي التوقف عندما جاء في (نشرة جزائرية) بعد ذلك بمدة سنتين تقريباً ، حيث ورد ما يلي[١] :

---

(١) المرجع : نشرة جزائرية تحمل ما يلي : (الجمهورية الجزائرية ـ وزارة الداخلية ـ نشرة داخلية ـ نوفمبر ـ ١٩٦١ ـ الصفحة الأولى) .

« صوتت هيئة الأمم المتحدة أخيراً على توصية طلبت فيها إلى الحكومة الفرنسية احترام الأنظمة العالمية ، بمنح المعتقلين السياسيين حقوقهم ، ويلاحظ أن مظاهرات فرنسية مرت من أمام السجون الفرنسية ، فبعد النساء الفرنسيات ، طالب جمع من الشبان يقدر بعشرين ألف متظاهر ، بوضع حد للظروف المهينة التي يعيشها المعتقلون الجزائريون في سجون فرنسا . ومن الملاحظ عجز فرنسا عن تحقيق التطابق بين أقوالها وأفعالها ، فبينما تتحدث الحكومة الفرنسية (الديغولية) عن رغبتها في السلم بواسطة التفاوض مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية . تتابع ـ هذه الحكومة ـ سياستها المجردة من كل المعاني الانسانية ، فتخضع المعتقلين لأقسى أنواع القمع والقهر ، وليس ذلك فحسب ، بل إن القمع المنظم قد اتسع نطاقه حتى بات يشمل كل الجزائريين المهاجرين في فرنسا ، بحيث بات من الصعب وصف العمل الفرنسي ضد الجزائريين بغير كلمات الوحشية والفظاعة والعنصرية . وبات لا يمضي يوم من الأيام ، إلاّ ويتم فيه التقاط جثث الأخوان الجزائريين الذين عذبوا ، واستشهدوا ، وقذف بهم في نهر السين ، ولا يمر يوم إلاّ يتم فيه اكتشاف جثث جديدة ، فالشرطة الفرنسية (البوليس) تقتل ، وتبيد ، وتنهب ، وتخفي جرائمها ، ولقد التقطت ستين جثة من نهر السين ، واكتشفت أيضاً ثلاثين جثة في (غابة بولوني) . واليوم يعترف القتلة بجرائمهم .

ولقد وزع منشور ـ غير موقع ـ يحمل عنوان (جمع من رجال الشرطة ـ البوليس ـ الجمهوريين) وجاء في هذا المنشور : (من بين آلاف الجزائريين الذين اقتيدوا إلى ساحة المعارض في باب فرساي ، قتل عشرات بمؤخرات البنادق ـ أعقابها ـ وبالعصي ـ

الهراوات) فهشمت أعناقهم ، أو حطمت أعضاؤهم ، أو فتت أكبادهم ، وسحقت أجسامهم وديست على مرأى المراقب العام المحترم (السيد باريس) . في حين اقتلعت أصابع أو أظافر بعضهم من قبل رجال الأمن والدرك ـ الجندرمة ـ المتجولين الذين أطلق عليهم تجاوزاً ، ظلماً وعدواناً ، اسم : لجنة الاستقبال . وبالاضافة إلى ذلك ، فإن ميليشيا (المنظمة السرية المسلحة) تقتل وتنهب في طمأنينة كاملة تحت حماية « ميشيل دوبريه » الذي يشاركهم جرائمهم ويحميهم من المثول أمام العدالة . أما نحن ـ الثوار ـ فمثلنا اليوم مثل ما كنا بالأمس ، وإن إرادتنا في تحرير بلادنا لن تضعف ، لا بالإغراق في مياه السين ، ولا في اعتقال إخواننا وإخضاعهم لظروف عنصرية وغير إنسانية ـ لقد عاهدنا على ذلك ، وسنستمر حتى تتحقق تطلعاتنا الوطنية» .

٧ ـ مواقف لا تنسى (*)

تعتبر العدالة الفرنسية في الجزائر ، أن كل جزائري هو إنسان (مشبوه) وأن كل مشبوه يجب أن يكون (مجرماً) . وأن كل مجرم يجب أن (يحاكم) وكل من يحاكم يجب أن (يعدم) . وهذه هي المعادلة البسيطة التي سار على نهجها القضاء الفرنسي في الجزائر ، طوال ليل الاستعمار عامة ، وخلال مرحلة الثورة التحريرية منه بصورة خاصة .

كل جزائري مشبوه ، هكذا بكل بساطة ، ومن ثم فكان شيئاً ملازماً لهذا المنطق أن يرى أبناء الجزائر في كل يوم أعمال الاعتقالات الجماعية التي لا تفرق بين كبير أو صغير ، بين رجل أو امرأة ، بين غني وفقير ، فكلهم جزائريزن . وبمجرد أن يتم اعتقال المشبوه فإنه يقتل فوراً ، بتهمة محاولة الفرار ، وهو إن لم يقتل في الحين ، تسلط عليه عمليات التعذيب التي تنتهي (بالانتحار) أو (بالإعدام) .

هكذا ، اخترع رجال الشرطة (البوليس) ورجال الجيش من الفرنسيين ما عرف باسم (الاستجواب الانتحاري) ولم يكن من

(*) المرجع : جريدة (المقاومة الجزائرية) ٢٠ أيار ـ مايو ـ ١٩٥٧ .

الغريب بعدها أن تسفر تلك التحقيقات ـ أو الاستنطاقات ـ عن اكتشاف قتل أربعة أو خمسة من المتهمين بارتكاب حادثة واحدة قام بتنفيذها رجل واحد . وعندما يخرج المتهم ـ حياً ـ من أيدي المحققين (الشرطة أو الجيش) يحال إلى القضاة الفرنسيين ، وقد يتخيل الانسان أن المظالم قد انتهت عند هذا الحد ، غير أن من يعرف (من هم القضاة ؟) يدرك أن للقصة بقية .

إن القضاة هم فرنسيون قبل كل شيء ، سواء كانوا مدنيين أو عسكريين ، واجبهم الأول هو الدفاع عن النظام الاستعماري الفرنسي ، أو ما يسمونه (الجزائر الفرنسية) . فالقضاة يحاربون بأسلوبهم الخاص ضد المجاهدين الجزائريين . وليس هناك أي فارق عملي ، من هذه الناحية ، بين القاضي الفرنسي والجندي الفرنسي ، إنهم جميعاً يشكلون ما كان معروفاً باسم (الجهاز الإستعماري) . وإن الذين يتولون محاكمة الجزائريين (مجاهدين أو مواطنين مدنيين) هم من الفرنسيين الذين ينظرون الى الجزائري نظرتهم إلى عدو قبل كل شيء ، لا نظرتهم الى متهم بريء لا تجوز إدانته قبل ثبات التهمة عليه . ويكتفي معظم أولئك القضاة بالتصديق على تقارير تحقيقات الشرطة (البوليس) غير ملتفتين إلى أي احتجاج يصدر عن الجزائريين الأبرياء .

وبتطبيق قرار ١٧ آذار ـ مارس ـ ١٩٥٦ ، بات من المحال على القاضي إجراء تحقيق أو بحث حقيقي ، لأنه لم يعد أمام المتهم فرصة زمنية كافية لتكليف محام من أجل الدفاع عنه . أما في المحاكم العسكرية ، فإن ضباط الجيش الفرنسي هم القضاة ، أي ذات الضباط الذين يرتكبون الجرائم في كل يوم خلال (عمليات التطهير والتهدئة) حيث يقتلون كل يوم من يقع تحت نظرهم من



دم الثوار تعرفه فرنسا   وتعرف أنه نور وحق

النساء والأطفال . وهؤلاء الضباط القضاة يعتبرون عملهم في المحاكم العسكرية ـ عندما يحاكمون أسراهم ـ هو استمرار لما يقومون به من أعمال الإبادة والتقتيل في البوادي والجبال والمدن .

إن القاضي الذي يحترم إنسانيته ، يطلب الأدلة والبراهين ، أما قضاة فرنسا فيكتفون باعترافات انتزعت تحت ظروف التعذيب الوحشي ، أو بشهادات تفتقر كثيراً إلى الدقة والموضوعية وهي أقرب إلى الشك منها إلى اليقين . ولهذا تراهم يلفظون أحكامهم كأنها طلقات نارية يقذف بها رجل معتوه : (الأشغال الشاقة) (الإعـدام) . . .

لقد تعاون رجال فرنسا وقوانينها على أن يبرزوا محاكمة الجزائريين على شكل انتقام ساقط يغذيه حقد أعمى . وأمام انتشار الجهاد الوطني ، صار قانون العقوبات الفرنسي غير كاف . فصدرت قوانين أخرى ـ خاصة ـ بهدف القضاء على الكفاح الوطني الجبار . وكانت أبرز ظاهرة تميزت بها التشريعات الفرنسية الصادرة هي (ظاهرة العنصرية البغيضة) . فقد حرم شعب كامل من الحرية الفردية، ومن جميع وسائل الدفاع، لأن هدف التشريع الفرنسي لم يكن لمعاقبة المجرمين ، وإنما من أجل اعتقال المواطنين وتعذيبهم وإبادتهم بوتيرة متصاعدة يوماً بعد يوم . ولهذا وجدنا مشرعي فرنسا قد أصدروا القوانين التي يمكن لأجهزتهم الاستعمارية في الجزائر الاعتماد عليها ، والاستناد اليها ، لزيادة المظالم ، لا من أجل إنقاصها .

هكذا ، استمرت أحكام الإعدام في الصدور على الوطنيين الجزائريين المسلمين ، وهكذا ، كان ينفذ فيهم حكم الإعدام ضمن ساحات سجون الجزائر . وإن الذين شاهدوا أولئك الأبطال ، وهم

يجاهدون في صفوف جيش التحرير الوطني . وفي تشكيلات الفدائيين ، لن ينسوا ما شاهدوه أبداً ، إذ احتفظ الأبطال ببطولتهم حتى وهم في سجونهم ، وتحت رحمة جلاديهم في مجالس محاكماتهم .

لم يكن أولئك الأبطال يفكرون بالدفاع عن أنفسهم ، عندما يقعوا أسرى في قبضة عدوهم ، بل إنهم كانوا يقفون بكل إباء الثوار ، وشمم الأبطال ، فيوجهون التهم لأعدائهم ، تعبيراً عن إيمانهم العميق بعدالة قضيتهم ، ومثال ذلك ، موقف المجاهد (ببوش) الذي قدم إلى محكمة القوات المسلحة في عاصمة الجزائر - في شهر آب - اغسطس - ١٩٥٥ . فوجه إلى أعضاء المحكمة الكلمة التالية :

« إنني لست متمرداً ، ولست خارجاً على القانون . إنني جزائري ، حمل السلاح لتحرير بلاده وتحرير إخوانه من السيطرة ومن الاستعمار الذي أثقل كاهلهم منذ أكثر من قرن ، أما الخارجون على القانون ، وأما المجرمون ، فهم أولئك الذين يضطهدون ويقتلون شعباً يعد عشرة ملايين نسمة ، يريد حريته واستقلاله . إن أعداء الشعب هم الذين تحاربهم جبهة التحرير الوطني ويحاربهم جيش التحرير الوطني . وبصفتي جندياً في جيش التحرير الوطني فإنني أشعر أن واجبي هو في الجهاد من أجل تحرير الوطن واستقلاله » .

لقد كانت تلك اللهجة النبيلة والصريحة ، هي الطابع الثابت في مواقف جميع الأبطال الذين أعدموا .

ومقابل ذلك ، كان الطابع الذي اتسم به القضاة الفرنسيون في

مواجهة المجاهدين ، لتجسيم الجريمة ضدهم ، فهو ترديد تلك النغمة البائسة : « إن فرنسا قد شيدت المدارس وشقت الطرقات ، وأقامت المستشفيات الخ . . . »

ولكن (ببوش) وجميع إخوانه ، ممن حكم عليهم بالاعدام في (وهران) وفي العاصمة (الجزائر) وفي (قسنطينة) كانوا يجيبون على تلك النغمة البائسة بذكر الوقائع الثابتة ، فيقولون بأن الجزائريين كانوا منذ سنة (١٨٣٠) يعيشون تحت حكم المظالم والاضطهاد والإرهاب ، ويذكرون جميع أنواع المهانة التي تسلطها الإدارة الفرنسية على ملايين الرجال ـ مع الإشارة إلى أن كل ما تزعمه فرنسا من إنجازات لم يكن إلّا لمصلحة الاستعماريين (الكولون) ومستوطنيهم ، وقلة قليلة من أتباعهم ومأجوريهم ـ . وفي بعض الأحيان ، كان أحد أولئك القضاة ، ينهض ليستخدم لغة الوعيد والتهديد ، وأعصابه تغلي من الغضب ، فيقابله بطل المقاومة ، بهدوء واتزان ، ويشير اليه بإصبع الاتهام الثابت ضد جهاز الحكم المسلط على الوطن الجزائري بأكمله . وعندما يعجز القاضي عن مقارعة الحجة بالحجة ، والرد على البرهان بالبرهان ، يضيق صدره ، فلا يجد ما يعبر به عن مأزقه إلّا بأن يسرع فيصدر حكم الإعدام .

لقد كانت أحكام الإعدام تصدر على شكل قائمة ، وقائمة في إثر قائمة ، وكانت الصحافة الاستعمارية تتباهى وهي تصدر على صفحاتها الأولى تلك القوائم ، ومنها على سبيل المثال تلك التي نشرتها (صحيفة فرنسية)[١] . والتي تم فيها الإعلان عن إعدام

---

(١) صحيفة (أوبسرفاتور) ١٤ شباط ـ فبراير ـ ١٩٥٧ .

(١٦) جزائرياً خلال أسبوع واحد . وضمت تلك القائمة (قائمة الشرف) التالية أسماؤ هم :

اسم الشهيد	تاريخ اعدامه	مركز اعدامه
١ ـ احمد ناصر الدين	١٩٥٦/١٢/١٣	قسنطينة
٢ ـ حجاج بشير بن شريف	١٩٥٧/١/٣	قسنطينة
٣ ـ محمد سعايديه	١٩٥٧/١/٣	قسنطينة
٤ ـ حميدة طرفاية	١٩٥٧/٢/٤	قسنطينة
٥ ـ السعيد لعوبي	١٩٥٧/٢/٤	قسنطينة
٦ ـ حميد بن محمد	١٩٥٧/٢/٤	قسنطينة
٧ ـ محمد الأخنش	١٩٥٧/٢/١٢	الجزائر
٨ ـ محمد النوري	١٩٥٧/٢/١٢	الجزائر
٩ ـ محمد الصالح العياشي	١٩٥٧/٢/١٤	قسنطينة
١٠ ـ عمر بن الزائدي	١٩٥٧/٢/١٤	قسنطينة
١١ ـ فرحات بن بلقاسم عريف	١٩٥٧/٢/١٤	قسنطينة
١٢ ـ علاوة بو مليحة	١٩٥٧/٢/١٤	قسنطينة
١٣ ـ أحمد عمور	١٩٥٧/٢/١٥	وهران
١٤ ـ محمد بن الرزقي مزيرع	١٩٥٧/٣/٢٠	الجزائر
١٥ ـ صالح بو الكروة	١٩٥٧/٣/٢٢	قسنطينة
١٦ ـ بلقاسم مارد	١٩٥٧/٣/٢٢	قسنطينة
١٧ ـ محمد الشوقي	١٩٥٧/٣/٤	قسنطينة
١٨ ـ بدجار فرحات بن بلقاسم	١٩٥٧/٤/١٢	قسنطينة

وبذلك ، بقيت السجون المأهولة في الجزائر وفي فرنسا من أكثر مناطق العالم نشاطاً وحيوية . ولا يكون المعتقل في هذه السجون وحده أبداً ، وإنما يبقى على اتصال دائم بالثورة . وها هي الأخت

المجاهدة (زهراء ظريف)[1] المحكوم عليها بعشرين سنة من الأشغال الشاقة ، تدلي بشهادة خالدة تصف فيها أعمال الإعدام في سجن (بربروس) فتقول : « **إنك لا تسمع في حي المحكوم عليهم بالاعدام إلّا نداءات : (الله أكبر) و(النشيد الوطني) و(التضحية من أجل الوطن هي خير من الحياة)** . وتصدر هذه النداءات عن الذين يقادون الى الموت . كما تصدر عن بقية المعتقلين ، فتنتقل من مكان قريب إلى مكان أبعد منه ، حتى تعم جميع الأحياء في الساعة الرابعة صباحاً . وترافق أصوات النساء في الحي الأقرب ، وحتى مكان التضحية ، إخواننا الذين يقادون الى الموت . وتستمر هذه الأصوات في مرافقتهم حتى مدافنهم . وفي الوقت الذي يحتل فيه الحرس الجمهوري المعابر والدروب ، تتعلق النسوة المعتقلات بحديد النوافذ وترفضن إلا أن تنشدن الأناشيد الوطنية التي نموت من أجلها ، وتأبين إلّا تسمعنها لضحايا العدوان الاستعماري . وكانت رغبتنا كلها هي إشعار إخواننا بأننا نعيش معهم حتى النهاية . إننا نعيش في (سجن بربروس) ونحن في حالة من الفزع الدائم بنتيجة هذه الإعدامات المتجددة في ليلتين أو ثلاثة من كل شهر ، حيث تهوي المقصلة لتبتر أعناق إخواننا ، تلك المقصلة التي انتشرت في الجزائر كلها : من العاصمة إلى قسنطينة وإلى وهران . ونحن نحصي برهبة تواريخ عودة استخدام المقصلة في السجن الذي نحن فيه . ولم يتغير شيء ، على الرغم من الوعود الكثيرة . فإخواننا ما زالوا يستشهدون دائماً ، لا لشيء إلّا لأنهم أرادوا كرامتنا » .

---

(١) المرجع : نشرة تحمل عنوان : (الجمهورية الجزائرية ـ وزارة الداخلية ـ نشرة داخلية ـ نوفمبر ـ ١٩٦١ ص ١٤) .

٨ ـ الثورة ومسؤولية القيادة

لقد انطلقت الثورة منذ البداية على أساس القيادة الجماعية ، تنكراً لمبدأ عبادة الفرد من جهة ، واستجابة لمتطلبات الحرب الثورية وظروفها من جهة ثانية ؛ غير أن ذلك لم يكن ليتناقض أبداً مع أهمية القائد ودوره الحاسم في إدارة الحرب الثورية وتوجيهها ، ومن هنا فقد احتل الرواد التاريخيون الذين اتخذوا قرارهم التاريخي بتفجير الثورة وإدارة عملياتها في أصعب ظروف الجهاد وأقساها ، مرتبتهم الخالدة ؛ ومن هنا أيضاً برزت أهمية النسق الثاني والأنساق التالية التي تتابعت على قيادة الجهاد طوال فترة الحرب الثورية ، حيث اضطلع جيل القادة بدور تاريخي لا يكر . وقد يعجب المرء لتلك الطاقات القيادية ، وتلك الكفاءات العالية التي فجرتها الثورة ، ما تكاد فئة منها تمضي للقاء ربها بعد أن تكون قد أدّت واجبها ، حتى تخلفها فئة ثانية ، بمثل كفاءتها وبمثل صلابتها ، وبمثل تصميمها وعنادها . وأكد الشعب الجزائري بذلك غناه بالكفاءات القيادية . والمهم في الأمر ، هو أن هذه القيادات التي تصدت لدور الريادة ، قد عملت منذ البداية على إعداد أجيال القادة وتأهيلها ، إيماناً منها بأهمية الدور القيادي في الثورة من جهة ، وإخلاصاً منها لفكرة الثورة

التي يجب لها أن تنمو وأن تتعاظم فوق كل الأفراد الزائلون حتى تبقى جذوة الثورة متأججة ومتقدة ومستمرة ، ومتطورة . وهذا هو بدقة ما عبر عنه (توجيه للقيادة)[1] حفظته وثائق الثورة وتضمن ما يلي :

« إن المسألة التي نتناولها اليوم تهم أفضل ـ سير وتطور وتقدم ـ منظمتنا الثورية ، ويجب أن تكون هذه الخصائص الثلاثة دائمة . وإن كل منظمة وكل تجمع ينسق نشاطه نحو هدف معين يجب أن يكون لهم مسؤولون يقودونهم ويسيّرونهم. فمثلاً : إن للجيش إطاراته ـ كادراته ـ وهم الضباط وصف الضباط . والباخرة يسيرها ربانها يعاونه في ذلك مساعدوه . وللمؤسسة مديرها وإطاراتها ومراقبوها الخ . . ومنظمتنا لها مسؤولوها . فالشخص أو مجموع الأشخاص الذين يكلفون بالإدارة والتسيير يتحملون مسؤولية القيادة .

إن المسؤول في منظمة جبهة التحرير الوطني هو قبل كل شيء مجاهد من أجل القضية الجزائرية ، تم تعيينه في المستوى الذي هو فيه ، وذلك للاضطلاع بمهام مختلفة ومعقدة ، فإذا اختير لهذا المركز فليس ذلك تبعاً لهذا الظرف العرضي ـ الطارىء ـ أو ذاك ، ولا تبعاً لهذه التوصية أو تلك ، ولا لكونه قد أفاد من هذه العلاقة أو تلك ، وإنما يتم اختيار المسؤول فقط لأن جهاده وكفاءته تؤهلانه لهذا التعيين ، وتمكنانه من الاضطلاع بمسؤوليته . ومهما تكن مرتبة المسؤول في سلم التسلسل التصاعدي ، فإنه يجب أن يكون قائداً جماهيرياً ومنظماً ومربياً . يقوم بواجبه مثله كمثل بقية مجاهدي

---

(١) المرجع : نشرة تحمل : « الجمهورية الجزائرية ـ وزارة الداخلية ـ نشرية داخلية ـ نوفمبر ـ ١٩٦١ ص ٥ و٦ تحت عنوان ـ الزاوية النظامية » .

الجبهة . وهو مسؤول عن أعماله مثله كمثل جميع مجاهدي الجبهة . وزيادة على ذلك ، يجب عليه باعتباره مسؤولاً أن يتصدى لحمل مسؤولية كافة الأعمال التي يقوم بتنفيذها جميع العاملين تحت قيادته .

وهكذا ، فكلما ارتفع مستوى مسؤوليته في السلم التصاعدي ، كلما زادت أعباء الواجبات التي يضطلع بها ، وكلما اتسع نطاق عمله أكثر من عمل المجاهد العادي . فإذا كان مجاهد القاعدة لا يقوم إلّا بالعمل الذي يطلب إليه تنفيذه . فإنه يجب على المسؤول أن يسهر على تنفيذ التعليمات وشرحها بوضوح كامل . ويبقى من واجبه السهر الدائم حتى تصل التعليمات إلى أهدافها ، وحتى تحقق النتائج المرجوة منها . ثم يجب عليه أن يراقب ويوجه وينسق نشاط كل المجاهدين العاملين معه .

يجب على كل مسؤول أن يفكر باستمرار في المبادرات التي يتخذها لتوجيه المجاهدين في القاعدة ، ويجب عليه الاهتمام بتشكيل منظمته وتكوينها ، وإعداد هيكلها حتى يجعل منها أداة مستعدة دائماً للقيام بدورها في الثورة ، وعليه ألّا يضيع في نظرياته ، أو أن يحلّق في الخيال ، يعني فوق العناصر التي هي تحت مسؤوليته ، بل على العكس ، يجب عليه أن يعيش وهو على اتصال مستمر بالقاعدة ، حتى يلمس الواقع ويدرك أبعاده ومن الواضح ، بأنه من المحال على المسؤول أن يتمكن من الاضطلاع بدوره بنجاح ، إلّا إذا جمع مع المعرفة فضائل الإخلاص وروح المبادرة ، ولكن مهما يكن اتساع معارفه ، فيجب أن يحذر من الوقوع تحت سيطرة مشاعر التفوق التي تقوده للغرور ، ففي ذلك السم القاتل الذي يشكل خطراً على تضامن المنظمة . **وعندنا مثل يقول : « إن الإنسان**



الشعب والجيش في خندق واحد

الحكيم لا يهمل النصيحة مهما بلغت درجة معارفه » .

تعترض المسؤول عادة بعض الصعوبات الخاصة التي يجب عليه حسمها بنفسه ، إذا كان يمتلك الكفاءة لذلك ، أو أن يساعد مرؤوسيه ، العاملين تحت قيادته ، على إيجاد الحلول المناسبة لها . ويجب عليه ألّا يفرض أبداً هذا الحل أو ذاك ، إذا لم يحدد مسبقاً الضرر ، أو الأضرار ، المحتملة والمتوقعة . وأن يستعين بوجهات نظر مساعديه المباشرين وآراءهم ، في علاج الموقف ، ووضع الحلول التي يتطلبها الوضع . **وإن وظيفة المسؤول لا تتنافى مع الإدارة الجماعية ، فهذا المبدأ الذي وضعته جبهة التحرير الوطني قاعدة لهيكلها التنظيمي هو مبدأ صحيح ، سواء كان ذلك على مستوى القسم والناحية أو حتى على أرفع المستويات في قيادة الثورة ، وأعلاها مرتبة** .

ليس المسؤول ممثلاً للقاعدة أمام القيادة ، ولا هو مندوب نقابي لدى المسؤولين الذين هم أعلى منه رتبة . بل إنه انعكاس القاعدة لدى كبار المسؤولين ، ويجب أن يستخلص المسؤولون من تقاريره صورة صحيحة ودقيقة لما هو عليه موقف القاعدة وحالتها . فالمسؤول إذن هو الذي يبين لمن هو أعلى منه في المسؤولية حقيقة الموقف على مستواه ، وبصورة موضوعية . ويوضح بدقة مقترحات وطلبات القاعدة واحتياجاتها وما تجابهه من صعوبات وما تمارسه من أعمال ، وردود فعلها أمام المشاكل التي تجابهها الخ .

وعلى هذا ، فالمسؤول ليس موزع بريد ولا رجل اتصال ، مهما كان موقعه في المسؤولية ما بين القمة والقاعدة . وعلى المسؤول ، في الحالات كلها ، أن يعمل قبل كل شيء لمصلحة الثورة . وإذن ، فإننا نرى أن المسؤول هو أيضاً العقل المفكر الذي يهيىء في مستواه

التعليمات التي يراها ضرورية في هذا المستوى ، ويوضح التعليمات التي تلقّاها من المستوى الأعلى . وعلى ضوء البيانات بشأن دور المسؤول ، فإننا نعتبر أن المسؤولية في جبهة التحرير الوطني هي وعي الدور الذي يمارسه كل إطار في المستوى الذي هو فيه .

من المؤكد ، بعد ذلك ، أن المسؤولية ثقيلة ، غير أن ثقل هذه المسؤولية ، وما تتضمنه من مناظر تجعل من الاضطلاع بها شرفاً أسمى ، إذا ما اعتبرنا أن الأطر (الكادرات) في جميع المستويات هم الذين لهم الشرف الأعظم في قيادة ثورتنا . فالمسؤولية لذلك لا تسند إلّا للرجال الذين هم أهل لها ، وللوطنيين المخلصين المتجردين الذين لا يرجون جزاءً ولا شكوراً ، وللذين أقرّوا العزم على التضحية بأعز ما لديهم من أجل انتصار مثلنا العليا في التحرير الوطني .

* * *

٩ ـ الفلاح والثورة

يبقى هناك سؤال ، في جملة الأسئلة ، التي لا بد لها وأن تصدم بقوة كل باحث في عمق الثورة الجزائرية ، ويتلخص هذا السؤال بالتالي : لقد انطلقت شرارة الثورة في المدينة ، فلم تلبث حتى ألهبت السهل والجبل ، فهل كان ذلك لأن العشب الجاف ، والوقود الصلب ، في السهل والجبل ، كان أكثر استعداداً للاحتراق بنار الثورة ؟ . لقد انسحب الرواد التاريخيون بعد أن أيقظوا شعب الجزائر بتظاهرتهم العنيفة ، ليستقروا ـ كالعقبان ـ في صياصي الجبال ، فهل كان ذلك لمجرد الإفادة من منعة الطبيعة الجبلية في الأوراس ومنطقة القبائل ، وما توفره هذه المناطق من الحماية الطبيعية ؟ ولقد ألقت فرنسا بثقل قواتها لقمع الثورة منذ بداياتها المبكرة ، واحتمل سكان السهول والجبال من الضيم والعسف ما لا تحتمله إلّا الجبال الراسيات ، فلم تضعف لأبناء السهول والجبال قناة، ولم تَلِنْ لهم إرادة . وأتعبوا أقوى جيوش الاستعمار ولم يتعبوا ، فهل كان ذلك بسبب طبيعة أبناء هذه المناطق ؟ ولقد تشكلت المناطق المحررة ، أول ما تشكلت ، في مناطق الأوراس والقبائل الكبرى ، فما هو السر في ذلك ؟ إن السر كامن في ذلك التلاحم الخالد بين المواطن الجزائري والأرض الجزائرية ، وهو التلاحم الأبدي بين المواطن والوطن . وقد

صدرت أبحاث كثيرة عالجت هذه النقطة بالذات . وقد يكون من الأفضل الامتناع عن كل تعليق ، وإفساح المجال أمام بحث عن (دور الفلاح الجزائري في الثورة)[1] صدر في المراحل الأخيرة من هذه الثورة .

« إن أبرز سمات الثورة العربية بالجزائر ، ارتباطها بالأرض . فالأرض هي الإطار الذي أبرز النضال ، والأرض هي منبع مقاومة جيوش الاحتلال ، وهي المصدر لكل الانتفاضات التي تطورت إلى ثورة اعتبرت معجزة في تاريخ نضال الشعوب ضد الاستعمار » .

وإذا تفحصنا تاريخ الجزائر ، بمجهر النزاهة العلمية ، والإنصاف الموضوعي . وجدنا أن الفلاح هو العنصر المحرك ـ الديناميي ـ الفعال الذي مارس دوراً رئيسياً في المقاومة والثورات . فالفلاح هو الذي قاد المقاومة ضد جيوش الاحتلال الفرنسي ، والتي استمرت من سنة (١٨٣٠) حتى سنة (١٩٠٣) . ومن الفلاحين شكل الأمير عبد القادر جيشه الذي قاد المقاومة مدة سبعة عشر عاماً (من سنة ١٨٣٠ حتى سنة ١٨٤٧). والفلاحون هم الذين قاموا بثورة (أبي بغلة) سنة (١٨٥١) وهم قاموا بثورة (بني سناسن) سنة (١٨٥٩) وهم الذين قاموا بثورة (أولاد سيدي الشيخ الأولى سنة ١٨٦٤) والفلاحون هم الذين كوّن منهم البطلان (الشيخ الحداد والمقراني) جيشاً ثورياً (سنة ١٨٧١) اضطر فرنسا إلى إرسال ربع مليون جندي لإخماد هذه الثورة بعد أن خسرت فيها (٦٠) ألف جندي . والفلاحون هم الذين قاموا بثورة أولاد سيدي الشيخ الثانية (سنة ١٨٨١) عقب احتلال فرنسا

---

(١) المرجع : مجلة (الشباب) الجزائرية . العدد السادس ـ نوفمبر ١٩٦١ ، ص ٢ ـ ٦ والبحث للكاتب الجزائري عثمان سعدي .

لتونس مباشرة . والفلاحون مع البدو ، هم الذين حاربوا جيوش فرنسا بصحراء الجزائر من سنة (١٨٨٩) حتى سنة (١٨٩٢) والفلاحون هم الذين قاموا بثورة (أوراس ـ سنة ١٩١٧) .

لكن لماذا كان الفلاح بالجزائر عنيفاً في مقاومته للاحتلال الفرنسي ؟ إن الأرض هي السبب الرئيسي في عنف مقاومة الفلاح بالجزائر للاحتلال . فتوزيع الأرض بالجزائر يكاد يشكل نموذجاً فريداً في نوعه ، في تاريخ الأقطار الحديث . وإذا ما عدنا إلى العهد التركي فإننا نجد أن إدارة الحكم قد اكتفت بممارسة سلطتها على المدن الكبرى والمناطق القريبة التي لا تتجاوز سدس القطر الجزائري . وتركت للجزائريين حرية إدارة بلادهم . فتشكلت في كل منطقة إدارة أشبه ما تكون (بجمهوريات قبلية) . وهكذا فعندما احتلت فرنسا الجزائر وجدت أربعة أنواع من الملكيات العقارية التي تشغل خمسة أسداس الجزائر ، وكانت هذه الملكيات كالتالي :

١ ـ ملكية الدولة (البايليك) .

٢ ـ أراضي (الأحباس) الموقوفة للمساجد والجمعيات الخيرية والهيئات الدينية .

٣ ـ أراضي القبيلة أو القرية (أراضي العرش) وهي عبارة عن ملكية جماعية .

٤ ـ أراضي الملاك الأفراد .

وتكاد الملكية الفردية تنعدم تماماً بالمقارنة مع انتشار الملكية الجماعية . حتى أن القبائل بالجزائر لم تعرف الملكية الفردية إلا بعد دخول الفرنسيين . وقد كان لكل قرية أرضها الخاصة بها ، يستثمرها سكانها استثماراً جماعياً . ويعين شيخ القرية في كل سنة ، جزءاً من الأرض لكل أسرة ، وتضم مجموعات من الأسر الأراضي المخصصة لها

بعضها الى بعض ، ثم تزرعها ، وتتعاون في العناية بها وحصاد محصولها . وللفرد والأسرة حق استثمار الأرض وليس لهما حق الملكية .

لم تكن القبائل تعرف بيع الأرض قبل دخول الفرنسيين للجزائر . ولهذا فإن النظام الزراعي الذي كان قائماً في العهد التركي لم يسمح بظهور الإقطاعية . وخلق نوعاً من الحياة الديمقراطية التي تتخذ العدالة الاجتماعية قاعدة لها . فالأرض ملك للجميع ، والفرص متاحة أمام الجميع للعمل . وما على الفرد إلا أن يكد ويعمل حتى يحصل على الانتاج الذي يحفظ له كرامته الإنسانيّة . وقد شهد بذلك القادة العسكريون الفرنسيون ذاتهم عندما دخلوا الجزائر ، ووجدوا بها حياة ديمقراطية أفضل من الحياة التي كانت سائدة في فرنسا ذاتها ـ مثل الكونت دي هيرسون ـ الذي كتب يقول :

« إنني أشك في أمر احتلالنا لهذه البلاد . فإن للقبائل حق الأولوية ـ الذي لا جدال فيه ـ من العيش بين منازلها على نحو ما كان عليه حالها منذ أجيال مضت . ويبدو لي أن العرب لم يسيؤوا التصرف في معيشتهم ، ما داموا يحكمون أنفسهم بقوانين ديمقراطية صالحة . . . ونحن نقسو عليهم لا لشيء إلّا لأننا أقوى منهم . . . » .

ويقول العقيد ـ الكولونيل فوري ـ في ذلك ما يلي : « لم أرقط ، ولم أكن أتوقع مثل هذه الكثافة من السكان ، ومن ضخامة المراكز التي تجمعهم كما رأيت في جبال ـ بني بوعايش ـ وبني مالك ـ فهنا تجد المساكن المنعزلة كثيرة . ولكن تجد أيضاً مداشر وقرى ، شبيهة بالتي عندنا في فرنسا ، وفوق أحسن وأجمل ما تكون من المواقع . كلها محاطة بالبساتين والجبال المشجرة العالية العظيمة بأشجار الزيتون فيها . ولقد وقفنا كلنا ونحن في دهشة وذهول أمام هذا المجال الطبيعي الذي لا يكاد يحد . ولكن الأوامر هي الأوامر . . وقد كان اعتقادي

أنني أقوم بواجبي كأكمل ما يكون ، عندما لا أترك قرية واحدة قائمة ، ولا شجرة واقفة على ساقها ، ولا حقلاً عامراً . وإن الشرور التي اقترفها جنودي كانت لا تعد ولا تحصى . ولكن هل ذلك شر ؟ أم هو خير ؟ إنني أعتقد أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لحمل السكان على الاستسلام والهجرة » .

كان من نتيجة هذه الحياة الجماعية العادلة ، أن عاش الفلاح الجزائري بمستوى حياتي جيد ترك أثره في بنيته وصحته . وها هو الجنرال ـ فالازيه ـ يشهد بذلك في أحد تقاريره : « كان هؤلاء البدو والسكان في القرى والمداشر ، يمارسون بعض الألعاب الرياضية البدنية ، التي جعلت منهم ، مع ما كانوا يتمتعون به من الهواء الطلق والرخاء الحقيقي في المعيشة ، رجالاً كاملي الرجولة » .

لقد جعلت الحياة الديمقراطية ، ورخاء العيش ، وسلامة البنية ، من الفلاح بالجزائر ، نموذجاً كاملاً للانسان الثائر ، فهو لا يعرف سوى الحرية ، ويجهل كل أنواع العبودية وأشكالها ـ إلاّ العبودية لله الواحد القهار ـ له نفس تأبى الضيم وتعاف الذل ، جبار إذا ما شعر أن كرامته قد أهينت ، أسد إذا اعتدي عليه . وإذا ثار فهو صامد لا تلين له قناة ، له إصرار على الوصول إلى الهدف يبلغ إلى حد العناد . وهذا النموذج الكامل للانسان الثائر في شخصية الفلاح العربي المسلم بالجزائر هو الذي جعل مؤسس الإستعمار الفرنسي بالجزائر ، (الجنرال بوجو) يصيح صيحة ملؤها الإعجاب فيقول :

« آه ! لو لم يكن هناك عرب في الجزائر ، أو لو كان العرب يشبهون تلك الشعوب المائعة التي في الهند . . . لما نصحت بلادي بجلب جالية لنقيم إلى جانب العنصر العسكري . ولكن وجود هذه الأمة التي بلغت من شدة المراس والاستعداد للحرب حداً أرفع بكثير

مما هو عند الجماهير الأوروبية ، يضطرنا اضطراراً إلى أن نضع أمامها وحولها وفي وسطها سكاناً يكونون على أوفر ما يمكن من القوة » .

هذه الصلابة ، وهذا الثبات ، وهذا الإصرار ، وهذه البطولة الأسطورية التي امتاز بها الفلاح الجزائري هي التي دفعت ضابطاً فرنسياً آخر (اسمه فيستي) يصرح بإعجاب وهو يروي لقائده ـ الجنرال ـ في أحد التقارير حادثة رجلين اتهما بقتل ضابط تركي يعمل في الجيش الفرنسي ، وحكمت عليهما السلطة الفرنسية بقطع يديهما . قال الضابط الفرنسي : « حُزّم ذراع كل منهما عند الزند ، وشُدّ على شرايينهما بحبل ، ثم وقع جزّ اليد بتمهل وبطء . ثم رُميت اليدان على وجهيهما . ولكن يا سيدي الجنرال ، لقد رأيت هذا بعيني ؛ إنه لم يظهر على الرجلين أثناء العملية أي شعور بالألم . لقد بقي وجه كل واحد منهما طبيعياً ، لا أثر فيه للتوتر أو الانفعال . ثم تناول كل منهما يده الملقاة على الأرض بيده السليمة . وسار الرجلان جنباً إلى جنب وهما يتحادثان بهدوء عجيب . إن رجالاً من هذا النموذج قادرون على أن يفعلوا شيئاً عظيماً ورائعاً » .

لقد استخدم جيش الاحتلال كل وسائل الرعب والإبادة والتقتيل الجماعي والتعذيب ، وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد صمد الفلاحون صموداً عجيباً ، ولم يستسلموا أبداً . وهذا ما أكده ضابط فرنسي يدعى ـ كاروبير ـ في تقرير له : « تجولنا طويلاً ونحن نحرق ونتلف ونسحق القبائل بين ـ البليدة ـ و ـ الشلف ، وفي ضواحي ـ شرشال ، وبالرغم من أن الرعب الذي نشرناه كان عظيماً ، فإن الهدف الذي كنا نريد تحقيقه وهو حملهم على الاستسلام ، لم يتحقق » .

وثورات هؤلاء الفلاحين العزل ، الذين أُحرقت مزارعهم وقراهم ، وقُتلت مواشيهم ، وهُدمت منازلهم ، هي التي بقيت مصدر تهديد للجيش الفرنسي ذو الماضي العريق بالأمجاد العسكرية ، والتاريخ الطويل بأعمال الإبادة . قال الدوق دورليان ـ وهو من طليعة الاستعماريين في فترة احتلال الجزائر : « **إن هؤلاء الرجال ، ذوي الحمية والبأس ، أذاقوا الفرنسيين متاعب لم يعرفوها في كامل حروبهم الامبراطورية ، وساهموا ـ أكثر من أي جيش نظامي آخر ـ في تدمير الجيش الفرنسي . . . لقد كانوا يمنعون الجيش الفرنسي أن يذوق للنوم طعماً ، فكانوا يضطرونه للبقاء على قدم التحفز الذي لا يهدأ . .** » .

لقد فشلت كل الوسائل التي استخدمها الفرنسيون زمن الاحتلال ، لإخماد ثورات الفلاحين بالقوة . إذن ، فما هو الحل الناجح لإيقاف هذه المقاومة الجبارة ؟ لقد توصل الفرنسيون أخيراً إلى الحل الذي وصفه ـ لاموريسيير ـ وهو من أوائل رجال الاستعمار في الجزائر أيضاً ـ بقوله : « لكي نحقق تلك الغاية ، فإنه يجب علينا استيراد مزارعين أوروبيين ، لأنه ليس باستطاعتنا أبداً أن نثق بالأهالي ثقة تامة ، ذلك أنهم على استعداد دائم للقيام بالثورة عند سماع أول كلمة بإعلان الحرب . فبين الغزو والاحتلال الحقيقي ، يكون استسلام العربي مجرد استسلام مرحلي لا بد منه . إن السكان المسيحيين المزارعين ـ الفرنسيين ـ هم وحدهم الكفيلون بتحقيق أملنا في الاستقرار يوماً من الأيام في الجزائر . يجب علينا إحضار أكبر عدد ممكن من المزارعين المعمرين ، ونشجعهم بأن نقتطع لهم الأرض ونملكهم إياها حتى تتزايد أعدادهم» . وهكذا ، فإن الحل الذي توصل إليه الفرنسيون للقضاء على مقاومة الفلاحين هو في

تجريدهم من مصدر هذه القوة الجبارة . وهذا اللباس السحري هو في حرمانهم من الأرض التي كيّفت شخصيتهم وأبرزتها إلى الوجود كشحنات من الطاقات الثورية الرهيبة . وصار العقاب الذي يسلط على القبائل الثائرة من بعد ذلك ، هو انتزاع أرض هذه القبائل وطردهم منها ، فمثلاً فرضت على القبائل التي قامت بثورة سنة (١٨٧١) غرامة قدرها (٣٦) مليوناً من الفرنكات مع تجريدهم من أملاكهم التي قدرها المؤرخون الفرنسيون بنصف مليون هكتار (والهكتار يساوي فدانين ونصف الفدان في الجزائر) .

لجأ القادة الفرنسيون أيضاً إلى إغراء المجندين في جيش الاحتلال ، بمنح كل جندي أو ضابط حصته من أرض القرية المقهورة . وهكذا صارت أرض القرية تقتطع للضباط الذين يخمدون ثورتها ، ويجلون أهلها عن ترابها . أما السكان ، فكانوا يطردون إلى المناطق النائية عن العمران . وفي ذلك قال أحد الضباط الفرنسيين : « أما وقد عجزنا عن إخضاع الجزائريين ، فلنقذف بهم بعيداً كالوحوش الضارية التي تطرد من الأماكن المأهولة . علينا أن ندفع بهم أمامنا مع تقدم العمران حتى نرميهم في الصحراء . ونبقيهم هناك إلى الأبد » .

انتشرت على أثر ذلك المضاربة بأراضي القبائل السليبة ، لا سيما بين الضباط الفرنسيين . قالت زوجة الجنرال (برو) في خطاب أرسلته إلى أحد أصدقائها سنة ١٨٣٤ ما يلي : « تسألني أيها الصديق عما وصلت إليه أعمال الاستعمار هنا ، والحق أنها اقتصرت حتى الآن على الاستيلاء والمضاربة بالممتلكات . الناس يضاربون على الأراضي كما يضاربون في الأسواق على النبيذ واللبن . وقد تدهش إذا قلت لك أن أراضي ـ بليدة ـ قد بيعت إلى آلاف من الأفراد قبل

استيلاء جيشنا عليها . ويجد المشترون متعة في تركيب نظاراتهم المقربة ، والوقوف على أعلى الهضاب التي تبعد مسافة ثلاثة فراسخ من ـ بليدة ـ لتنعم أعينهم بمشاهدة الأراضي التي دفعوا ثمنها ، ولما يستولي عليها الجيش بعد . ويتوجه الكثيرون إلى مكان ـ التوثيق ـ لشراء مساحات من الأرض على أساس الوعود فقط . وهكذا نجد أن سهل متيجة ـ أو متوجة ـ وهو عبارة عن مستنقع ـ يبلغ طوله خمسة وعشرون فرسخاً وعرضه نحو اثني عشر فرسخاً ، قد بيع عن آخره مقدماً ، ولم يبق على المشترين الجدد إلاّ أن يدفعونا للتقدم نحوه ، فنقتل أو نقتل في سبيل الحصول عليه » .

اكتشف الفرنسيون بعد مدة أن هذه الوسيلة لم تجد نفعاً ، مع صلابة الفلاحين ، مع هذا العنصر المنتج والفعال ـ الديناميي ـ . إذْ أخذ الفلاحون بعد طردهم من أرضهم ، يتجهون إلى مناطق أخرى ، يستقرون بها ، ويستصلحون بورها ، ويستثمرونها بطريقتهم الجماعية التعاونية ، ثم سرعان ما يتخذونها قاعدة للهجوم على جيش الاحتلال من جديد . ولقد تحدث (مالارمي) عن جماعات في شرق محافظة (قسنطينة) فرضت عليهم العقوبات من قبل . ثم أعاد (أولاد يحيى) تنظيمهم وجمع شملهم . وقال هذا (المالارمي) : « لكننا سنعمل على إفقارهم . ففي ذلك الضمانة الوحيدة للمستقبل » .

لجأ الفرنسيون إلى حل ثانٍ من أجل القضاء على ثورات الفلاحين وإخمادها . وهذا الحل هو استعمال التشريع (القانون سلاحاً يدعم عمليات اغتصاب الأرض من الفلاحين . ففي ٣١ تموز ـ يوليو ـ ١٨٧٢ ، صدر أمر بأن يضم إلى أملاك الدولة مجموع الأرض الخالية من العمران ، والتي لا يستطيع أصحابها تقديم

سندات تثبت ملكيتهم لها قبل تموز ـ يوليو ـ سنة ١٨٣٠ . (السنة التي وقع فيها احتلال فرنسا للجزائر) . وبطبيعة الحال ، كانت الملكية الجماعية هي السائدة آنذاك ، وهي لا تحتاج إلى سندات يحصل عليها الفلاحون لتثبت ملكيتهم للأرض . وما دامت الأرض ملكاً للقبيلة ، وللفرد حق الاستثمار فقط ، وليس له حق البيع ، وهو نظام تعاوني يخلق جواً من الانسجام والتعاون بين أفراد القبيلة ، ويجعل منهم كتلة قوية متماسكة ، ما دام هذا النظام هو السبب الرئيسي في قوة جبهة الفلاحين وصلابتها ، فلتصدر القوانين التي تهدف إلى تفتيت هذا النظام الاجتماعي ، وتؤدي إلى تمزيق هذا التجمع المتماسك ، وتقلب كتلة القبيلة أو القبائل المتلاحمة إلى مجموعة أسر وأفراد متخاصمين متشاحنين ، بالقضاء على الملكية الجماعية ، وبتوزيع أرض القبائل بين أسرها وأفرادها ، ثم إجازة بيعها . وكان نص قانون الاستيلاء على الأرض الجماعية هو التالي :

« **أليست الأراضي الشائعة التي تملكها القبيلة هي ملكية جماعية ، وهي شيء ملك الله قبل كل شيء ، وإذن فهي ملك للبايليك أي للدولة ، فهي التي تمثل الله على الأرض ، أليست القبائل تملك الأرض هذه ملكية جماعية لاستيلاء العرب عليها بالقوة من قبل ؟ ومن جهة أخرى ، ألا يجب أن تنتج أكثر من انتاجها وهي على هذه الحال ؟ إذن ، فلتعتبر القبائل مستأجرة لهذه الأراضي من الدولة ، وليس هناك ما يمنع الدولة من أن تقسمها وتديرها إدارة حسنة ، وتصدر فيها سندات ملكية** » .

لقد كان قانون سنة (١٨٧٢) هو أخطر قانون دمر جبهة الفلاحين ، وتظهر فظاعة هذا القانون من خلال تصريح أحد فلاحي قبيلة (أولاد أرشاش) عندما قال معلقاً على هذا القانون : « **لقد**

تغلب الفرنسيون علينا في حقول السبيخه ـ وهي الأراضي التي كانت تمتلكها القبيلة التي طردت منها ـ وقتلوا شبابنا ، وفرضوا علينا غرامات ثقيلة وضرائب فادحة ، لكن كل هذا هين ولا يعد شيئاً ، والجراح لا بد لها من أن تلتئم . . . لكن إنشاء الممتلكات الفردية الخاصة ، والترخيص لكل فرد ببيع الأراضي التي تكون من نصيبه بعد اقتسامها ، معناه إصدار قانون بإعدام القبيلة . فبعد عشرين عاماً من بدء تنفيذ هذا القانون ، سيكون أولاد أرشاش قد انقرضوا عن آخرهم » .

لم يكن قائل هذه المقولة خبيراً اقتصادياً ، ولا باحثاً أو فيلسوفاً اجتماعياً ، وإنما هو فلاح بسيط في الجزائر ، عاش حياة الجماعة ، وعرف أنها النمط الوحيد الذي يحافظ على وجود الفلاحين ويحميه من الانقراض أمام سياسة الإبادة المنظمة وأساليب الإفقار والتجويع التي اتبعتها فرنسا ، وهي وحدها التي تضمن لهم القدرة لاستعادة قواهم ، ثم استرجاع أراضيهم من أيدي المغتصبين الفرنسيين . وما دام الفرنسيون قد أدركوا سر قوة القبيلة ، عملوا على حلها ، فقبيلته ستنقرض بعد عشرين سنة ، وفقاً لتوقعاته .

وصل الفرنسيون إلى هدفهم ، فحلوا الملكية الجماعية ، وبحلهم لهذا النوع من الملكية ، توصلوا إلى تفتيت جبهة الفلاحين ، وخلقوا منازعات بينهم تطورت إلى حروب بين القبائل من أجل رسم الحدود الفاصلة بين الملكيات . وقد حفظ لنا الأجداد قصصاً عن فظاعة تلك الحروب التي وقف الفرنسيون الاستعماريون وراءها ، وعملوا على تغذيتها وزيادة عمق الخصومات فيها . وما لبثت مقاومة الفلاح لجيوش الاحتلال أن أخذت في الانحدار والتناقص (بعد ثورة سنة ١٨٧١) . ولم يكد يحل العقد الأخير من

القرن التاسع عشر حتى كانت هذه المقاومة الإيجابية قد وصلت إلى نهاياتها . ثم جاءت فترة صمت ، لم يسمع خلالها صوت يرتفع بالاحتجاج أو يطالب بحق . وقد يتبادر للذهن هذا السؤال : كيف حافظ الفلاح على ثوريته ، بعد الضربات المتوالية التي وجهتها السلطات الاستعمارية الى كيانه الاجتماعي ونظامه الاقتصادي ؟ . . وكيف يمكن للفلاح أن يبقى ثورياً بعد أن افتكت أرضه منه ؟ أليست الأرض هي مصدر هذه الطاقات الثورية المتفجرة ؟ . . والجواب هو أن الفلاح الذي تفتت كيانه الاجتماعي على أيدي قادة الاحتلال الفرنسي ، لم يعدم بقية من آثار هذا الكيان المرتبط بالأرض ، نقلت له في إطار تقاليد توارثها أباً عن جد ، من خلال حلقات السلسلة التاريخية التي تربط عهد قيام كيانه الاجتماعي بتاريخه الحديث .

إن الفلاح إذا ارتبط بالأرض ارتباطاً وثيقاً وسليماً ، وإذا دام هذا الارتباط مدة تمكنه من الإثمار ، فقد حمل في نفسه آثاراً عميقة لا يمحوها الزمن ، ولا يزيلها تعاقب الأحداث . وكانت هذه الآثار شبيهة بما تركته الأشجار الباسقة من آثار في طول عنق الزرافة - بحسب نظرية داروين في النشوء والارتقاء وإن كنا لا نؤمن بها ولا نعتقد بصحتها - . وإن الذي يعيش في قرية من قرى الجزائر ، ثم تتاح له فرصة التأمل في بنائها الاجتماعي من الخارج ، وفي العادات المتوارثة في هذا البناء ، سرعان ما يدرك وجود بقية من تقاليد وعادات ترجع إلى عهد الحياة الجماعية للفلاحين . فبالرغم من أن كل فلاح له أرضه التي تفصلها عن أرض جاره حدود معينة ، فإن مضمون العلاقات التي تربط بين الفلاحين بقي جماعياً .

فنظام (الخماسة والقطاعة والجيارة والمزارعة والتويزة) كلها أنواع من التعاون والتكامل الاجتماعي في مجتمع القرية .

فنظام (الخماسة) يتيح لمن لا يملك أرضاً يستثمرها ، أن يشارك من يمتلكون أرضاً في القرية بجهده ، وبتطوعه للعمل فقط ، ويسمى الخماس ، ويحسب له صاحب الأرض هذا العمل كطرف في شركة . فيقوم الخماس بعملية الحراثة ورعاية الحقول طوال السنة . أما جمع المحصول ، فإن طبيعة موسم الحصاد تقتضي التعجيل به . ولهذا فإن جمع المحصول لا يقوم به الخماس وحده ، بل يشارك فيه صاحب الأرض . وإذا احتاج الخماس إلى مواد غذائية لأسرته ، قبل حلول موسم الحصاد ، قدمها له صاحب الأرض . ويتقاضى الخماس خمس المحصول مقابل عمله .

ونظام (القطاعة) عبارة عن قيام صاحب العمل بجمع محصول الملاّك ، مقابل نسبة يتفق عليها الطرفان ، وتتراوح بين سبع وثمن المحصول يدفعه صاحب الزرع (للمقاطعي) مقابل عمله .

ونظام (الجيارة) عبارة عن علاقة تربط بين صاحب الحقل والعمال الزراعيين ، وفي أغلب الأحيان يكون هؤلاء العمال غرباء عن القرية ، جاؤوا إليها من مناطق أصيبت بالجفاف . ويقوم (الجيار) بعملية الحصاد فقط ، أي حصد الزرع وتكديسه في الحقل ، ويأخذ في مقابل هذا العمل عشر الأكداس التي جمعها . ولا تعتبر هذه النظم الثلاثة بأن العامل أجيراً يعمل ليبيع عمله نقداً ، وإنما تدخله شبه شريك في محصول صاحب الأرض ، وتمنحه نسبة معينة من هذا المحصول .

أما نظام (التويزة) فإنها نوع من التعاون بين سكان القرية على حرث الحقول أو جمع المحصول . ويدعو الفلاح إلى (تويزة) ويحدد الجميع يوماً معيناً لذلك . ويتعاون كل سكان القرية على جمع المحصول . أما الفلاح الداعي إلى (التويزة) فيقوم بإحضار

الفطور إلى الحصادين في الصباح بالحقل . ثم يأخذهم إلى منزله عند الظهيرة ليتناولوا وجبة الغداء عنده . ومن شروط (التويزة) أن يتم جمع المحصول على أنغام المزمار ، وتوجد ألحان خاصة (بالتويزة) تساعد على تنشيط الحصادين ، وخلق جو التنافس بينهم . وقد أجري بحث في إحدى (التوائز) فتبين أن عامل الحصاد في التويزة ينتج أربعة أمثال ما ينتجه في يوم من أيام عمله العادية . وتتكفل القرية أيضاً بحرث أراضي الأرامل واليتامى ، وأراضي الأوقاف ، وجمع محصولها . بل إن التعاون بين الفلاحين امتد حتى شمل الزواج والختان . فالشاب يستطيع أن يختار الفتاة التي تروقه ، وإذا وقع الاتفاق بينه وبين ولي أمرها ، فإن مسألة المهر لا تقف عائقاً في طريقه . فسكان القرية يقومون بجمع المهر وتقديمه لولي أمر العروسة .

إن هذه العلاقات التي تربط بين سكان القرية ، تعتبر امتداداً للحياة الجماعية التي كان يحياها الفلاحون قبل دخول الفرنسيين للجزائر ، وتفتيتهم لهذا النظام الجماعي ، وهذه العلاقات الجماعية هي التي مارست دورها الرئيسي والحاسم في إنجاح ثورة الجزائر . وإلى جانب هذه العلاقات الاجتماعية ـ وجدت بعض الخصال الأخرى ـ المتممة لها والناتجة عنها ـ في نفسية الفلاح ، ساعدت على إنجاحه للثورة . وأهم هذه الخصال (الثقة بالنفس) . فالمعروف عن الفلاحين في كل أنحاء العالم أنهم مصابون بعقدة (الشعور بالنقص) إزاء ابن المدينة ، ينظرون إليه نظرتهم إلى إنسان حصل على مميزات لم تتوافر لهم فرصة الحصول عليها ، كالثقافة والمدنية والثروة المستقرة . إلّا أن الفلاحين بالجزائر شذّوا عن هذه القاعدة ، فهم يحتقرون ساكن المدينة ، ويسمونه (البلدي) .

ومضمون كلمة (البلدي) في ذهن الفلاح هو خليط من الميوعة والبخل والانحلال وضعف الشخصية . لقد كان الفلاحون يحبون الاستماع إلى كلمة (الاستقلال) من هؤلاء (البلديين) . ولكنهم كانوا في الوقت ذاته يسخرون من وسائلهم للحصول على هذا الاستقلال ، ويؤمنون إيماناً راسخاً بأن الاستقلال يأتي على أيدي الفلاحين . والفلاحون وحدهم هم الذين يملكون الوسائل التي تمكنهم من طرد فرنسا وجيشها وشرطتها ـ بوليسها ـ من الجزائر .

كنت ـ قبل الثورة ـ أوزع في إحدى الجولات الانتخابية على الفلاحين ، نشرات الدعاية لمرشح وطني ، وكنت ألاقي من الفلاحين ـ في معظم الأحيان ـ سخرية من الانتخابات ، واحتقاراً للأحزاب التي شاركت فيها . إلّا أنني لن أنسى أبداً حادثة وقعت لي مع فلاح عجوز : « **ناولته الورقة ، وشرحت له كيف يضع هذه الورقة في الظرف ثم يلقيها في صندوق الاقتراع . ثم ألقيت عليه خطبة حول إخلاص المرشح ووطنيته ، وكيف سلخ سنوات من عمره في السجن ، وعن مواهبه الخارقة وجدارته في تحقيق الاستقلال بسرعة** » . واستمع إليّ الفلاح العجوز في هدوء . لم تتحرك أثناءه عضلة واحدة من عضلات تقاسيم وجهه . ثم رفع إليّ عينيه الخضراوين ، وقال وهو يضع التبغ في الورقة التي أعطيتها له قبل قليل ، ويلفها ، ويقول : « **إن هذه الورقة لا تصلح إلا للف الشعرة ـ التبغ ـ** » وأردت أن أثور في وجه هذا الفلاح الذي أهان مرشحي البطل . . لكن الفلاح العجوز أوقفني بإشارة من يده ، وقال وهو ينفخ أول خيط دخان من فمه ، ويتابعه بنظراته ، ويشير إليّ بسبابته الخشنة : « **إن كل مجهوداتكم هذه تتلاشى مع خيوط هذا الدخان الأزرق في الفضاء الواسع . . إذا أردت الاستقلال ،**

فأعطني بندقية ، وأنا كفيل بأن أحضر لك هذا الاستقلال ، وأطرد الفرنسيين من الوطن » . ثم انطلق الفلاح العجوز وتركني جامداً في مكاني أتابع ببصري خيوط الدخان المتلاشي في الفضاء الواسع ، وأضغط على رزمة المنشورات في يدي بعصبية .

إن شهامة الفلاح جعلته ينظر إلى فشل أول جولة في الانتخابات ، كصفعة وجهها إليه ساكن المدينة (البلدي) . لقد صدّق أسطورة الانتخابات في أول الأمر . ولكن سرعان ما تركها . واعتبر دعوة ساكن المدينة المستمرة لها سلسلة من العبث غير المجدي والسخرية .

وثارت تونس في سنة ١٩٥٢ ، أي قبل ثورة الجزائر بسنتين ، وتبادرت إلى أسماع الفلاحين حوادثها محاطة بهالة من الأسطورة المحببة لدى الجماهير البسيطة ، فانطلقت أفواج هؤلاء الفلاحين تخترق حدود تونس إلى معاقل جيش التحرير التونسي ، لتحارب جيش الاستعمار . ويكفي أن نعرف أن (الأزهر شريط) أحد أبطال (معارك الجرف) الخالدة ، وقائد منطقة الجبل الأبيض ، كان يحارب في صفوف جيش التحرير التونسي قبل غرة نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ ١٩٥٤ . واعتبر الفلاحون بالجزائر تقاعس شعبهم ، في الوقت الذي تثور فيه تونس ومراكش ـ المغرب ـ لطخة من العار . وكثيراً ما كان الفلاح يصرخ عند سماعه إذاعة (صوت العرب) عن أنباء تونس والمغرب : « ألسنا رجالاً ؟ هل التونسيون والمراكشيون أرجل منا ؟ » .

بدأ شباب جيش التحرير الوطني في الإعداد للثورة ، منذ بداية سنة ١٩٥٤ ، وانطلقوا في عملهم إلى القرى ، فوجدوا الفلاحين يتقدون حماسة للثورة ، ويهتاجون كالبراكين ، ويترقبوا شارة

الانطلاق ليثبتوا للعالم أن الجزائر ستبقى غنية بأبطالها ومجاهديها . وما إن أعلنت ساعة الصفر حتى انطلق هذا الفلاح البسيط يمنح الفعالية والقوة ، لا لثورة الجزائر فحسب ، بل وللثورة العربية في كل بقاع العالم العربي . وراح الفلاح يفتح الجبهات الجديدة ، من غير أن ينتظر تكليفاً أو أمراً من القيادة ، وما هي إلّا شهور قليلة حتى كانت جبال الأوراس والنمامشة وشمال قسنطينة وجرجرة تنطلق بحمم الثورة ممتزجة بألحان الحرية .

ويبقى للفلاح الجزائري الفضل في استمرار الثورة وتجاوزها للصعوبات والعراقيل ، واختراقها للستار الحديدي الذي فرضه الاستعمار على الثورة الجزائرية . فلقد صمد الفلاح لسياسة التجويع والتشريد والإبادة . وكانت الروح التعاونية السائدة بين الفلاحين هي التي كفت جيش التحرير الوطني مؤونة البحث عن الملجأ والطعام واللباس . ولم يكن غريباً أن تتعرض المناطق لنقص في التموين والمواد الغذائية ، حيث كانت المناطق التي تجتاحها القوات الفرنسية تستيقظ فجأة فتجد أن ما تمتلكه من المواد الغذائية قد نفذ في لحظة واحدة . وهنا كان يسرع الأغنياء ، ومن تمكنوا من الحفاظ على احتياطي من الحبوب أو النقود ، لتقديم العون ، فيتقاسمون مع بقية سكان القرية لقمة العيش ، إلى أن طلع عليهم يوم ، وأكياس سكان القرية ، كل قرية ، غنيهم وفقيرهم ، ملاكهم ومعدمهم ، وهي خالية من الزاد ، فارغة من التموين .

كان الفلاحون ، في الوقت الذي يشاهدون فيه فلذات أكبادهم يَتَضورون جوعاً ، يرسلون الوفود إلى قادة جيش التحرير ، ليقولوا لهم بالحرف الواحد : « **إياكم أن تتوهموا ضعف معنوياتنا فتراودكم نفوسكم على التنازل ، استمروا في الكفاح ، اثبتوا على الاستقلال**

الكامل . والله معنا » .

حكى أحد الزعماء الجزائريين القصة التالية : « قابلت مرة أحد الفلاحين ، وشكا لي حاله ، وكيف قتل الفرنسيون كل أبنائه ، ودمعت عيناه . فسألته رأيه في الاستقلال الداخلي . فأجابني والدموع تنهمر من عينيه : إن الدموع لا تجففها سوى راية الاستقلال التام » .

لقد أدى شعب الجزائر واجبه كاملاً في ثورة العرب المسلمين بالجزائر . وأبيد منه أكثر من مليون مواطن ، ودمرت قراه ، وأتلفت ثرواته ، واعتدي على شرف بناته ، ومُثّل به أشنع تمثيل ، وعلى الرغم من ذلك كله ، فإنه لم يضعف ، ولم يهن ، ولم يتراجع ، حتى حقق هدفه (في الاستقلال) .

* * *

يبقى هناك تعليق لا بد منه ، إن الفلاح الجزائري ، مثله كمثل كل فلاح في الوطن العربي ـ الإسلامي ، يمثل أصالة الإنسان العربي المسلم . فالفلاح ، بطبيعته المحافظة ، وبفضائله التي يمتلكها (كالشرف والإخلاص وصفاء النفس والوفاء) علاوة على ما سبقت الإشارة إليه من فضائل معروفة (الإباء والنزوع إلى الحرية والأخذ بالثأر ورفض الذل والخضوع إلاّ لله وحده) ،كل ذلك مما أسهم في حفاظ الفلاح على أصالته . ولم يكن من الغريب أن تحتفظ (قسنطينة ـ قاعدة ابن باديس) و (الأغواط) في قلب الصحراء وعلى تخومها ، ومناطق القبائل الكبرى ، بكل أصالة الإنسان المسلم . وهي الأصالة التي أعطت للثورة زخمها واندفاعتها رغم كل المحاولات لتشويه هذه الحقيقة والتنكر لها .

لقد استطاع الفلاح الجزائري الصمود في وجه التحديات الثقيلة بفضل تمسكه بفضائله الإسلامية ، وهي الفضائل التي يحتل (حب الأرض) والدفاع عن (بلاد المسلمين) في طليعتها ، وبغير ذلك ، لا يمكن فهم اندفاع الفلاح الجزائري لمساندة أخيه المجاهد في تونس والمغرب ، وبغير ذلك أيضاً ، يصبح من المحال فهم الدعم المتبادل الذي استمر طوال الثورة ما بين الجزائر وجارتيها المغرب وتونس ، والذي بقي الفلاح هو سدى هذا التعاون ولحمته ، وهو العامل الذي سيبقى أبداً وسيلته وغايته .

* * *

١٠ ـ الطفل الجزائري ضحية الاستعمار(*)

تعرض آلاف الأطفال الجزائريين لآلام مدمرة ، من جراء الحرب الاستعمارية القذرة التي فرضتها فرنسا على الجزائر . وكان الطفل أبرأ ضحية أصابتها الوحشية الاستعمارية التي طالما مارسها جيش المجرمين والجلادين الفرنسيين بالجزائر . وكثيراً ما أصبح يتامى هذه الحرب وهم مشردون يجوبون طرقات المدن والقرى الجزائرية على غير هدى . وقد جاء في تقرير نشرته لجنة الدفاع الوطني لمجلس الشيوخ الفرنسي ، تحقيقات عن مآسي مرعبه عاشها هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين فقدوا المأوى والملجأ ، ورأوا بأعينهم آباءهم يعدمون ، فحفرت تلك المناظر المفزعة في مخيلاتهم وقلوبهم ، فهم لن ينسوها أبداً . وقد فرت آلاف عديدة من هؤلاء الأطفال مخترقين الحدود التونسية والمغربية ؛ هاربين من وحشية الاستعمار الفرنسي . فاهتم الاتحاد العام للعمال الجزائريين بمصيرهم ، وأسس دارين بالمغرب تضمان مائتي يتيماً ، ودارين بالمرسى (تونس) تضمان نحواً من مائتين وستين يتيماً . وهو مشروع

(*) المرجع الأساسي لهذه الفقرة : مجلة (الشباب) الجزائرية . العدد الخامس ـ نوفمبر ـ ١٩٥٩ ص ١٠ ـ ١٣ .



جيش التحرير يحارب بيد ويبني بيد اخرى تعليم اللغة العربية لابناء المستقبل

اجتماعي إنساني عظيم استحق التشجيع المعنوي والدعم المادي .
لأن معظم هؤلاء الأطفال هم أبناء الشهداء الأبرار : شهداء الحرية والاستقلال ، وأعمارهم تتراوح بين الرابعة والسابعة عشر . وقد عمل الاتحاد بعد ذلك على إعداد دارين للبنات إحداهما بتونس والأخرى بطنجة . وقامت هذه المدارس بإعداد الأطفال من الناحية التعليمية ، باللغتين العربية والفرنسية ، وفقاً لمنهج التعليم الابتدائي الشامل لجميع المواد : الدين ، والحساب ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والتربية البدنية والرياضية ، والتعليم المهني : البناء والكهرباء والنجارة والدهن والخياطة والفلاحة .

كان الأطفال يمارسون تطبيق هذه المهن في المدرسة ذاتها ، أو في الحديقة الواسعة المحيطة بها ، يشرف عليهم معلمون ومدربون أكفياء . وكان هناك مرشدون ـ موجهون ـ يشرفون على توجيه الأطفال وتدريبهم على الحياة العملية حتى أصبحوا يباشرون بأنفسهم العناية بتنظيف دار ـ المدرسة ـ وحفظ الأثاث والطبخ والتموين ، ويسهر على صحة الأطفال طبيب خاص يساعده ممرض .

وفي ميدان الشباب ، فإن المكتب العام لاتحاد العمال ، عمل على تنظيم جمهرة من الشبان ، ووزعهم بحسب إمكاناتهم ومؤهلاتهم على عدد من العواصم الأوروبية لتكوينهم وإعدادهم إعداداً يلبي احتياجات مرحلة ما بعد الثورة ، مثل العمل في الخطوط الحديدية والبريد والصحة والطيران المدني والسينما ، وتدريب الفتيات على أعمال الخياطة والأعمال الإدارية والكتابة على الآلة الراقنة ـ الكاتبة ـ ونحوها .

وأظهر الاتحاد حرصه الكامل على إعداد نخبة من الشباب للإطارات النقابية إعداداً تتوافر فيه الصفات الفكرية والنضالية

والمعلومات الواسعة عن الحقائق التاريخية والاقتصادية والاجتماعية للوطن الجزائري وللعالم المعاصر . من ذلك أنه أقام ندوة دراسية ثانية بمركز (بئر الباي) من ١٩ تموز ـ يوليو ـ حتى ٢ آب ـ أغسطس ـ ١٩٥٩ حضرها وزير الأخبار للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية .

وكان من أهم موضوعات البرنامج الدراسي لهذه الندوة : « التكوين النقابي الأساسي للنقابات في المغرب العربي ، وتاريخ الحركة العمالية الإفريقية ، والحركة العمالية الفرنسية وكفاح الطبقة العاملة في العالم ، والنظريات الاقتصادية : الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية ، وكذلك أنظمة التأمين الاجتماعي وحالة العامل الزراعي الجزائري ، والتجارب المصرية والصينية واليوغوسلافية للإصلاح الزراعي . وعرضت على المشتركين في الندوة أشرطة سينمائية ثقافية . وبالجملة فإن الاتحاد العام للعمال الجزائريين قد سار من نجاح إلى نجاح بفضل نشاطه لدى المنظمات النقابية في العالم ، والتي أمدته ـ باستمرار ـ بالاعلانات المختلفة لتحقيق مشاريعه الكثيرة ، القريبة منها والبعيدة .



المجاهدون ـ يتعاملون مع العدو

الفصل الثاني

١ ـ أعمال قتالية في الولاية السادسة
٢ ـ معركة في أكفادو . الولاية الثالثة
٣ ـ الحرب في الولاية الثانية
٤ ـ مهمة على موجات الأثير
٥ ـ مهمة في الأغوار
٦ ـ بطل من الأبطال



١ ـ أعمال قتالية في الولاية السادسة

تضمنت الكتيبات السابقة من هذه المجموعة تقارير وجيزة عن مسيرة الأعمال القتالية وتطورها . ولعله من المناسب هنا عرض وجيز يشير إلى تطور الأعمال القتالية في مرحلة متقدمة من الثورة (سنة ١٩٦٠) وفي ولاية من ولايات الكفاح (هي الولاية السادسة ـ أو عمالة الجنوب)[١] . وتجدر الإشارة إلى أن هذا الوجيز يضم بعض ملامح العمليات ـ لا كلها ـ وهي تمثل نموذجاً لتطور الصراع في تلك الحقبة التاريخية :

١٩/ ١٢/ ١٩٥٩ : التحق أربعة جنود جزائريين كانوا مكلفين بحراسة محطة قطار (الجلفة) بجيش التحرير الوطني ، حاملين معهم الأسلحة التالية : بندقية رشاشة **٢٤ ـ ٢٩** ومعها عشرون مخزناً مملوءاً و **٩٥٠** طلقة عيار (**٧,٥**) مم وكذلك (**٧**) مسدسات رشاشة نوع (ماط ـ **٤٩**) و **١٤٠٠** طلقة عيار **٩** مم ، و (**٥**) بنادق (ماص **٥١**) وألبسة وأدوية .

١٨/ ١/ ١٩٦٠ : فر جنديان جزائريان من مركز العدو في

---

(١) المرجع : نشرة (صدى الجبال) العدد الثاني ـ الصادرة عن أركان حرب الولاية السادسة لجيش التحرير الوطني ـ ص ١٢ ـ ١٩ .

(حجر الملح) شمال (الجلفة) وانضما الى جيش التحرير الوطني ، حاملين معهما بندقية (ماص ـ ٤٩) و (كاربين أمريكية) وذخيرتهما .

٢٧/ ٢/ ١٩٦٠ : فر حركي من مركز العدو في (سليم) شرقي (الجلفة) والتحق بجيش التحرير الوطني حاملاً معه بندقية (أخماس ألمان) وذخيرة .

٢٠/ ٣/ ١٩٦٠ : فر جنديان جزائريان من جيش العدو في ناحية (المغير) قرب (تقرت) والتحقا بجيش التحرير الوطني ، وصحبا معهما رشاشتين نوع (ماط ـ ٤٩) .

١٠/ ٤/ ١٩٦٠ : حصل اشتباك عنيف بين وحداتنا وقوات العدو في (جبل أبو كحيل) وقد بوغت العدو ، وداخله الرعب من المجاهدين الذين لم يتمكن من اكتشاف مواقعهم ، فلم يتمكن من القيام بأي رد فعل ، وقد قتل من العدو أكثر من أربعين جندياً ، وجرح عدد كبير ، وأسقطت طائرتان . وفي هذا الاشتباك الذي استمر من الساعة (١٣٤٥) حتى السابعة (١٩٠٠) وبمشاركة قوة هائلة للعدو ، سقط مجاهدان في ميدان العز والشرف وجرح ثلاثة آخرون .

١٧/ ٤/ ١٩٦٠ : نصبت وحدة من الفدائيين كميناً في قلب مدينة (أبو سعادة) قتل أثناءه أربعة من جنود العدو ، وثلاثة ضباط برتبة ملازم (ليوتنان) أحدهم فطلي كان يعمل في الاستنطاق (التحقيق) المدني والعسكري . وثانيهم من المكتب الثاني (الاستخبارات العسكرية) وانسحب المجاهدون سالمين . وفي المدينة ذاتها قام فدائي بإعدام ضابط من ضباط (مكتب الشؤ ون

الأهلية) برتبة نقيب ـ كابتن ـ .

١٨/ ٤/ ١٩٦٠ : هاجمت وحدة من جيشنا عصابة للعدو ـ قتل واحد وأسر واحد ـ وبعد استجوابه تمكنا من غنم (٤٣) بندقية حربية وكمية من الذخيرة .

٢٠/ ٤/ ١٩٦٠ : في (جبل تفارة) شرقي (الجلفة) اشتبك العدو بأربعة من جنودنا كانوا في طريقهم الى مقر قيادتهم حاملين معهم كمية من الأسلحة والذخيرة والأجهزة اللاسلكية . وسقط مجاهد في الميدان ، ونجا اثنان . **أما الرابع ـ وهو المجاهد العيد خير الله ـ فقد انتحر بآخر طلقة كانت معه ، بعد مقاومة بطولية عنيدة ، ذلك أنه كان قد وعد رئيسه ـ مسؤوله ـ بأنه سينتحر إذا رأى أن هذه الغنيمة مهددة . وفي الواقع ، فقد عمل على تخزين هذه الغنيمة هو وأحد الجنديين السالمين ، وبذلك تمكن هذا البطل من انقاذ هذه الغنيمة بفضل تضحيته .**

١٤/ ٥/ ١٩٦٠ : انضم إلينا ستة جنود جزائريين بعد أن فروا من مركز العدو في (ورقة) قرب (منعة) وحملوا معهم (٦ ـ ماص ٤٩) و (١٢٠٠) طلقة عيار ٧,٥ مم وكمية من القنابل اليدوية .

٢٦/ ٥/ ١٩٦٠ : قامت قوة من جيشنا بقذف أكبر مركز للعدو في مدينة (أبو سعادة) بمدفع الهاون ٨١ مم ، فكانت خسائر العدو مؤكدة . وفي اليوم ذاته والمكان ذاته ، نصبت فرقة من الفدائيين كميناً لقافلة معادية وكبدتها خسائر مؤكدة .

٢٩/ ٥/ ١٩٦٠ : رمى فدائي من الأنصار (المسبلين) قنبلة يدوية على صندوق الانتخاب في مركز (عين أغراب) ناحية (أبو سعادة) فقتل جنديان للعدو وإثنان من الخونة . وفي موجة من الرعب

والحقد ، حاول جند العدو قتل عدد من المدنيين الذين أجبروا على الحضور . وآنذاك برز الفدائي عبد القادر عميد بن أحمد بن الحاج من عرش أولاد أفرج، البالغ من العمر ستة عشر عاماً، وصرخ في وجه الأعداء قائلاً : أنا الذي رميت القنبلة . وقد ألقى المستعمرون عليه القبض ، ولكنه أنقذ بشجاعته وتضحيته عدداً من الأبرياء .

١٩٦٠/١٢/٣ : اصطدمت سيارة (ج . م . س .) معادية بلغم على طريق (جبل اقعيقع) قرب (الجلفة) فدمرت السيارة وقتل جميع ركابها .

١٩٦٠/١٢/١٩ : نصب المجاهدون كميناً لقافلة معادية في مدينة (أولاد جلال) فقتل للعدو سبعة جنود .

١٩٦٠/١٢/٢٠ : التحق جندي جزائري بصفوفنا ، بعد أن فر من مركز العدو في (أبو سعادة) وحمل معه بارودة (ماط ـ ٤٩) و (١٩٤) طلقة .

١٩٦٠/١٢/٢٢ : نصبت وحدة من جيشنا كميناً لقافلة معادية في مدينة (أبو سعادة) وقتلت سبعة جنود للعدو .

١٩٦٠/١٢/٢٤ : قام فدائي بإلقاء قنبلة في (بسكرة) فقتل ثلاثة جنود للعدو وجرح ستة .

١٩٦٠/١٢/٢٦ : انفجر لغمان بين (الهامل ـ و ـ أبو سعادة) فدمرا عربة نصف مجنزرة (هاف تراك) و (سيارة ج . م . س) .

١٩٦٠/١٢/٣٠ : نصب المجاهدون كميناً للعدو بين (ولتام ـ وبين اسرور) قرب (أبو سعادة) في الساعة (١٢٠٠) تم نصب كمين ثان في الساعة (١٦٠٠) وتكبد العدو خسائر فادحة

في الكمينين .

٣/ ١/ ١٩٦١ : فر جندي جزائري من مركز العدو في (الجلفة) وانضم إلى صفوفنا حاملاً معه بندقية (قاران) و (٤٨) طلقة .

٧/ ١/ ١٩٦١ : هاجم فوج من المجاهدين قرية (بحبح) قرب (الجلفة) فأسر رقيباً من القوم (سرجان شيف) وغنم المسدس الذي كان يحمله .

١٠/ ١/ ١٩٦١ : أسقطت طائرتان للعدو في جبل (أم ساعد) بينما كانتا تقومان بالإستطلاع .

١٧/ ١/ ١٩٦١ : اصطدمت سيارة عسكرية معادية بلغم على طريق (أبو ملال ـ وادي الشعير) فدمرت السيارة . وخسائر العدو البشرية محققة .

١٩/ ١/ ١٩٦١ : أقام فوج من الفدائيين كميناً لقافلة من اللفيف الأجنبي في مدينة (أبو سعادة) . وأوقعوا بها خسائر فادحة . وأثناء انسحاب الفدائيين ، اصطدموا بدورية معادية أخرى ، فتبادلوا معها إطلاق النار ، وقتلوا ضابطاً برتبة نقيب .

١/ ٢/ ١٩٦١ : خاضت وحدات من جيشنا معركة عنيفة ضد قوات العدو في (جبل أبو كحيل) واستمر الاشتباك من الساعة (١٢٠٠) حتى الساعة (٣٠٠) من فجر اليوم التالي . وقتل للعدو مائة وعشرة جنود ، وجرح عدد كبير آخر . وغنمنا بارودتين (ماص ـ ٤٩) و ٣ مخازن رشيشات (٢٤ ـ ٢٩) معبأة و ٨٠٠ طلقة ومنظارين . وكان بين قتلى العدو ضابط من القناصة (ليوتنان

شاسوري) غنمت كل وثائقه مع أعتدة كثيرة ، علاوة على ما أحرق منها .

١٢/ ٢/ ١٩٦١ : قتل الفدائيون اثنين من جند العدو في (أبو سعادة) وغنموا سلاحهما (بارودتين ماط ٤٩) .

٢٢/ ٢/ ١٩٦١ : هاجم فوج من المجاهدين قرية (زنينة) قرب (الجلف) فقتلوا سبعة من قوات (القوم) وجرحوا خمسة منهم وأسروا واحداً وغنموا ثمانية بواريد (ماص ٥١) و ٨٥ طلقة . ولم تقع إصابة في قواتنا .

٢٨/ ٢/ ١٩٦١ : هاجم المجاهدون قوة من (القوم) فقتلوا ثلاثة منهم ، وغنموا ثلاثة بنادق (موسكيتو) وذلك بين (وارو) و (الجلفة) .

١٨/ ٣/ ١٩٦١ : اشتبك أربعة من مجاهدينا مع وحدة للعدو في (جبل أبو كحيل) فقتل جنودنا عدداً من أفراد العدو ، وأصابوا عدداً آخر بجراح ، وأسقطوا طائرة استطلاع وقتلوا ملاحيها الأربعة ، واستشهد لنا مجاهدان .

٢٢/ ٣/ ١٩٦١ : قام جيش الاحتلال بتطويق خمسة من مجاهدينا في (جبل أحمر خدو) بناحية (أمشونش) واستمر الاشتباك خمس ساعات تكبد العدو خلاله عدداً من الخسائر في الأرواح بين قتيل وجريح . أما من جانبنا فقد استشهد ثلاثة من المجاهدين ، ونجا واحد ، أما الخامس وهو البطل ـ سي علي قاله ـ مسؤول مكتب المنطقة الرابعة فقد انتحر بعد أن أيقن أنه سيصير في قبضة العدو ، وذلك محافظة على الأسرار .

١٠/ ٤/ ١٩٦١ : قامت وحدة من جيشنا بنصب كمين بنواحي (وادي الشعير) ثم شنت هجوماً على مركز للعدو في (أبو ملال) ناحية (أبو سعادة) وقتل للعدو ثلاثة جنود ، وجرح أربعة .

١٨/ ٤/ ١٩٦١ : نصب الفدائيون كميناً لثلاث سيارات عسكرية في (أبو سعادة) فقتلوا خمسة من جند العدو ، وأصابوا أربعة منهم بجراح مختلفة .

١٣/ ٥/ ١٩٦١ : انفجر لغم تحت سيارة للعدو نموذج (ج . م . س) بين (سليم) و (عين مجدل) قرب (الجلفة) وتحطمت السيارة وقتل عدد من ركابها .

١٩/ ٥/ ١٩٦١ : خاضت قواتنا معركة عنيفة ضد قوات الاحتلال في (جبل أبو كحيل) . وقد بدأت المعركة في الساعة (٨٣٠) صباحاً واستمرت حتى الساعة (٢٤٠٠) في منتصف الليل . واشتركت فيها (٤٥) طائرة ومئات الدبابات والسيارات المختلفة ، وقتل للعدو ثمانين جندياً وجرح عدد آخر . وغنمت وحداتنا جهازاً لاسلكياً صغيراً وبارودة (ماص ٥٦) و (ماط ـ ٤٩) ومسدساً آلياً ـ أوتوماتيكياً . وكمية من الأدوية والأعتدة التي فر الجنود الأعداء وتركوها فوق أرض المعركة ، وأُخرق للعدو جهاز لاسلكي آخر . واستشهد عدد من مجاهدينا . وانضم لقواتنا في شهر نيسان ـ ابريل ـ ١٩٦١ ثلاثة جنود جزائريين من صفوف العدو ، أحدهم من مركز (أبو سعادة) والآخران من مركز في مدينة (بسكرة) وحملوا معهم من الأسلحة : (ماط ٤٩) و (ا ـ ب . ٣٨) و (٣ ماص ٥٦) ومسدساً أوتوماتيكياً .

٢٤/ ٥/ ١٩٦١ : ألقيت قنبلة يدوية في مقهى أوروبي في مدينة

(ورقلة) وقتل رجل وجرح ثلاثة عشر آخرين .

٢٧/ ٥/ ١٩٦١ : ألقيت قنبلة يدوية على مركز للعدو في (ورقلة) فقتل ثلاثة جنود للعدو وجرح (٢٥) جندياً .

٢٧/ ٥/ ١٩٦١ : انفجر لغم قرب (ابن سرور) شرقي (أبو سعادة) فتحطمت سيارة عسكرية للعدو .

٢٩/ ٥/ ١٩٦١ : أقامت وحدة من مقاتلينا كميناً لقافلة من قوات العدو على الطريق بين (عين الملح) و (وادي الشعير) فقتلت خمسة من جنود العدو وأصابت ثلاثة منهم بجراح .

٣٠/ ٥/ ١٩٦١ : نصب فدائيونا كميناً للعدو في قلب مدينة (أبو سعادة) وقتلوا أربعة وجرحوا أربعة من جند العدو .

٣/ ٦/ ١٩٦١ : سقطت سيارتان للعدو في خندقين كان قد أعدهما المجاهدون ، ودمرت السيارتان ، وقتل وجرح عدد من ركابهما وذلك في جبل (أم ساعد) . وفي الوقت ذاته ، إشتبكت دورية من جنودنا مع قوات العدو ، ولم تضبط خسائر العدو . واستشهد أربعة من مجاهدينا .

١٠/ ٦/ ١٩٦١ : اشتبك مجاهدونا مع العدو على بعد عشرة كيلومترات شمال (المغير) ناحية (تقرت) واستمر الاشتباك أربعة ساعات ونصف . وخسر العدو (٣٥) قتيلاً ، وجرح من جنوده (١٨) جندياً . واستشهد من جانبنا ثلاثة مجاهدين من بينهم اثنان من رجال الدرك ، ووقع في أسر العدو اثنان آخران من الدرك .

١٨/ ٧/ ١٩٦١ : انضم إلى صفوفنا ثلاثة جنود جزائريين ، كانوا في مركز العدو (بحد الصحارى) قرب (الجلفة) وحملوا

معهم أربعة أسرى من العدو ، ورشيشاً (٢٤ ـ ٢٩) وبارودة (ماص ٥٦) وبارودة (ماص ٤٩) وبارودة (ماص ٣٦) وبارودتي (ماط ٤٩) وكمية من الذخائر .

١٩/ ٧/ ١٩٦١ : وقع اشتباك بين المجاهدين وقوات العدو في (العطف) قرب (غرداية) في الصحراء المجاهدة وتكبد العدو خسائر فادحة ، لم نتمكن من ضبطها ، واستشهد عدد من المجاهدين .

١٢/ ٨/ ١٩٦١ : انضم إلى صفوفنا ثلاثة من الجنود الجزائريين الذين جندهم العدو ، من مركز (مسعد) وحملوا معهم ثلاثة بواريد (ألمانية) و ٣ بواريد (ماط ٤٩) وألف طلقة ووثائق هامة وألبسة .

* * *

إن استعراض الوجيز السابق يظهر مجموعة من الحقائق التي التصقت باستراتيجية الثورة الجزائرية ، ولازمتها خلال مراحلها المختلفة وأهمها :

١ً ـ استنزاف قدرة العدو الاستعماري بصورة مستمرة ، وتدميره مادياً ومعنوياً عن طريق مجموعة كبيرة من العمليات الصغرى . ووضع قواته مستنفرة تحت ضغط الخوف من الضربة المباغتة .

٢ً ـ تجنب الالتحام مع العدو ، قدر المستطاع ، بعمليات كبرى ، وعدم تمكينه من استثمار تفوقه الساحق بالقوى والوسائط من أجل سحق قوات الثورة وتدميرها .

٣ً ـ استثمار عاملي (الطبيعة الجغرافية) و (التكوين السكاني) لمعادلة التفوق الذي كان يمتلكه العدو الفرنسي بالقوى والوسائط .

٤ً ـ الاستمرار في عزل العدو عن السكان (المسلمين) الأمر الذي يظهر واضحاً من خلال التركيز على ضرب القوات التي استطاع العدو تجنيدها في صفوفه من الجزائريين (جماعات القوم والحركة) وإقناع هذه القوات في الوقت ذاته بالانضمام الى ثورة الشعب الجزائري .

٥ً ـ التزود بالسلاح والتموين على حساب العدو ـ الغنائم ـ

٦ً ـ حماية قوات الثورة بمجموعة من التدابير الأمنية ـ الاستطلاع والجاسوسية ـ وبتجنب الاشتباك في الوقت ذاته مع قوات متفوقة للعدو .

٢ ـ معركة في أكفادو الولاية الثالثة(*)

تقرر عقد مؤتمر للقادة في غابة أكفادو يوم ٢٥ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٩٥٨ ليضم (العقيد سي عميروش) والمقدم (فاضل حميمي) و (سي الحسين) قائد المنطقة الأولى (القبائل الكبرى) والنقيب (سي مهند السيد) والملازم (سي عبد الحفيظ) الخ . . وغيرهم من قادة الولاية الثالثة . وقد وصل هؤلاء المسؤولين في عشية اليوم المقرر للاجتماع .

ما إن ظهرت شمس هذا اليوم على الأفق ، في الصباح ، حتى أخذت طائرة استطلاع في التحليق فوق الغابة ، وتبعتها طائرة ثانية ، فثالثة ، وكانت كلها تحلق جيئة وذهاباً فوق غابة أكفادو والدواوير المحيطة بها مثل : (طفرا) و (عيط منصور) و (بني أوغليس) . وكان أحد الأفواج بقيادة (سي عميرا) قد اصطدم منذ الصباح المبكر بعناصر من القوات الفرنسية . ووصلت أسماعنا بضعة رشات من نيران المسدسات الرشاشة ، فأصدر (سي عميروش) أوامره ، وانتشرت السرايا في الغابة على شكل مجموعات صغرى لاحتلال

(*) RÉCITS DE FEU (S.N. EL MOUDJAHED) ALGER 1977. P.P. 115-118 PAR. El-HaDi OUGUERGOUZ.

كافة النقاط الاستراتيجية . ونشر الفرنسيون كافة قواتهم ، غير أنهم عجزوا عن اختراق غابة (أكفادو) .

كان القتال قد أصبح محتدماً في (طفرا) . فتوجهت سرية على الفور إلى أماكن الاشتباك بهدف تحرير إحدى سرايانا التي وجدت نفسها مطوقة ، ومحاصرة ، في قرية مجاورة . وكانت هذه السرية تضم الملازم (طاهر عميروش) أمين سر الولاية الثالثة والملقب (بالشوارب) وكذلك المقدم (حمامي ـ أوحميمي)الذي جاء عوضاً عن (عزرور تاغات) . وكانت القمة العليا في الإقليم تهيمن على (وادي الصومام) وتهيمن على كافة تحركات قوات العدو . وكانت الطائرات القاذفة تمزق حجب السماء ، وهي تقذف (النابالم) في كل مكان . وكان لا بد من إخلاء غابة (أكفادو) في الليل ، إذ أن المعلومات المتوافرة والتي أمكن الحصول عليها في النهار ، قد أكدت أن العدو يتابع دعم قواته وتعزيز مواقعه ، حيث استمرت القوات الفرنسية في التدفق على (أديكار) و (تاوريرت ـ إيغيل) و (أسيف الحمام) و (عيط إيدجر) إلخ . .

وهكذا ، فما إن هبط الليل ، حتى تجمع جنودنا ، وانتظموا في رتل أحادي ، مع ترك مسافة كافية ما بين الجندي والجندي الذي يليه ، وأخلينا الغابة ، وأخذنا في اختراق مواقع العدو ، ونحن متجهين إلى (بورت غويدون) . غير أننا لم نكد نسير مسافة كيلومترين فقط داخل الغابة ، حتى انطلقت أصوات رشتين من مسدس رشاش ، وسقط الثلاثة جنود الذين كانوا يسيرون في المقدمة وهم يزمجرون لما أصابهم من جراح . وأصيب آخرون بجراح غير قاتلة ، غير أنهم باتوا عاجزين عن التقدم بسرعة . واستمر جند الأعداء الفرنسيين في إطلاق نيران مسدساتهم الرشاشة ، فكانت

رصاصاتهم تضيء كالشرر وسط ظلمة الغابة . واستخدم المجاهدون الأربطة الفردية لتضميد جراحهم وإيقاف نزفها . وتقدم المجاهدون لمساعدة إخوانهم الجرحى ، فحملوهم إلى مكان مأمون ، وتركوا معهم ممرضاً للعناية بهم في ملجئهم ، وأقام هؤلاء الجرحى ثلاثة أيام بلياليها في هذا الملجأ وهم محرومين تقريباً من الطعام والماء ، حتى إذا ما جاء اليوم الرابع ، وهو يوم ٢٨ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ انتهى الفرنسيون من عملية (المسح) أو (التمشيط) وكان من حسن حظ الجرحى أن العدو لم يتمكن من اكتشاف ملجئهم . وعاد المجاهدون فحملوا إخوانهم الجرحى إلى مركز قيادة الولاية الثالثة ، حيث تجمع ستون من الجرحى تقريباً ، وفي الليل نقل هؤلاء جميعاً إلى مناطق مأمونة جداً ، بهدف تقديم العناية الطبية اللازمة لهم ، حتى تندمل جراحهم ، ويستعيدوا قوتهم ويستأنفوا جهادهم .

بدأت عملية نقل رتل الجرحى في الليل ، غير أن هذا الرتل لما يبلغ الطريق العام حتى أنذره المراقبون ورجال الاستطلاع عن وجود كمين أقامه الفرنسيون . وبات لزاماً إعادة هؤلاء الجرحى إلى القاعدة التي انطلقوا بهم منها . واستؤنفت محاولة الابتعاد بالجرحى في الليلة التالية ، حيث استمر المسير لمدة ست ساعات أمكن الوصول في نهايتها إلى قرية تقع بعد (أسيف الحمام) . وأمضى الجرحى الستون يوماً في هذه القرية ، أشرف خلاله الطبيب (سي أحمد بن عبيد) على العناية بأمر الجرحى ومعالجتهم .

وصلت معلومات إلى القرية في الساعة الثانية من فجر اليوم التالي ، تؤكد أن القوات الفرنسيه في المنطقة قد تلقت المزيد من الدعم . وأنها في سبيلها لإجراء عملية مسح (تمشيط) ثانية . وهذا يعني بأن العدو قد اكتشف بأن جميع الإخوة المجاهدين قد انسحبوا

إلى هذه المنطقة وتجمعوا فيها . وصدر الأمر الإنذاري عن قيادة المجاهدين بالاستعداد لاستئناف التحرك . وعمل المجاهدون قبل كل شيء على إخلاء الجرحى ونقلهم إلى ملاجىء في الغابة . وقد تمت هذه العملية بينما كانت الطائرات العمودية (الهيليكوبتر) تحلق فوق الغابة ، الأمر الذي أرغم الجنود في مرات عديدة ، على وضع الجرحى أرضاً ، فوق الدرب الضيق الذي يسير على حافة جرف سحيق ، من أجل تجنب المراقبة الجوية . وهكذا إلى أن تم نقل الجرحى ، في حين كانت قوات الاستعماريين تضرب في السهول وتكنس المنطقة كنساً طوال ثلاثة أيام ، انتهت بعدها (عملية المسح ـ التمشيط) . وانسحب الجنود الأعداء مرة أخرى ، ولم يعثروا على أحد من الجرحى أو المجاهدين .

تطلبت العناية بالجرحى ، وخاصة المصابين بالكسور منهم ، إعادتهم إلى الطبيب المختص بالعظام (الطبيب سي أحمد بن عبيد) وذلك في اليوم الثاني مباشرة . ثم جرى بعد ذلك نقل الجرحى إلى ملجأ أمين جداً في قاع أحد الأودية ، وكان يعمل فيه الطبيب (سي طيب) الاختصاصي بالعظام وقد أمضى بعض الجرحى في هذا الملجأ مدة ثلاثة أشهر (من شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ **١٩٥٨** وحتى كانون الثاني ـ يناير ـ **١٩٥٩**) . استرد خلالها المصابون والجرحى قوتهم والتحق الذين برئوا منهم من جراحهم بمركز قيادة الولاية الثالثة في إقليم (بو نمال) من (أسيف الحمام) . وبعد شهرين من ذلك استشهد قائد الولاية (سي عميروش) أثناء توجهه إلى (تونس) (وكان ذلك في آذار ـ مارس ـ **١٩٥٩**) حيث لقي البطل مصرعه مع بعض المجاهدين في إقليم (بوسعده) . وظنت القيادة الاستعمارية أن باستطاعتها استثمار هذا النصر للقضاء على

الثورة في الولاية الثالثة ، فشجعت جنودها للقيام بحملة واسعة النطاق ، وزجت قواتها فيها مع بداية شهر تموز- يوليو- **١٩٥٩** . حيث أرسلت بعض طائرات الاستطلاع لاكتشاف مواقع الثوار في غابة (أكفادوا) . وما هي إلاّ نصف ساعة حتى وصلت الطائرات القاذفة ، وجاءت على أثر ذلك ثلاث طائرات قامت بإنزال المظليين في منطقة جرداء داخل غابة (أكفادو) فوق قرية (بني أوغليس) . وما إن وصل المظليون الأرض حتى استقبلهم سيل من النيران أحاط بهم من كل جانب . وابتعدت طائرات المظليين لتفسح المجال أمام الطائرات القاذفة التي جاءت لتحرث الأرض بنيرانها . وتفرق المجاهدون بسرعة بعد أن دمروا قوة العدو .

مضى شهر تموز- يوليو- **١٩٥٩** والمجاهدون يشتبكون مع قوات العدو في كل مكان ، في الجبال والسهول ، في القرى والأودية . لقد عملت قوات الاستعماريين على فرض حصار محكم حول الولاية الثالثة بكاملها . وكان المجاهدون بالمقابل يسيطرون سيطرة تامة على كافة النقاط الاستراتيجية . وتلقى المجاهدون أمراً من القيادة العليا : الانتقال إلى (وادي الصومام) والتمركز على مقربة من الطريق العام والمواقع الحصينة المتاخمة له . وتم تنفيذ هذا الأمر على الفور . وبذلك بقي الجنود الفرنسيون في الجبل ، واستقر المجاهدون في الوادي .

ما إن مضت أيام قليلة على التمركز الجديد حتى أصدرت القيادة العليا أوامر جديدة طلبت فيها إلى المجاهدين التفرق بمجموعات صغرى وتجنب أي اشتباك مع قوات العدو التي باتت تحتل كل الجبال ، وتنتشر في كل القرى ، وهي تنشر الرعب والدمار في أوساط المدنيين العزل من السلاح ، والمجردين من كل وسائل المقاومة .

أحد ضحايا النابالم المدنيين

ومضت صحافة العدو وهي تعلن في كل يوم أنه قد تم قتل (كذا) من الثوار ، وأسر عدد (كذا) منهم ، وأنه قد تم تطهير الجبال من المقاومة . وقد عانى المجاهدون خلال هذه الفترة كل أنواع المشاق ، وتعرضوا لكل أشكال المصاعب ، حتى أن بعضهم اضطر لأكل الضفادع التي كان يصطادها من الأنهار (ومنهم على سبيل المثال المعروف بلقب ـ باش آغا ـ واسمه سي العرب من توجا ـ ظهرة بجاية) . وفقد المجاهدون كل ما كانوا يختزنونه من المواد التموينية ، واستنزفت قدرتهم .

وأخيراً ، وصلتهم أوامر القيادة بالتوجه إلى قرى معينة لتأمين إمداداتهم وموادهم التموينية . وكان لا بد من تنفيذ هذه المهمة مع غروب الشمس . وقد قامت إحدى الزمر بالتوجه إلى قرية في دوار (غيط منصو) في سفح (جبل أكفادو) . وتوجهت إلى منزل اتخذته ملجأ لها ، وأرسلت أحد أفرادها (علي مزعورة) للاتصال برئيس القرية ، ووضع آخر للحراسة والمراقبة . وما هي إلاّ لحظات حتى دخل المراقب (الحارس) وقال لأفراد الزمرة بأن أخوهم (علي مزعورة) قد وقع أسيراً في قبضة الجنود الفرنسيين ، وأن عليهم مغادرة المنزل فوراً ، إذ أن القوات الفرنسية لا تبعد عن الملجأ بأكثر من عشرين حتى ثلاثين متراً . وما إن غادر أفراد الزمرة القرية ، حتى انطلق شهاب في اتجاههم أضاء السماء فوقهم ، وتبعته شهب أخرى . وتبع ذلك أيضاً إطلاق النار من رشيش (**٢٤ ـ ٢٩**) . ولم يخرج المجاهدون من مهمتهم بنتيجة تزيد على فقدهم لأخيهم (علي مزعورة) الذي أخذه الفرنسيون للتحقيق معه ، حيث تعرض لشتى أنواع التعذيب طوال أسبوع كامل . حملوه بعده إلى غابة (أكفادو) وقتلوه بواسطة قنبلة يدوية .

ظنت القوات الفرنسية أنها أنجزت مهمتها ، وقضت على الثوار في الولاية الثالثة ، وأخذت في الانسحاب منها مع نهاية شهر تموز ـ يوليو ـ ١٩٥٩ . وأصدرت القيادة في جيش التحرير أوامرها إلى المجاهدين بالعودة إلى نصب الكمائن . فتمركز فوج بين (أقبو) و (بجاية) غير بعيد عن الطريق العام ، وفي ضواحي (أغز ـ أمقران) . ووصلت قافلة فرنسية إلى موقع الكمين ، فغمرتها نيران المجاهدين ، وقتل عدد كبير من الجنود الفرنسيين ، وجرح آخرون . واستشهد مجاهدان على أرض ساحة الشرف ـ واستمر الصراع . وعرف العدو والصديق أن الولاية الثالثة ما زالت ثائرة ، وأن عمليات (التمشيط والتطهير) لم تنل من صمودها .

٣ ـ الحرب في الولاية الثالثة(*)

لا تمثل هذه الفقرة تقريراً رسمياً عن الحرب في الولاية الثانية ، وإنما هي مجرد عرض لمجموعة من الأحداث اشترك فيها أحد قدامى مجاهدي جيش التحرير الوطني (واسمه إبراهيم بربيج) . غير أنها كافية لإعطاء فكرة واضحة عن طبيعة الحرب في هذه الولاية من (ولايات الكفاح) . وقد ذكر المجاهد : إبراهيم بربيج قصة علاقته بالثورة فقال :

تعود علاقتي بجيش التحرير الوطني الجزائري ، إلى تطوعي في الناحية الأولى من المنطقة الثالثة في الولاية الثانية . يوم (١٠ أيار ـ مايو ـ **١٩٥٥**) . وجاء يوم الخميس ، الأول من رمضان ـ سنة **١٩٥٦** ـ حيث وجدنا أنفسنا في دوار (ولد جمعة) ناحية (كولو) فتناولنا طعام السحور ، وكان عدد مجاهدينا في هذه الناحية يناهز الأربعين مجاهداً يتولى قيادتهم الأخ (رباح اليوسف) من مواليد (ود زيناتي) . وقررنا في الساعة التاسعة من صباح هذا اليوم (الخميس) أن ننتقل إلى دوار (سيدي عاشور) في ناحية (كولو)

(*) RÉF: RÉCITS DE FEU (SNED.S.N.EL MOUDJAHED) ALGER 1977.P.P. 160- 169. PAR. BRAHIM BERBEDJ.

ذاتها . وشرعنا بالمسير على الفور ، حتى وصلنا حدود قريتين تحملان اسمي (التاراس ـ و ـ أنمعة) . وأردنا اجتياز الطريق . وعندئذ وصلنا ضجيج صاخب ، فعرفنا فيه ضجيج العدو وصخبه ، فتوقفنا على الفور ، وأخذنا في نصب كمين . وما هي إلاّ فترة وجيزة حتى وصلت ثلاث عربات من عربات نقل الجند (كميونات) وانطلقت نيران الأسلحة طوال عشر دقائق تمت خلالها إبادة القوة الفرنسية إبادة كاملة . وقام المجاهدون بجمع الغنائم التي ضمت أربعة أسلحة أمريكية آلية (أوتوماتيكية) وجهازاً لاسلكياً . بالإضافة إلى أسر جندي فرنسي ، كما حصل المجاهدون على كميات من الأعتدة التي كانت محمولة في عربات النقل . ورجع المجاهدون سالمين غانمين ولما يصب أحد منهم بأذى .

وكان فرح المجاهدين كبيراً لنجاحهم في تنفيذ مهمة لم يسبقها أي إعداد أو تحضير ، وإنما كانت عملية ساقتها إليهم الصدفة فقط . وما إن ابتعد مجاهدونا عن موقع الكمين حتى ظهرت الطائرات القاذفة ، وأخذت في التحليق فوق المنطقة ، وتوزيع قنابلها هنا وهناك على غير هدى ، ودونما هدف محدد . أما بالنسبة للأسير الذي تم أخذه ، فقد اقتيد إلى حد (بني تليلان) ، حيث كان يعقد في هذه اللحظة بالذات مؤتمر على مستوى الولاية ، في مكان يحمل اسم (مزرعة بو الأقمار) من ناحية (المليا) فسلمنا الأسير إلى المسؤولين الذين قرروا إطلاق سراحه ، حتى يعود إلى وطنه (فرنسا) . وحتى يؤكد لمواطنيه ما شاهده من تصميم الثوار على متابعة الجهاد واستعدادهم لذلك .

توافرت لنا فرصة في نهاية شهر تموز ـ يوليو ـ وبداية شهر آب ـ أغسطس ـ ١٩٥٦ لعقد اجتماع على مستوى الولاية الثانية ، وتم عقد

هذا الاجتماع في (دوار زبابرة) من مشتى (شكايل) . وتقرر في هذا الاجتماع اختيار قطاع من القطاعات للقيام بعملية . وأسندت مهمة الاختيار للأخ المجاهد (حسين بوحاج) من (كولو) . وعلى هذا الأساس ، توجه المجاهدون إلى (الزيتونة) بهدف نصب كمين للعدو على الطريق ما بين (الزيتونة) و (الشريعة) . وقد عرف المجاهدون بأمر مرور ثلاث عربات نقل للجند إلى (كولو) فقرروا نصب كمين لها على طريق عودتها . غير أنه لم ترجع إلا عربتان من عربات النقل ، أما العربة الثالثة (الكميون) والعربة الخفيفة (الجيب) فقد بقيتا في (كولو) . فقرر أفراد الكمين عدم التعرض لمركبتي النقل (الكميونين) ، وما إن حان موعد الظهيرة ، حتى ظهرت عربة النقل (الكميون) والعربة الخفيفة (الجيب) . وعندما وصلت المركبتان إلى منطقة الكمين ، فتح المجاهدون نيرانهم ، وتمكنت عربة النقل الكبرى من الفرار ، بينما تمكنت نيران قوة الكمين من قتل ثلاثة ركاب كانوا يمتطون العربة وأخذ الرابع أسيراً ، وكان هذا هو قائد القافلة والمسؤول عنها .

غنم المجاهدون بنتيجة هذا الكمين غنيمة هامة شملت كيسين (حقيبتين كبيرتين) تحتويان على وثائق ورسائل وحوالات ، بالإضافة إلى مبلغ نقدي قدره (١١٧) ألف فرنك ـ قديم ـ . واستولى المجاهدون أيضاً على أربعة أسلحة آلية ـ أوتوماتيكية ـ (أمريكية) . وانسحب المجاهدون ومعهم أسيرهم . غير أن الطيران الذي استنفرته القيادة الفرنسية أخذ في مطاردة قوة الكمين ، ولكن من دون جدوى . وظن المجاهدون أن باستطاعتهم الابتعاد عن منطقة العملية ، ولكن العدو قام بإقفال الطريق ، وشرعت (١٧) طائرة قاذفه بإلقاء قنابلها لإعاقة المجاهدين ومنعهم من عبور النهر ،

ولما كان الوادي الكبير في حالة فيضان ، فقد أغرق بعض المجاهدين . وظهر واضحاً أن الاشتباك مع العدو بات أمراً حتمياً لا مفر منه . واستشهد أربعة من المجاهدين ، وتكبد العدو بدوره بعض الخسائر ، غير أن الحظ لم يبتسم للمجاهدين ـ عموماً ـ في هذه العملية .

لم تتمكن قوة المجاهدين من إعادة التجمع إلاّ في (بوزبوغ) حيث انطلقت منها إلى قرية (طاهر) بعد استراحة قصيرة ، وأقامت في (بني حبيب) . وقد أراد المجاهدون نصب كمين جديد في (الشقفة) . غير أن وجود (٩) وحدات من قوى البحرية حمل المجاهدين على تغيير خطتهم ، والعدول عن رغبتهم . وتابع المجاهدون تنقلهم بين مشتى (ولد بوفيحا) ودوار (الولجة ـ كولو) . وكان المجاهدون يجدون لأنفسهم فترة من الراحة عندما يستقرون في (جبال القطة) و (تازروت) . لينتقلوا بعدها إلى (أحجار مفروه) و (دوار زكار) . وكان تكتيك المجاهدين كله قائماً على التحرك الدائم ، وعدم الاستقرار ، لتضليل العدو باستمرار . أثناء إقامة المجاهدين في (دوار زكار) توافرت لهم المعلومات ، عن طريق شبكة استخباراتهم ، بأن قافلة فرنسية من عربات النقل ، قد خرجت من قرية (عين كشرة) متجهة نحو (كولو) أو (سكيكدة) بهدف نقل مواد تموينية وإمدادات على ما يعتقد . فقام المجاهدون بنصب كمين في (دوار زكار) واستخدموا أغصان الأشجار للتمويه ، وساروا مسافة تسعة كيلومترات حتى وصلوا الموقع الذي تم اختياره للكمين فيما بين (عين قشرة) و (دراع الأشهب) . وفي الساعة (١٦٤٠) ظهرت القافلة الفرنسية وهي في طريق عودتها . وكان عددها (٣١) عربة نقل ـ كميون ـ بالإضافة إلى عشرة عربات كانت

تحمل مواطنين جزائريين . وما إن وصلت القافلة إلى موقع الكمين حتى غمرتها نيران المجاهدين ، ولم يكن من الغريب على هؤلاء المجاهدين تدمير عربات القافلة كلها في دقائق قليلة ، ولم تتمكن من النجاة إلاّ العربة الخفيفة (الجيب) والمدرعة التي كانت ترافق القافلة للحراسة . وحصل المجاهدون على غنيمة كبيرة شملت (٢٢) مسدساً و (٧) أجهزة لاسلكية ، ومواد تموينية منها كميات من السكاكر والشوكولا . وعلى الأثر ظهرت ثمان طائرات قاذفة ، لم تتأخر عن إلقاء حممها لتدمير المنازل المحيطة بالمنطقة وإحراق الغابات . وخشي المجاهدون من مطاردة العدو لهم ، فتفرقوا على الفور ، وتوجهت كل كتيبة إلى الإقليم الذي جاءت منه .

زج العدو بثقل قواته لمطاردة المجاهدين ، فحشد (٤٥) ألف جندي لتطويقهم ، مع ما توافر لهؤلاء الجنود من دعم هائل كالطيران والمدرعات والمدفعية ، غير أن العدو لم ينجح في الانتقام لقتلاه ، فتوجه بانتقامه إلى المدنيين، ولم يكفه ذلك فأخذ في إحراق الغابات ، وتدمير المنازل والبيوت وقتل الحيوانات (البهائم) وإتلاف الحدائق والممتلكات . واستمر ذلك طوال خمسة عشر يوماً . وكان انتقام العدو من المواطنين ، ثقيلاً ، ومرهقاً . برهن فيه المواطنون العزل من السلاح أنهم على العهد بهم ، أقوياء بأنفسهم ، تملؤهم ثقة لا تتزعزع بقدراتهم وبقوة جيشهم ـ جيش التحرير الوطني ـ .

تكوّنت قناعة لدى العدو بأن الثوار (العصاة أو الفلاقة) منتشرون في كل زاوية من زوايا المنازل ، وعلى كل غصن من أغصان الأشجار ، وفي مجرى كل نهر من الأنهار ، وهكذا انطلق بعملية قصف مرعبة حيث أخذت طائراته بقصف كل الأقليم قصفاً

وحشياً أصاب بصورة خاصة قرى (الملية) و(كولو) و(عين قشرة) .

أصدرت القيادة أمرها في يوم ١٦ آب ـ أغسطس ـ ١٩٥٧ إلى ناحية (سكيكدة) بتكليف (إبراهيم بربيج) بقيادة كتيبة من مائة وعشرة جنود يعاونه قادة الفصائل (سيد سعود من شكيكدة) و(محمود ناطور من بني زايد) و(بن عاشية) من (زبابرة ـ كولو) . وذلك للاضطلاع بمهمة التوجه الى الشرق لجلب الأسلحة والامدادات . وانطلقت الكتيبة من (بني زايد ـ ناحية كولو) واتجهت نحو (سكيكدة) حيث أجرت اتصالاً مع المسؤول (محمد ناموس) الذي جهز الكتيبة باثنين من الأدلاء ـ الكشافة ـ كانا يعرفان الطريق معرفة جيدة . وغادرت الكتيبة (سكيكدة) على طريق (بالو) متجاوزة قمم ومرتفعات جبل (لااليا) حتى وصلت مشتى (واديا) . وقد استطاع العدو تقصي أثر هذه الكتيبة ومتابعتها على الرغم من كل تدابير الحيطة التي اتخذتها ، وعلى الرغم من تحركها في الليل باستمرار . وقام المسؤول في (مشتى واديا) بإمداد الكتيبة بالأغذية والمواد التموينية ، فاستأنفت الكتيبة مسيرها في الساعة (٢١٠٠) من يون ٢٣ آب ـ أغسطس ـ ١٩٥٧ . غير أنها ما لبثت أن اشتبكت بقوات العدو ، فأمرها قائدها بالتفرق واللجوء إلى الغابة القريبة . غير أنها ما لبثت أن اشتبكت بقوات العدو ، فأمرها قائدها بالتفرق واللجوء إلى الغابة القريبة . وفي اليوم التالي جاءت طائرات عمودية ـ هيليكوبتر ـ وهبطت في المكان الذي وقع فيه الاشتباك . وعرف المجاهدون عندئذ أنه سقط للعدو في منطقة الاشتباك أحد عشر قتيلاً . ولما لم يعد هناك أثر للمجاهدين ، فقد اقتنع العدو بأنهم قد غادروا الإقليم . فقام ـ كعادته ـ بعملية انتقامية من الدواوير

المجاورة . وفقد العدو كل أثر للكتيبة ، ولم يتمكن من اكتشافهم عى الرغم من استخدامه لطيران الاستطلاع .

تابعت الكتيبة طريقها نحو (تانغوت) متبعة دروب جبل (دباغ) . ودخلت في المنطقة الرابعة لدى وصولها الى قرية (الهوارة) . فتابعت سيرها نحو (لاغرين) ثم سلكت الطريق ما بين (سوق أهراس) و (عين ساطور) . وكانت القوات الفرنسية تعمل خلال هذه المرحلة على إقامة الخط العازل الشهير ـ على الحدود التونسية ـ والمعروف باسم (خط موريس) . وسارت الكتيبة من (سوق أهراس) إلى (حمام أوشات) حيث عمل المجاهد ـ المسؤ ول ـ (عبد الرحمن بن سالم) فجهز الكتيبة بدليل آخر ـ كشاف ـ لمرافقة الكتيبة . ووصلت الكتيبة إلى (غارديماو) في يوم ٥ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٥٧ حيث تم الاتصال عن المسؤ ول لتزويد الولاية الثانية بالسلاح والعتاد . وتسلمت الكتيبة الأسلحة المقررة ، وكيسين من المواد الطبية ، ثم شرعت في السير على طريق العودة في اليوم الأول من تشرين الأول ـ أكتوبر ـ وذلك بعد أن انضمت كتيبة أخرى إلى الكتيبة السابقة كانت تحت قيادة (عز الدين) وكانت مقيمة في (تونس) . ومعها (٤٠) جندياً من منطقة (ساونا ـ المنطقة الرابعة من ناحية غلمة) . وكان هؤلاء الأربعين جندياً هم بقايا كتيبة عملت تحت قيادة (جابوربي) وتكبدت خسائر فادحة حتى لم يبق إلاّ عشر قوتها .

وهكذا بات تحت قيادة (إبراهيم بربيج) قوة كتيبتين وأربعين جندياً ـ أو ما يقارب مائتين وثمانين مجاهداً ـ كلهم مسلحون ومعهم(٤٥) بغلاً لحمل الأسلحة والذخائر . وتوجهت هذه القافلة

نحو (عين سلطان) ثم إلى (كف أغراب ـ بني صلاح) . ولم يكن في هذه الجبال إلّا كتيبة واحدة من كتائب جيش التحرير الوطني تعمل تحت قيادة المجاهد (عمر شكاي) يساعده المجاهد (عوفي) . ولم يكن لدى هذه الكتيبة من الأغذية والمواد التموينية ما تستطيع أن تقدمه لأفراد القافلة . فكان لا بد من الاكتفاء بشراء ما هو متوافر في القرية من الكعك . وقام المجاهد (عمر شكاي) بتكليف خمسة من المجاهدين لمرافقة القافلة وتوجيهها حتى الوصول بها إلى (خط موريس) . وبات من السهل على القافلة بعد ذلك اجتياز هذا الخط والوصول إلى (لاغرين) . غير أن العدو استطاع اكتشاف أمر القافلة ، فوجه طيرانه لمطاردتها ومتابعة تحركها . ونجحت القافلة في الوصول إلى غابة ، واللجوء إليها . وانتقلت منها إلى (الهوارة) ثم إلى (الدباغ) و(دوار بو طيب) حيث وجدت الراحة فيه لمدة ثلاثة أيام ، كان المطر يهطل خلالها من غير توقف . وما إن اعتدل المناخ ، وتوقفت العاصفة ، حتى استأنفت القافلة تحركها حتى وصلت (الغدير) مخترقة المنطقة بين (كاستونفيل) و(الهاروش) ثم وصلت إلى (كالو) بدون أن تتعرض لأية خسارة . وكان هذا النجاح سبباً في تكليف قائد القافلة (إبراهيم بربيج) بالعودة لتنفيذ مهمة مماثلة .

* * *

غادرت الكتيبة مجدداً مقرها في (عين تايا) يوم ٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٥٧ وتوجهت نحو جبل (دباغ) حيث اتصل قائدها بالمسؤول عن المنطقة الرابعة (محمد روح) الذي قدم لقائد الكتيبة عرضاً بالمعلومات المتوافرة لديه عن حالة الطرق ومحاور

في الطريق نحو الهدف ـ المدفعية الثقيلة للدعم المجاهدين

المرور التي تصل إلى الشرق . كما وضع أربعة من الجنود الأدلاء الذين وجهوا الكتيبة حتى وصولها إلى (خط موريس) حيث وصلت الكتيبة إليه يوم ٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ . وأقامت في جبل مجاور لمدة أربعة أيام ، حيث انضم إليها ثلاثون جندياً ـ أرسلهم (محمد روح) وكلفه باصطحابهم إلى تونس .

قرر قائد الكتيبة عبور خط (موريس) يوم ١١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ وتجهزت الكتيبة لهذه الغاية برفش ومعول ، ومقصين لقطع الأسلاك الشائكة ومجرفة . وكانت الساعة (٢٣٠٠) عندما وصلت الكتيبة إلى موضع يضم طريقاً يستخدمه العدو للوصول إلى الجبال والتوغل فيها . وكان يتم إقفال هذا الطريق ليلاً بسياج شائك يشبه زوجاً من الأبواب . وتم قص الأسلاك عند الباب الأول ، ثم أمكن اجتياز حقل الألغام ، والوصول إلى الباب الثاني ، وقص الحلقة الكبيرة التي توصده ، وجاء بعد ذلك دور الخط المكهرب . حيث اجتاز المجاهدون الطريق زحفاً من تحت الأسلاك الشائكة حتى تم الوصول إلى الطرف الثاني من (خط موريس) . ووجد المجاهدون أنفسهم أمام واد كبير ، تحيط به الحدائق المزروعة بأشجار التين .
وشعرت القوات الفرنسية بوجود المجاهدين ،واكتشفت أمر الثغرة التي مروا منها ، فشرعت مدفعيتهم بالقصف على طرق مرور كتيبة المجاهدين ، غير أن هؤلاء نجحوا في اللجوء إلى منطقة من جبال (بني صلاح) كانت متميزة بوعورتها الشديدة ، وبصعوبة وصول العدو إليها .

قام قائد الكتيبة بعد يومين اثنين بإرسال مجاهدين بمهمة استطلاع المنطقة ، ولكنهما لم يبتعد كثيراً حتى باغتهما العدو بالرمي

عليهما . فرجعا على الفور سالمين ولما يصابا بأذى . وظهر أنه لا بد من السير في الليل للإفادة من الظلمة بهدف الوصول إلى تونس . لا سيما وأن الوحدات الفرنسية قد انتشرت منذ خمسة عشر يوماً في كل ناحية من نواحي الإقليم . وفي الوقت ذاته . كانت قدرة أفراد الكتيبة قد استنزفت لبقائهم بتسعة أيام من غير طعام . ووصلت الكتيبة بعد يومين الى خط (شال) في قطاع (دار البيضا) غير بعيد عن (بوحجار) . وحاولت الكتيبة في يومي ٢٠ و٢١ تشرين الثاني - نوفمبر - القيام بعدد من المحاولات لعبور خط (شال) غير أن القوات الفرنسية تمكنت في كل مرة من إحباط المحاولة . وفي يوم ٢٢ تشرين الثاني - نوفمبر - توجه قائد الكتيبة للقيام باستطلاع شخصي للمنطقة ، وصعد إلى إحدى الهضاب المرتفعة حيث أمكن مشاهدة أحد الدواوير .

وعندها ، قرر التوجه إلى (الدوار) وأمكن له إجراء اتصالات مع الأهلين ، بعد صعاب كثيرة وبعد تجاوز عقبات صعبة . وعندما تم اكتساب ثقة الأهلين الذين تأكدوا من شخصيات المجاهدين ، عملوا على تعريفهم بمجاهد كان قد وصل إلى الإقليم منذ أيام قليلة . وجاء هذا المجاهد إلى قائد الكتيبة الذي طلب إليه تأمين الطعام لأفراد الكتيبة الجياع والذين مضى عليهم اثني عشر يوماً لم يذوقوا فيها أي نوع من أنواع الطعام . وجاء المجاهد بالطعام إلى هؤلاء الذين اصفرّت وجوههم وباتوا وهم عاجزين حتى عن الكلام . فتناول المجاهدون ما سدوا به رمقهم ، واستراحوا قليلاً ، وبعدها جلس قائد الكتيبة إلى المجاهد - ابن الإقليم - يستوضحه عن الموقف في الإقليم ، وعن المعلومات المتوافرة في موضوع تشكيلات القوات الفرنسية وانتشارها في المنطقة . وأفاد المجاهد

بأن قوات العدو منتشرة في كل مكان ، ونتيجة لذلك فإنه من المحال عبور الخط المكهرب (خط شال) غير أن هناك بعض الأمل بتحقيق النجاح في العبور من جهة (الدوار) ولو أن هذا العبور سيتم قريباً من مواقع العدو .

وقررت قيادة الكتيبة بذل المحاولة في مساء اليوم ذاته لإجراء العبور . ولكن ما إن وصلت الكتيبة إلى جوار خط الأسلاك الشائكة حتى واجهت دبابتين معاديتين كانتا تقفان على بعد عشرين متراً فقط من النقطة التي وصل إليها أفراد الكتيبة ، والذين التصقوا بالأرض ، منبطحين على ثراها . وما هي إلاّ فترة قصيرة حتى سارت إحدى الدبابتين متخذة طريقها نحو الدوار ، في حين أطفأت الدبابة الثانية أضواءها ، وبقيت متمركزة في موقعها ، ومحركها مستمر في دورانه . ومكث مجاهدو الكتيبة في مواقعهم ينتظرون انصراف الدبابة الثانية وابتعادها حتى أزفت الساعة الثالثة صباحاً ، وعندها قرر قائد الكتيبة الإقدام على احتمال مخاطر المجازفة ، فتقدم إلى السلك المكهرب ، وأمكن له قطعه ، وتبعه أفراد الكتيبة الذين شقوا طريقهم زحفاً عبر حقول الألغام . وأمكن للمجاهدين عبور المنطقة الخطرة من غير أن يثيروا انتباه سدنة الدبابة . غير أن العدو أخذ في إطلاق الشهب المضيئة ولما يبتعد المجاهدون بأكثر من خمسمائة متر ، وأخذت المدفعية في إطلاق قنابلها على الموضع الذي كان يتمركز فيه أفراد الكتيبة قبل قليل ، والذي اضطروا إلى أن يتركوا فيه بعض ثيابهم .

وتابع المجاهدون طريقهم حتى وصلوا إلى (واشتاتا) حيث التقوا بالمجاهد (وارثي الأخضر) والذي استقبلهم ، وقدم لهم

القهوة ، وأمّن العناية للمجاهدين الذين أُصيبوا بجراح أثناء عبور منطقة الأسلاك الشائكة . . . وأخيراً وصلت الكتيبة إلى المنطقة التي كان يتولى قيادتها المجاهد (عبد الرحمن بن سالم) وذلك في ظهر يوم ٢٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٥٨ ، وكان قد مضى على الكتيبة أحد عشر شهراً من المسير . وكانت المنطقة تضم أربعة آلاف جندي مجاهد استقبلوا إخوانهم أفراد الكتيبة استقبالاً حاراً أنساهم كل المشاق والمتاعب والمعاناة مما تعرضوا له في رحلتهم الصعبة . وعمل القائد (عبد الرحمن بن سالم) فوراً على تخصيص مكان منعزل للكتيبة ، وأوصى قائدها بتجنب الحديث عن الصعوبات التي جابهتها الكتيبة أثناء عبورها للحواجز المختلفة ، حفاظاً على الروح المعنوية لبقية الجنود المجاهدين الموجودين في المنطقة (داخل الحدود التونسية) . وأمضت الكتيبة فترة من الراحة ، تم بعدها استدعاء قائد الكتيبة لمقابلة مسؤول المنطقة من أجل الحصول عن المعلومات الضرورية المتعلقة بخطوط الفرنسيين . وقد أبدى مسؤول المنطقة إعجابه برجال الكتيبة ، وما تحلّوا به من الفضائل الحربية ، وما أظهروه من الصبر والتصميم .

انتقلت الكتيبة بعد أيام قليلة إلى (أمليز) بهدف ممارسة التدريب على الأسلحة الحديثة . واستمر تدريب الكتيبة طوال أربعة أشهر (من كانون الثاني ـ ديسمبر ـ وحتى آذار ـ مارس ١٩٥٩) حيث ضمت الكتيبة إلى كتائب أخرى في إطار تنظيم (فوج) يحمل اسم (الفوج الحادي عشر) . ونقل الفوج إلى (عين دراهم) حيث تمركز في (العيون) وكلف بمهمة العمل على تدمير خطوط الأسلاك الشائكة التي كانت فرنسا قد أقامتها على الحدود التونسية . والتعرض للحامية المدافعة عنها .

ويمكن بعد ذلك التعرض لنماذج من بعض هذه العمليات . مثل تلك المعروفة (بعملية العامري) والتي نفذتها مجموعة انطلقت من (عين دارهم) مستخدمة عربات النقل الكبرى ـ الكميونات ـ حتى حدود (غار ديماو) حيث ترجل المجاهدون ، وتابعوا طريقهم سيراً على الأقدام حتى وصلوا (ودزين) حيث (مقر الفوج ٣٩) . وتولى عندها قائد الفوج (عبد الرحمن بن سالم) إدارة العملية . فجمع المجاهدين جميعاً ، وشرح لهم طبيعة المهمة ، والهدف من تنفيذها ممثلاً (بتحرير مواطني منطقة العامري من ضغوط العدو) . وقام المجاهدون بتنفيذ المهمة بدقة وإحكام ، ولم يتمكن العدو من الصمود أو المقاومة ، وقتل عدد كبير من أفراد العدو ، وهرب الآخرون . وتم تدمير المعسكر القائم في (العامري) وتحرير المحتجزين فيه والاستيلاء على كمية من الأسلحة والأموال . ولقد تميز القتال بضراوته وشدته الأمر الذي أدى إلى استشهاد عدد من المجاهدين وأصيب آخرون بجراح . ونقل سكان قرية (العامري) إلى قرية (دشرات المجاهد) والتي لا زالت قائمة حتى اليوم . وقد استخدمت في هذه المعركة بعض الأسلحة الثقيلة ، مثل الصواريخ ، ومدافع الهاون .

* * *

ويمكن أيضاً الاشارة إلى (الفوج ١٧) الذي تمركز في (عين الزانة) التي تعرضت لقصف كثيف قامت به ست طائرات قاذفة (ب ٢٦) اعتباراً من الساعة(٥٣٠)يوم ١٠ تموز ـيوليو ـ ١٩٦٠ وأدى الى استشهاد بعض المجاهدين .

وكذلك ما قام به (الفوج ٥٦) الذي نظم هجوماً على (عين الكرمة ـ بوجيلات صنهاجة) خلال شهر شباط ـ فبراير ـ ١٩٦٢ وبدأ

تنفيذه يوم ٦ آذار ـ مارس ـ **١٩٦٢** حيث تم الانقضاض على مجموعة القرى المنتشرة على امتداد الحدود الجزائرية ـ التونسية . وقد استمرت هذه المعركة من مساء يوم ٦ ـ آذار ـ مارس ـ وحتى يوم **١٧** منه ، وتلقى فيها العدو درساً قاسياً لا ينسى من قبل مجاهدي جيش التحرير الذي استخدم كل الأسلحة الحديثة ، بما فيها المدفعية والصواريخ وَمَدافع البازوكا . وتلقت قوات المجاهدين أمراً يوم **١٧** آذار ـ مارس ـ بفك الاشتباك ، وإيقاف إطلاق النار . وفي يوم **١٨** آذار ـ مارس ـ **١٩٦٢** ، تلقى المجاهدون أمراً بحفر الحفر لوضع الصواري (جمع صاري) والتي سترتفع عليها أعلام الجزائر عالية خفاقة . ونفذ المجاهدون ذلك ، وفي الساعة (١٢٠٠) من يوم **١٩** آذار ـ مارس ـ قام المجاهدون بتنظيم عرض لقواتهم استمر نصف ساعة ،تحت سمع العدو وبصره (بعد أن دخل اتفاق وقف إطلاق النار حيّز التنفيذ لدى الجانبين) .

دخل المجاهدون (عين الكرمة) يوم ٦ تموز ـ يوليو ـ واحتفلوا فيها بعيد الاستقلال . وكان هذا العيد مناسبة لإحياء ذكرى شهداء المجاهدين الأبرار الذين مهروا راية البلاد بدمهم الطاهر .

❊ ❊ ❊

٤ ـ مهمة على موجات الأثير[١]

دخلت الثورة الجزائرية عامها السادس منذ يوم تفجرها في الفاتح من نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ ١٩٥٤ . وفي هذه الفترة ، وصل الضغط الاستعماري ذروة اتساعه وقسوته ، وذلك كرد فعل على الهزائم المنكرة التي نزلت بساحة كبار قادة الحرب الفرنسيين . إذ أن ذكريات الكوارث التي رافقت الأعمال القتالية المتتالية ، قد التصقت بأسماء أولئك الذين تم تكليفهم بتنفيذها ، والذين صدمتهم المقاومة الضارية للمدافعين عن حريتهم .

لقد خاض المدافعون عن حريتهم الحرب ، وجابهوا أضخم جهاز حربي استعماري عرفه القرن العشرين ، حيث أنه ضم القدرة الضاربة الأمريكية ، إلى جانب قدرة الغرب الاستعماري مجتمعه . وقد استرسل (الماكيافيليون ـ الاستعماريون) في مفاهيمهم ، فأقاموا السدود المكهربة التي لم تتمكن من عزل الجزائر المجاهدة عن العالم الخارجي . وفشلت عبقرية الاستراتيجيين الاستعماريين في الوصول إلى هدفها . وأمام هذا الفشل المتكرر الذي أصاب كبرياء قادة الجيش الاستعماري بجراح عميقة ، لم يبق أمام

---

(١) RÉCITS DE FEU. P.P. 188- 193. PAR: MOHAMED ANDALOUSSI

الاستعماريين إلّا الاستدارة نحو المواطنين المدنيين ليصبوا عليهم جام غضبهم وانتقامهم ، وليعرّضوهم لأبشع أنواع الإذلال والتعـذيب . فأقيمت (مـراكز التجمـع) و (معسكرات الحشـد) و (السجـون) و (المحاكم العسكـريـة العـرفيـة) و (التجمعـات القسرية ـ الإجبارية) (ونصبت المقاصل ـ جمع مقصلة) و (أبيحت الرذائل) و (انتهكت حرمات الأماكن المقدسة) . وكان الهدف الاستعماري من ذلك كله هو حل الشعب الجزائري ، وتفتيته ، ومنعه من احتضان ثورته التي تولى قيادتها جيش التحرير الوطني ، الذي بقي صامداً في وجه كل المخططات الاستعمارية ، فأتعب الاستعماريين ولم يتعب .

لقد اكتسب الشعب الجزائري قناعاته من خلال معاناته لليل الاستعمار ، وأصبحت لديه المنعة الكافية ضد السموم التي كانت تنفثها أجهزة استخبارات العدو ، وفروع حربه النفسية ، فأقبل على الانتظام في صفوف جبهة التحرير الوطني ، سواء في المدن أو في القرى والسهول ، وانصرف لدعم ثوار المدن (الماكي) وإمدادهم بالقدرة، ومساعدة شبكاتهم السرية ، وحماية أعمال الفدائيين اليومية ، أحياناً بطرائق سلبية ، وأحياناً بحزم وصلابة ، وأحياناً أيضاً بشجاعة بطولية ونبل رائع في آن واحد خلال مجابهتهم للقمع الاستعماري . وبذلك عرفت العاصمة (الجزائر) وضواحيها نوعا من النشاط الذي لا يهدأ ، وكان مجاهدو جبهة التحرير الوطني، يتابعون ظهورهم على مسرح الأحداث في كل مكان وفي كل وقت ، ويؤكدون وجودهم باستمرار ، وفي كل المناسبات وذلك عن طريق ضرباتهم المباغتة والسريعة والقوية والتي كانت تترك أثراً نفسياً عميقاً لدى الأصدقاء والأعداء على السواء . وقد ركزت المنطقة الرابعة من

الولاية الرابعة (الجزائر) كل جهودها ضمن هذا الاتجاه . وكان شهر حزيران - يونيو - ١٩٦٠ يقترب من نهايته ، ولم يبق إلا أيام قليلة على قدوم اليوم المشؤوم (يوم ٥ تموز - يوليو) الذي يثير في ذكراه السنوية كل مشاعر الحزن التي رافقت إنزال القوات الفرنسية على ثرى الجزائر سنة ١٨٣٠ . وفي هذه الذكرى كان الشعب الجزائري يحتفل بطريقته الخاصة : فيعلن الصيام ، ويقيم الصلوات ، ويدعو للجهاد وكانت هذه العبادات تتضمن كل المعاني التي تمسك بها شعبنا فحافظ بها على أصالته .

قررت قيادة جبهة التحرير الوطني - وجيش التحرير الوطني ، إعطاء هذه المناسبة بُعداً نفسياً خاصاً . وصدرت الأوامر بذلك .

كانت المنطقة الأولى قد أقامت مقر قيادتها في بناء قديم يتكوّن من طابق واحد ، ويقع عند أقصى الطرف الغربي من الجسر الذي يجتاز المدينة - عند الحراش - . ولم يكن هذا المبنى أكثر من مهجع يضم مجموعة من الغرف البائسة ، الفقيرة ، التي يتكوم فيها كل مساء عدد من العمال الذين يسحقهم عملهم في المصانع المجاورة والمزارع القريبة . وكان هناك درج صغير تحيط به الجدران ينتهي إلى دهليز طويل ومظلم . وكانت الروائح الكريهة المنبعثة من دورات المياه ، والظلمة المهيمنة على المكان ، من الظواهر الكافية لإعطاء فكرة عما كانت تعانيه كتلة العمال الجزائريين من البؤس والشقاء . وكان هناك باب كبير قديم - نخر - ينفتح على مصراعيه ليطل على غرفة واسعة مطلية جدرانها بالكلس ، وتضيئها نافذة واحدة ، يحميها من الخارج باب شبك خشبي مخلع . وأما أثاث الغرفة فكان يشتمل على صف من الكراسي قد نضدت على امتداد طول الغرفة ، وهناك طاولة مصنوعة صناعة بدائية قد احتلت عرض الغرفة حتى يتم

استخدامها كمكتب للعمل . وقد غطت الجدران بألواح من مختلف الأشكال والألوان التي تمثل المصطلحات والرموز المستخدمة على الطرق ـ كشارات لسائقي السيارات ولتنظيم المرور ـ . وكان عشرات الرجال يترددون على هذه الغرفة طوال النهار ، حيث كان يجلس في نهايتها رجل متوسط العمر يستند إلى الطاولة بمرفقيه . وكان هذا الرجل متوسط الطول (مربوع القامة) تشع من عينيه نظرات معبرة ونشطة ، تعكس حماسة صاحبها وهو يتحدث باستمرار مع زواره حيث ينجز لهم ما يطلبونه من الأعمال بطريقة محببة وهو يمارس دوره باعتباره مدرباً لقيادة السيارات (السواقة) . وكان بعض تلاميذه يتابعون التدريب ، في حين كان آخرون ينتظرون دورهم وهم يتبادلون الأحاديث فيما بينهم . وكان باستطاعة الواقف إلى النافذة المطلة على الشارع أن يرى محطة للوقود ، توقفت فيها مجموعة من المركبات (السيارات) المعدة للتدريب (وقد كتب عليها ـ مدرسة قيادة السيارات) .

وكانت هناك مسطبة لمقهى يتاخم هذه المحطة وقد ارتفعت فيها الأشجار التي أظلت بظلها مجموعة من الطاولات وقد جلس حول كل واحدة منها رجلين أو ثلاثة من الزبن (الزبائن أو الرواد) . وضمن هذا المثلث ، حيث لم يكن لا السائقين ولا السابلة ـ المارة ـ يعيرون انتباهاً لما يدور حولهم بسبب حركة المرور الكثيفة والتي لم تكن لتتوقف أو تهدأ في أي وقت من الأوقات ، ضمن هذا المثلث اختارت المنطقة الأولى إقامة قيادتها تحت غطاء (مدرسة تدريب قيادة السيارات ـ السواقة) وكان سائقو السيارات ، ورواد المقهى وزبن محطة الوقود وطلاب التدريب يعملون جميعاً بتنسيق تام وتعاون مذهل . وكانت حركة مستأجري المهجع في غدوهم وإيابهم تقدم

الغطاء المناسب للمناضلين الفدائيين الذين كانوا يترددون على هذا المكان لتقديم تقاريرهم عن إنجازهم لمهماتهم وواجباتهم ، ولتلقي معلومات جديدة . وقد فرضت قيود دقيقة ، وأنظمة محكمة ، سمحت للطلاب المزيفين بالتحرك بحرية تامة في وسط الطلاب الحقيقيين الذين جاؤوا للتدريب على قيادة السيارات والحصول على الإجازات التي تسمح لهم بممارسة العمل في قيادة السيارات فيؤمنون بذلك الغطاء الذي يستر عمل المنظمة السرية ، حيث كان أعضاء المنظمة يضطلعون بإنجاز كافة الأعمال ، وتنفيذ مختلف المهمات ، في كل يوم ، وبنجاح تام ، وبعيداً عن كل الشبهات .

كانت الساعة (١٦٠٠) من يوم ٢٨ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٦٠ عندما توقفت سيارة من سيارات التدريب على القيادة أمام مبنى بلدية (ود ـ سمار) الملحقة بالحراش . وكان هذا المبنى الإداري يضم (صندوق البريد) للمنظمة السرية ، والجهاز العصبي لاتصالات الفدائيين . وكان موظفو هذا المركز يمارسون عملهم بطريقة دقيقة لا تترك مجالاً للشك أو الشكوى ، وهم يؤدون واجباتهم الوظيفية تحت مراقبة المسؤولين من مدنيين وعسكريين . وكانت هيئة الموظفين المذكورة تستفيد من غطاء عملها الرسمي ، لتساعد منظمات الفدائيين السرية في تحرير الرسائل والمحافظة عليها وتوزيعها . وكان السعاة (راكبي الدراجات النارية) والذين تحمل دراجاتهم لوحات (مدينة الجزائر) يؤدون متطلبات الخدمات الإدارية ، فيخترقون الأحياء المجاورة لاكتشاف كل نشاط تقوم به القوات الفرنسية ، ونقل أوامر جبهة التحرير الوطني وتوجيهاتها إلى الثوار (الماكي) في مراكزهم المجاورة . وكان المركز الإداري ـ للبلدية ـ يعمل علاوة على ذلك في تنظيم الأمور الاجتماعية ، فيساعد الأرامل واليتامى من

نساء الشهداء وأبناءهم ، ويرعى أسر المجاهدين الذين أودعتهم السلطات الاستعمارية في السجون . وعلى الرغم من قيام ضباط الحرس المتحرك ، وضباط المظليين ، والمسؤولين في البلدية ، وعلى الرغم أيضاً من تعيين ضباط من (مكاتب الشؤون الأهلية - الساس) في قلب هذا المركز البلدي . فإن الموظفين فيه استمروا في ممارسة عملهم ، ولم تضعف إرادتهم ، وبصورة خاصة إثنان منهم كانا على معرفة تامة بكافة أسرار المنظمة السرية للفدائيين . وكانا يمتلكان قدراً من الشجاعة البطولية مكنتهما من متابعة دورهما دون توقف ، ودون خوف من الزيارات المباغتة التي كان يقوم بها المسؤولون الفرنسيون من مدنيين وعسكريين .

* * *

لا زالت عربة (تدريب السواقة) متوقفة أمام مبنى البلدية . وقد أشار سائقها إلى موظف يعمل في المركز واسمه (محمد الأندلسي) . فاستأذن هذا رفاقه بالخروج متذرعاً بحجة الذهاب لتلقي درس في قيادة السيارة حدد موعده في هذه الساعة . وصعد إلى جانب السائق ، المدرب ، وانطلقت السيارة على الفور ، وما إن وصلت إلى الطريق العام ، بعيداً عن أنظار الفضوليين ، حتى قام السائق بإبلاغ (محمد الأندلسي) أمر قيادة جبهة التحرير الوطني التي كلفته باغتنام مناسبة اليوم الخامس من تموز - يوليو - للقيام بعمل مثير له أثر نفسي بعيد .

* * *

لقد أراد المسؤولون استخدام الأسلحة النفسية التي كان يستخدمها العدو ذاته ولكن بطريقة أكثر فاعلية وأكبر تأثيراً . ولم يكن

لديهم في هذا المجال إلا القليل من الوسائط المادية ـ الأعتدة ـ غير أنهم كانوا يمتلكون بالمقابل عناصر مؤهلة ولديها كفاءة عالية جداً بالإضافة إلى إيمان عميق بشرعية خوضها للصراع . وكانت الصدمة المتوخاة من هذه المهمة تحتل مرتبة عالية من الأهمية ، وهي تتطلب الابتعاد عن (الحراش) للمثول في صباح اليوم التالي إلى المكان المحدد ، وهو أحدث مقهى في العاصمة (مقهى لوداميا) الواقع عند عقدة الشوارع الرئيسية في المدينة . وقد تطاولت تلك الليلة على المكلف بتنفيذ المهمة (محمد الأندلسي) حتى اعتقد أن فجرها لن يطلع عليه ، وقد زاد من قلقه إدراكه لما تتطلبه المهمة من خيال خصب ومن اختيار للوسائل التي لا زال من الصعب عليه اختيارها واستخدامها . المهم في الأمر ، هو أن (الأندلسي) قد وصل في الموعد المحدد، فوجد من ينتظره وقد جلس إلى طاولة في زاوية من المقهى . فتم تبادل شارات التعارف من مسافات بعيدة ، وتقدم (الأندلسي) فجلس إلى جوار أخيه الفدائي ، وبدأ الحديث بينهما على الفور . وكان (الأندلسي) يتحرق شوقاً لمعرفة كافة التفاصيل المتعلقة بمهمته المقبلة .

* * *

كان التنظيم السري للعدو ، والذي عرف فيما بعد باسم (التنظيم السري للجيش الفرنسي ـ واس) قد نفذ بعض العمليات من هذا النوع وها هم الفدائيون يتحركون على أرضه الخاصة ويستخدمون أجهزته وترتيباته ذاتها. وكانت الإدارة الفرنسية تعمل على نقل صلاة الجمعة بالتناوب ، مرة من مسجد أتباع (مالك ـ أو المالكيين) ومرة من مسجد أتباع (أبو حنيفة ـ أو الحنفيين) محاولة بذلك الوقوف موقف الحياد من المذهبين

الدينيين . وكانت عملية نقل الصلاة تذاع على موجات الأثير بالبث المباشر على موجات راديو الجزائر (أو ما كان يسمى محطة فرنسا الخامسة) .

وكانت الترتيبات الفنية تنتقل نوباً ، لتتفرع مرة إلى (المسجد الكبير) ومرة إلى (مسجد الصيادين) وكان موقع المسجد الكبير يشكل مصيدة حقيقية لكل عمل فدائي ، لأن كافة المحاور المؤدية إليه تنتهي إما إلى حصون القيادة البحرية ، أو إلى التحصينات المتاخمة للبحر ، الأمر الذي كان يفرض تجنب القيام بأي عمل في هذا المسجد . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فقد كان لا بد من تكليف فدائي آخر للعمل من أجل القيام بعمل مماثل بهدف تضليل العدو إذا ما استنفر قواته .

كان مسجد (الصيادين) بالمقابل يضمن توافر كل المتطلبات الضرورية للانسحاب بسهولة ، إذ كانت تجاوره شوارع فرعية عديدة يمكن استخدامها للتفرق في كل اتجاه بعد تنفيذ العملية . وتمت دراسة المهمة بأدق تفاصيلها ، ووضع مخطط تنفيذها في زاوية المقهى ، وتحت مراقبة رجال الشرطة والدوريات العسكرية التي كانت تتجول باستمرار على الرصيفين المجاورين للشارع . وتم وضع نص البيان ـ باللغة العربية ـ ليصار إلى توزيعه على أوسع نطاق ممكن ، وفي كافة شوارع العاصمة . وقد تولى الفدائيون تنفيذ هذا الجانب من المهمة . أما الجانب الآخر فتمثل بالمهمة التي قضت بقراءة نسخة من هذا البيان وإذاعته على موجات الأثير (من إذاعة فرنسا الخامسة) . وذلك أثناء نقل صلاة يوم الجمعة . وتضمن نص البيان دعوة من (جبهة التحرير الوطني) إلى الشعب الجزائري ، لإعلان الإضراب العام في ذكرى اليوم المشؤوم الذي احتلت فيه

فرنسا الجزائر . وللتأكيد على التزام الشعب الجزائري بتأييده (لجبهة التحرير الوطني) ووقوفه مع (جيش التحرير الوطني) .

جرت بعد ذلك مناقشة مخطط التنفيذ ، فتقرر تكليف زمرة من بعض الفدائيين ، واجبها إثارة الفوضى والاضطراب في وسط العسكريين الفرنسيين الذين كانوا يحيطون بمنطقة الجامع (المسجد) . ومن واجب هذه الزمرة أيضاً مراقبة كافة أبواب المسجد بهدف منع كل عملية هروب من داخل المسجد إلى خارجه . وكان الأمر الذي تلقته الزمرة بهذا الصدد دقيقاً وحازماً ؛ تيسير دخول المصلين إلى المسجد ومنعهم من الخروج . وفي الوقت ذاته نظمت مجموعة أخرى من الفدائيين ـ زمرة ـ واجبها الإشراف على التنفيذ وتشكيل نوع من القيادة للعملية . ولم يبق بعد هذا الإجراء إلّا قيام المنفذ (محمد الأندلسي) بدخول المسجد ، وتلاوة بيان الجبهة .

قام (محمد الأندلسي) في الموعد المحدد بوداع عائلته وداعاً مؤثراً ، غير أن هذا التأثر لم يصل إلى حد الانتقاص من البهجة التي كانت تعمر قلب (محمد الأندلسي) باحتمال انضمامه إلى قافلة الشهداء . وقد باتت أمنية الأعداد الكبرى من جماهير الجزائريين هي طلب الشهادة ، وبلوغها ، دفاعاً عن كل موطىء قدم من الأرض التي دنسها الفرنسيون ، والتي أقسم الجزائريون على تطهيرها بسيل غزير من الدماء الزكية الطاهرة . وخرج (محمد الأندلسي) من منزله ، وقد حمل معه كيساً صغيراً علقه على كتفه ، ووضع فيه جلباباً (غندورة) وعمامة تشكل كفناً ، وآلة حلاقة آلية ـ ميكانيكية ثم مضى في طريقه حذراً وسط ثكنة عسكرية شملت كل شوارع المدينة ، ودخل شارعاً فرعياً طويلاً ظهر لامتداده أنه لن ينتهي . وكانت الرغبة

المحتدمة في نفس (محمد الأندلسي) تدفعه لاستشارة ساعته في كل ثانية ، غير أنه امتنع عن الاستجابة لرغبته حتى لا يجذب الانتباه إليه . وأخيراً ظهرت له مئذنة الجامع ، شامخة بكبرياء ، تمثل كل الحضارة . . الإسلامية ، وهزت جسد (محمد الأندلسي) رعدة قوية لرؤ يتها ، وأدرك أنه وصل إلى هدفه ، فمضى بخطى ثابته ، وهبط درجات المدخل المؤدي إلى الباب الكبير للجامع (المسجد) . وتبادل ـ سراً ـ التحية مع زمرة الفدائيين ـ الأخوة ـ الذين كانوا يستندون إلى (الدرابزون) وظهرت عليه علامات الارتياح لما شعر به من احترام لتدابير الحيطة الهادفة للمحافظة على سرية العملية . واتجه مباشرة وهو يتوغل داخل المسجد إلى المكان المخصص للوضوء ، حيث كان يصطف إلى يساره نسق من دورات المياه (المراحيض) . ودخل (محمد الأندلسي) الى دورة من دورات المياه ، وأوصد مغلاق الباب ، وأخرج من كيسه آلة الحلاقة ، فحلق ذقنه ، وأصبح بلا لحية ـ كما خلع (شاربه) الذي جهد في منزله على وضعه بعناية فائقة في موضعه ، حتى بات مميزاً لملامح حامله في نظر أولئك الذين رأوه داخلاً إلى المسجد ، أو هؤلاء الذين عرفوه عن قرب أو عن بعد . ثم خلع بنطاله وارتدى الجلباب (الغندورة) ووضع العمة على رأسه فاكتمل بذلك تنكره . وكان هناك صوت أجش لرجل يشرح بعض الأحاديث النبوية الشريفة ، يرتفع من الطابق الأسفل للمسجد ، في حين كانت أصوات عصبة من المتسولين ترتفع على صوت المحدث وتقاطعه . وكان منظر هذه العصبة من المتسولين تمثل جرحاً في جملة الجراح النازفة التي خلفها الاستعمار الفرنسي المرعب في جسد الأمة الجزائرية .

انتهى (محمد الأندلسي) من الوضوء ، وصعد درجات السلم

المؤدي إلى ساحة المصلى الفسيحة . وكان المؤمنون المصلون قد اصطفوا أنساقاً متراصة ينتظرون موعد الخطبة والصلاة . ولم يكن الوصول إلى المحراب سهلاً وسط هذا الزحام ، إذ كان لا بد من تجاوز كل هذا الجمع الحاشد . وأمكن تجاوز الصعوبات والوصول الى الهدف ، مع تقديم آلاف الأعذار للمصلين المؤمنين الذين كانوا يصوبون نظراتهم المتسائلة الى هذا الذي سار مخترقاً صفوفهم على غير ما جرت عليه العادة ، حتى وصل إلى جوار المحراب ، واختار مكاناً لجلوسه . وأخذ في إعداد نفسه للعمل في اللحظة المؤاتية . وكان صمت المصلين وخشوعهم كافياً لإثارة مختلف المشاعر . ولم يعد يشعر الفدائي (محمد الأندلسي) إلاّ بوجيب دقات قلبه ، وإلاّ بإيقاع رقّاص الساعة المعلقة فوق المحراب .

لم يكن من المسموح به الوقوع في أي خطأ ، إذ أن أي حركة في غير محلها كافية لإثارة الشكوك ، وتعريض الشبكة بكاملها لخطر الدمار . وكان المنفذ الرئيسي (محمد الأندلسي) يحمل أكبر قسط من المسؤولية ، ولهذا فقد انصرف بتفكيره كله نحو إنجاز المهمة بنجاح تام ، ولم تنتابه ، ولو للحظة واحدة ، فكرة عما قد يتعرض له ، وكان جل اهتمامه هو تنفيذ الواجب الذي أخذ على عاتقه مسؤوليته ونتائجه . وبينما كان (الأندلسي) مستنفراً لكل أعصابه ، متحفزاً ، ارتفع صوت الإمام وهو يمسك بمكبر الصوت : (الله أكبر) . وقفز (الأندلسي) واختطف من يده (المكبر) . وانطلق في حديثه : (باسم جبهة التحرير الوطني ، وباسم جيش التحرير الوطني . .) واستمر في إلقاء البيان ، من غير أن يعارضه الشيخ الإمام أو يقاطعه ، وكان جمهور المصلين يستقبل فقرات البيان بهتاف مجلجل كارعد ، في حين كانت زغاريد المسلمات (اليويو) ترتفع

من سدة النساء ، فتزيد من حدة الهياج ومن شدة الحماسة . وانتهى البيان ، وتدافعت جموع المصلين لتحيط (بممثل جبهة التحرير) وهي ترفع الهتاف الذي كان يتصاعد إلى عنان السماء . وتدافع جمهور المسلمين كالموج المتلاطم. حتى أن (محمد الأندلسي) لم يجد طريقه إلاّ بصعوبة . وأمكن له تغيير ثيابه ، والعودة إلى ثيابه الاعتيادية والوصول إلى الشارع بعد عناء كبير ومشقة لا توصف . فاتجه إلى مقهى أوروبي . حيث التقطته عربة (التدريب على السواقة) .

٥ ـ مهمة في الأغوار(*)

نحن الآن في (شبكة متليلي ـ في شعامبا) وهي منطقة جبلية وصخرية تضم أربعة أودية متوازية مقفرة لا تنبت إلاّ باقات متناثرة من الأعشاب اليابسة ، تنمو على جنبات الهضاب ، وفوق المنحدرات الشمالية لهذه الأودية . وإلى الجنوب من هذه المنطقة ، ظهرت هناك كثبان رملية تناثرت فوقها حزم من الأعشاب التي تنتمي إلى فصيلة نبات (الحلفا) والتي يطلق عليها اسم (الدرين) . وكانت هذه الجنبات الصخرية تجف بواد صخري مقفر من الزرع والشجر . وكانت الفسحة ما بين الأودية تشكل مسطحاً صخرياً يختلف عرضه ما بين (٢٥) و (٣٥) كيلومتراً .

نحن الآن ، برفقة قافلة عائدة من (وادي زرقون) وقد تسلم قيادتها مجاهد (اسمه باحفص) واجبه الوصول بالقافلة إلى الولايتين الخامسة والأولى . وكانت هذه القافلة تضم (٢٤) جملاً محملاً بالمواد التموينية والأسلحة والأدوية والذخائر ـ ومعظمها إيطالي المنشأ ، تمَّ جلبها من المملكة الليبية . ووصلت القافلة إلى مركز القيادة في (غوفافا) وذلك بعد أن أعطت عناصر الاستطلاع الذين

(*) RÉCITS DE FEU- P. P. 194-202. PAR: DAHMAN RAMDAN.

كانوا يراقبون المنطقة من أعلى المرتفعات ، كلمات التعارف . وما إن وصلت القافلة إلى المعسكر ، حتى انصرفت الكتيبة التي كانت ترافق القافلة ، وتفرقت هنا وهناك ، لتحتل أمكنتها المخصصة لها في الخنادق والملاجىء . وتوجه قائد هذه الكتيبة لمقابلة المسؤول عن الثكنة (إبراهيم دهان) ليقدم له البريد الذي يحمله ، وليرفع له تقريراً شفهياً عن تنفيذ المهمة ، وعما توافر لديه من معلومات متعلقة بحالة طرق المواصلات ، وحركة القوات الفرنسية في الإقليم . وقام المسؤول (إبراهيم دهان) في الوقت ذاته ، بإبلاغ قائد الكتيبة عن حركة العدو في المنطقة ، وقوات الدعم القادمة من (غرداية) و (الأغواط) و (ورقلة) . بهدف دعم الفوج المتمركز في (متليلي) . وقد تم السماح للكتيبة إثر هذه المقابلة بالانضمام إلى بقية الرجال لأخذ قسط من الراحة . وارتفع ضجيج الأصوات مختلطاً بضحكات الرجال وقهقهتهم وهم يذكرون لإخوانهم قصة معركة (جبل فرنسا) التي خاضوها حديثاً ، والتي كانت أول وأضخم معركة من معارك الصحراء . وفي الوقت ذاته ، انصرف أفراد الكتيبة التي رافقت قافلة الإمداد ، للحديث عن رحلتهم ، مع مناقشة نتائج معركة إخوانهم الكبرى . لقد كانت قيادة الكتيبة تجلس على موقد من الجمر وهي تحاول معرفة أهداف العدو . وأصدر القائد أمره إلى الكتيبة بمرافقة المجاهد الأخ (بوجمعة) للتوجه مسافة أربعين كيلومتراً ، حيث الطريق الذي يصل (متليلي) بقرية (غزيلات) الصغيرة ، حيث توافرت معلومات تشير إلى توجه مركبات مثقلة بالحمولة إلى هذه القرية . وجاءت تقارير عديدة من عناصر الاستطلاع ذكرت أن القوات الفرنسية تحشد قواتها في ثكنة عسكرية تقع في (غزيلات) .

شكلت الكتيبة دورية لتنفيذ هذه المهمة ، وانطلق أفرادها ركوباً بأعلى الجمال ، وبمسافة مائتي متر تفصل كل فرد عن الآخر . وكان عدد أفراد هذه الدورية ثلاثة مجاهدين فقط ، هم (سي بو جمعة) وهو قائد فصيلة ومحارب قديم اشترك في حرب الهند الصينية ، واقتصر تسليحه على مسدس رشاش وقنبلتين يدويتين . و (سي الأخضر) وهو من الأنصار - مسبل - انضم إلى قوات المجاهدين حديثاً . و (دهمان رمضان) وهو من الأنصار أيضاً ، غير أنه مضى عليه وقت طويل في الجهاد مع قوات جيش التحرير - أكثر من عام - ولم يكن الاثنان الأخيران يحملان من السلاح إلا السكين المعروفة باسم (بوسعدي) وهي سكين معروفة تماماً لدى أبناء الصحراء .

هبط الليل على الصحراء ، ووصلت الدورية إلى مكان يحمل اسم (ساقلات الدريك) حيث ظهر لها سرير الوادي والطريق الصاعد نحو أعالي الهضبة ، فعقل أفراد الدورية جمالهم ، وتابعوا طريقهم سيراً على الأقدام . وإذ ذاك ظهر لهم بصورة مباغتة . وعلى البعد ، ضوء يبهر الأبصار ، وأنذر (سي بو جمعة) رفيقيه بقوله : (لقد وصلت قافلة من المركبات) وأمرهما باتباعه ، ثم حدد لكل واحد منهما موقعه وهو يقول لهما : اعملا على عد المركبات ، وتحديد نوعها ، وحاولا معرفة ما تحمله . وما لبث صوت هدير المحركات أن تزايد اقتراباً شيئاً فشيئاً . وتمركز أفراد الدورية في مخابئهم . وأخذت عربات النقل (الكميونات) في تسلق المرتفع وهي تزمجر وتزأر . وكان قلب كل فرد من أفراد الدورية يخفق بشدة متزايدة مع اقتراب العربات ومرورها من أمامه . لا سيما وأنها كانت المرة الأولى بالنسبة للمجاهد (دهمان رمضان) حيث يجد نفسه على مسافة قريبة جداً من هذه العربات الكبيرة (الكميونات) .

فأخذه نوع من الفزع ، وارتفع صوت الطنين في أذنيه ، وتدفق العرق غزيراً من ظهره وثنايا جسمه ، وكاد يرتفع صوته بالصراخ عندما مرت به ناقلة نصف مجنزرة كادت تلامس جسده .

وانقضت لحظة متطاولة بعد مرور المركبة الأخيرة ، وأطلق (سي بو جمعة) صرخة حادة أيقظ بها رفيقيه من ذهولهما ، فأسرعا إليه .وقدما إليه تقريرهما الشفهي وهما يرتجفان خوفاً من أن يتضمن تقريرهما شيئاً من الخطأ : كانت القافلة مكونة من (١٧) عربة نقل ـ كميون ـ بينها (١٤) مثقلة بحمولتها من الذخائر والمواد التموينية والجنود . وكانت هذه القافلة محمية في مقدمتها بدبابة ومدرعتين خفيفتين ، مع مدرعة وسط القافلة وأخرى في مؤخرة القافلة . ثم جلس أفراد الدورية لفترة قصيرة ، ثم قال (سي بو جمعة) بغتة لرفيقيه : « هيا بنا ! فلنخرج ! » . غير أن ضوءاً يخطف الأبصار ، قطع عليهم أنفاسهم ، وأرغمهم على الجلوس في أمكنتهم . وتقدم (رئيس الدورية ـ سي بو جمعة) خطوات ، ثم قال لرفيقيه : « إنهما مركبتان : سيارة خفيفة (جيب) وسيارة نقل (كميون) » . وأمسك بمسدسه الرشاش بغتة وهو يقول : « سنهاجمهما » وتذكر بأن رفيقيه لا يحملان السلاح ، فأخرج قنبلتيه اليدويتين ، وأعطاهما لرفيقيه ، وشرح لهما كيف يستخدمانهما . وأظهر لهما المكان المناسب لوقوفهما ، وشرح لهما بهدوء تام ، ومرات متتالية ، ما يجب عليهما عمله لتنفيذ المهمة . وأخيراً قال لهما بلهجة جافة وحازمة : « عليكما بعد إلقاء القنبلتين الصعود إلى المرتفعات ، فإذا ما سمعتما صياح ديك ، فانضما إليَّ » .

ترك رفيقيه وهما جاثيان على ركبتيهما ، ومضى يزحف كالثعبان على الطريق . ووصلت المركبة الأولى (سيارة الجيب)

إلى بداية الطريق الصاعد ، وأخذت في تسلقه بيسر وسهولة . في حين كانت المركبة الثانية ـ الكميون ـ تصعد بعناء ، حتى كاد ضجيج المحرك يهدد بالانفجار . وفي هذه الفترة كان الوجيب قد عاد قوياً إلى قلب (دهمان رمضان) من جديد ، واصطكت ركبتاه ، ومرت من أمامه سيارة الجيب وتجاوزته ، ووصله صوت رفيقه وهو يحذره بصوت منخفض ويقول له : « إن عربة النقل ـ الكميون ـ تقترب » وأثناء ذلك ، كانت سبابة يده اليسرى ممسكة بحلقة القنبلة اليدوية بينما كانت أصابع يده اليمنى تحيط بأخاديد القنبلة وتشد عليها بقوة . ومزقت وحشة الليل بغتة صرخة حادة : « الله أكبر » وتبعتها أصوات الرصاصات المنطلقة من المسدس الرشاش . واهتز الرجلان وكأنهما استفاقا من ذهولهما ، وقذفا بقنبلتيهما وهما يصرخان بدورهما (الله أكبر) وانبطحا أرضاً . غير أن رأس (دهمان رمضان) اصطدم بصخرة كبيرة وهو ينبطح فأصابه ما يشبه الدوار والإغماء ، غير أن أصوات الانفجارين وما تبع ذلك من ضجيج دفعه للوقوف حتى يعود للسقوط من جديد . وجمع كل قوته ، ونهض بغتة فانضم إلى رفيقه الذي كان يتقدمه . ووصل الاثنان إلى المرتفع ، فعادا وانبطحا أرضاً . وقد التصق رأس كل واحد منهما بالأرض . ووصلهما بعد ثوانٍ (صياح الديك) فأيقظهما وأوقفهما ، ودفعهما إلى الركض حتى الطريق ، ثم توقفا ليبحثا في وسط الظلمة عن رئيسهما ورفيقهما الذي ناداهما للمرة الثانية من جوف الوادي ، فتدحرجا على منحدر الوادي ، وانضما إليه .

كان بو جمعة ممسكاً بيده بمصباح كهربائي ، وهو يفتش عربة النقل الكبيرة ـ الكميون ـ والتي هوت من ارتفاع ثلاثين متراً فتحطمت ، واختلط حديدها بزجاجها المهشم ، مصطبغاً بلون

الدماء ، كما التصقت الألبسة باللحم ، ولم يكن بالامكان متابعة النظر في هذا المشهد . إذ تصاعد إلى حلق كل من المجاهدين شعور بالحاجة للتقيؤ ، وفعلا ذلك مرات متتالية . بينما كان (سي بو جمعة) يتابع التفتيش ، فأخذ بارودة السائق (وهي بارودة ماس ـ ٣٦) وأعطاها إلى (دهمان رمضان) ومعها نطاق يحمل الذخيرة . وظهر نور شاحب أصفر يبشر بظهور القمر على خط الأفق . وإذ ذاك التمعت على سطح الأرض علب المحفوظات (الكونسروة) المتناثرة ، وكذلك الرزم والصناديق المنتشرة هنا وهناك ، وكانت بعض الصناديق لا تزال سليمة وقد قذفت بها عربة النقل أثناء سقوطها وانقلابها على مجنبتها . وجرى بعد ذلك تفتيش العربة الخفيفة ـ الجيب ـ فتم استخراج مسدس رشاش ومزودة تحتوي على ثمانية مخازن محشوة بالرصاص ، أعطاها (سي بو جمعة) إلى رفيقه (سي الأخضر) . وبعد ذلك استدار (سي بو جمعة) حول العربة ، ودفع الضابط القتيل وانتزع منه نطاقه الذي كان يعلق فيه مسدسه . ومضى مبتعداً عن رفيقيه اللذين قاما بجمع الأسلحة وحملا قربة ماء وبعض المعجنات (كاتو) والشوكولا . وابتعد قليلاً عن المكان واضطجعا أرضاً وأخذا في تجربة سلاحهما واختباره وهما يفكران بأمر مهمتهما ، حتى إذا ما انقضت عليهما ساعة من الزمن وهما صامتان ، قام أحدهما بقطع حبل الصمت وهو يقول لرفيقه : « ما أجمل ضوء القمر ، لقد تغيرت ظلال الأشياء ، غير أن (سي بو جمعة) قد تأخر ، وأخذت أشعر تجاهه بالقلق » .

لم تكن مرابط الجمال بعيدة عن المكان ، وهيمن خوف من اصطدام رئيس الدورية بالعدو ، الأمر الذي أخر وصوله . وكان لا بد من العودة إلى مركز القيادة قبل الفجر ، حتى يتم تجنب كل طارىء

مشؤوم ، وحتى يتم الوصول بالإمدادات ـ الغنائم ـ وهي في حالة سليمة. ونهض (دهمان رمضان) من مكانه،وتنكب بندقيته، وسحب مغلاقها نحو الخلف ، وأدخل طلقة في حجرة الانفجار الفارغة ، وأعاد المغلاق ، وأحكم رتاجه . فيما كان رفيقه يتابعه بنظره متظاهراً باللامبالاة . غير أن (دهمان) بادره بقوله : إني ذاهب لإلقاء نظرة إلى الوادي . وأنا لا أشعر بالارتياح . فإذا لم أعد ، أو لم أتمكن من الرجوع ، حتى ظهور الفجر ، فموعدنا في مركز القيادة ، على أمل اللقاء هناك » .

وهنا قرر (سي الأخضر) مرافقة (دهمان) وعدم تركه ليذهب وحده . وانطلق الاثنان يهبطان المنحدر بيسر وسهولة . وكانا يتناوبان التقدم ، حيث يتوقف أحدهما مراقباً بينما يسير الآخر لمسافة عشرين متراً ، يتوقف بعدها حتى يلحق به رفيقه ويتقدمه عشرين متراً أخرى وهكذا . . . إلى أن وصلا أسفل المنحدر فشاهدا أشباح عشرة من الجمال الواقفة وهي تأكل حزم الأعشاب القليلة في الوادي . وانبطح الإثنان على كثبان رملي . وتساءلا عن سر وجود هذه الإبل في هذا المكان ؟ وعما إذا كانت تابعة للواء الهجانة (المهريين) الأعداء ؟ وأرسل (دهمان) عواء يشبه صوت (ابن آوى) ثم أتبع ذلك بعد فترة قصيرة بصوت مماثل ، وكرر ذلك ثالثة ، غير أنه ما من أحد أجابه . فكان لا بد من إجراء استطلاع لمعرفة أصحاب الجمال . وتقدم الرجلان بحذر وهما يقفان عند كل خطوة ، حتى وصلهما صوت وشوشات وهمسات قادمة من اتجاه يسارهما ، فاتجها نحو مصدر الصوت ليتوقفا بغتة إذ وقع نظرهما على خيمة (كندية) تتربع على المرتفع المقابل لهما . ونظر كل إلى صاحبه نظرة التساؤ ل : إنهم من (القوم) ـ فلماذا لم يتدخلوا عندما وقع الاشتباك ـ لعلهم لم

المجاهدون يقاتلون في أصعب الظروف

يتبينوا بوضوح مصدر الصوت . فتوقفوا في هذا الوادي منتظرين الفجر للقيام ببحثهم وتفتيشهم ؟ وظهرت للرجلين مرة أخرى ضرورة العودة بسرعة للوصول إلى مركز القيادة لتقديم تقرير عن كل ما أمكن لهما مشاهدته واكتشافه .

وفي هذه الثانية ، وقع أحد الرجلين بقدمه على طبق من النحاس ، فتصاعد ضجيج الأقداح التي كانت متربعة على الطبق النحاسي وهي تتدحرج . وانطلق النور من مصباح يدوي متجهاً نحو الرجلين . ونهض ثلاثة من الرجال ، وهم يقولون بصوت واحد : « من هناك » . ولدى سماع الصوت ، أطلق الرجلان نيرانهما . وصرخ الرجال الثلاثة وهم يسقطون صرعى مضرجين بدمائهم . وعلى البعد ، تردد الرصاص المنطلق من مسدس رشاش وهو يمزق بصداه وحشة الليل وظلمته . وشعر الرجلان بفرحة تهز كيانهما ، إن رئيسهما (سي بو جمعة) لا زال حراً وهو على قيد الحياة . فانطلقا للبحث عنه ، واللقاء به ، ومضت ساعات من البحث من غير جدوى ، حتى كأن الثلاثة كانوا يلعبون لعبة (الاستغماية) بين الكثبان الرملية ، فيما كان صفير الرياح ، وزئير رصاص ، يمزق سكون الفضاء . وأصاب الفزع خمسين جملاً ، واهتاجها ، فمضت تضرب في الوادي جيئة وذهاباً . وظهرت بغتة إلى يمين الرجلين (دهمان رمضان) و (سي الأخضر) مجموعة من عربات النقل ـ الكميونات ـ وعربات نصف المجنزرة ، وهي تهبط المنحدر ، وعندها شعر الرجلان بأن ضوء النهار قد اقترب . وصرخ (دهمان رمضان) برفيقه : « فلننسحب » . وتسلقا الهضبة ، ومضيا في سيرهما على خط الذرى .

* * *

انحدر الرجلان إلى الوادي ، وإذ ذاك استقبلهما صفير الرصاص وهو يحرث الهواء من فوق رأسيهما ، فاستدارا إلى الخلف ، ووقع بصرهما فوراً على ناقلة مدرعة ـ نصف مجنزرة ـ وهي تقف إلى جوار تلك التي تم تدميرها في الليل . فانبطح الرجلان أرضاً ، وما كادا يفعلان ذلك حتى جاءت رصاصات مدفع رشاش لتحرث الأرض من أمامهما . ونهض الرجلان ، وأسرعا بالسير عدواً طوال ربعٍ ساعة ، وربما أكثر ، حتى صارت أقدامهما تصدم بعضها بعضاً لشدة ما أصابها من الإعياء ، وحتى غرقت ثيابهما بمياه عرقهما ، وكاد صدريهما يتمزقان ، ووصل قلباهما إلى حلقاهما . ونظر كل واحد منهما إلى الآخر للحظة قصيرة ،وجلسا أرضاً وقد أسنداظهريهما إلى صخرة ضخمة . وبلّلا شفاههما بما أمكن لهما تجميعه من اللعاب في فمهما . وطلب (دهمان رمضان) من رفيقه إعطاءه قربة الماء لتناول جرعة منها . فنظر إليه رفيقه (سي الأخضر) ثم خفض من بصره وهو يجيبه على سؤاله : « لقد تركتها في مكانها » . وتبع ذلك صمت ثقيل ، هو صمت الموت البطيء من العطش . لقد كانت مدينة (متليلي) تقع إلى يمينهم ، وفيها الماء والراحة في مئات الملاجىء ، غير أن الوصول إليها عبر الطريق المكشوف ـ الأجرد ـ يعني الموت الحتمي . أما إلى يسارهما فكان (الحماد) حيث قبور الظمأ وفيها الموت الحتمي أيضاً . حيث يمكن تحديد مكانهما واكتشاف أمرهما بسهولة . وظهر لهما أن الموت يتربص بهما في كل مكان ، ولم يبق عليهما إلاّ اختيار الميتة التي يرغبان فيها حتى ينالا ميتة مشرفة تليق باسم (المجاهد) . فنهضا وسارا متجهين نحو (متليلي) ولم يتوقفا إلاّ بعد مسير ساعة من الزمن ، عندما كان يقترب منهما صوت هادر لمحرك آلية (مركبة) تسير في اتجاههما .

أسرع الرجلان باللجوء إلى كهف أسعفهما وجوده بالقرب منهما . وعادا صاعدين بعد أن ابتعد الصوت عنهما ، ونظر (دهمان رمضان) إلى رفيقه (سي الأخضر) فوجد أن عصبة رأسه (الشيش أو العمة) مصطبغة بالدماء ، فنظر إليه نظرات ذاهلة ، فقال له (سي الأخضر) متسائلاً : (ماذا بك ؟) والتقت نظراتهما ، ثم عاد (دهمان رمضان) بنظره إلى عصبة الرأس ، وقال لرفيقه : (هل أنت جريح ؟) وهتف هذا : كلا . ووضع يده على عصبته وسحبها ، فظهر له أنها غارقة بالدماء . وعندها عاد فنظر إلى رفيقه من جديد ، وقد جحظت عيناه . وأخذ (دهمان رمضان) من رفيقه عصبة رأسه وأعاد طيها مخفياً جلطات الدم المتخثرة ، فيما كانت قطرات كبيرة من الدم تنساب على كتف رفيقه . وظهر أن رصاصة قد أصابت جلد الرأس ومزقته بشدة . فأخرج (دهمان رمضان) عوداً كان يحمله وسحقه بين حجرين وصنع منه ضماداً ضاغطاً عصب به رأس رفيقه . واستأنف الرجلان مسيرهما . وعندها ظهرت لهما طائرة عمودية (هيليكوبتر) وهي تحلق فوق رأسيهما ، وترسم في الفضاء دوائر واسعة هنا ، وهناك ، ثم تنقض مقتربة من الأرض لتعاود ارتفاعها من جديد . وهكذا . فما كان من (دهمان رمضان) إلا أن قال لرفيقه : (لا تتحرك ! قف ، فأية حركة ستودي بنا !) . وأكملت الطائرة العمودية جولتها خلال عشرة دقائق ، ثم قامت بجولة أخيرة ، وهي تبتعد نحو الجنوب لتختفي وراء الأفق . وقال (دهمان رمضان) محدثاً رفيقه : « هيا بنا ! فالوحدات الآلية ـ الميكانيكية ـ للعدو تبحث عنا ، وكذلك تفعل قوات المهريين (الهجانة) وهي تقتص أثرنا . ولم يعد لدينا ما يكفي من الوقت ، إذ يجب علينا الوصول إلى الأغوار قبل هبوط الظلام ، لا

سيما وأن العدو يركز بحثه في اتجاه الإقليم الصحراوي ـ حيث الحماد » .

تابع الرجلان طريقهما بخطوات متسارعة ، ونسي (سي الأخضر) ألم جرحه ، وأخذ عصف الريح يشتد أكثر فأكثر ، وكانت عقارب الساعة تقترب من الثانية بعد الظهر (١٤٠٠) . وبدأت قوة الريح في التعاظم حتى أنها أعاقت تقدم الرجلين وقاومته ، كما كانت الرمال التي تحملها الريح تشكل سياطاً تصفع الرجلين صفعاً مؤلماً . وتزايدت صعوبة التقدم وأصبحت أكثر إرهاقاً . فانحنى الرجلان وانكمشا في محاولة لإنقاص سطح المقاومة . وقال (سي الأخضر) لرفيقه : « ستنقذنا هذه العاصفة إذ أنها ستجعل من الصعب البحث عنا . فصبراً ! » . وتبع ذلك صمت قطعه بعد ذلك (دهمان رمضان) بقوله : « الحمد لله ، ها قد وصلنا الأغوار ! » . وأشرق وجه (سي الأخضر) للحظة قصيرة غير أن ابتسامته ما لبثت أن غاضت خلف سحابة من الحزن . وأخذ الرجلان في تسلق المرتفع الصخري وقد اقتلعا بعض الشجيرات لاستخدامها في التمويه . وظهر لهما فرن نصف متهدم وقد بني بالجص فرفع الإثنان ما به من الرماد ، ودخلاه ، ورفعا ما معهما من الشجيرات فوق رأسيهما . لقد أصبح الطريق إلى (الغولة) و (ورقلة) وراءهما ، أما الطريق إلى (متليلي) فلم يكن يبتعد عنهما بأكثر من ثمانمائة متر ، وهو يمتد من أمامهما . وكان يظهر لهما على البعد المطار والطريق المؤدي إلى (غرداية). ووقف (سي الأخضر) وقال لرفيقه: «لم تعد لدي قدرة على الاحتمال ، فرأسي يكاد ينفجر ، لم أعد أحتمل ، وإذا كان لا بد من الانتهاء ، فلتكن نهاية مجيدة » . غير أنه لم يكد ينهي قوله ، حتى ارتفع صخب يصم الآذان ، وظهرت قافلة من عربات النقل ـ

الكميونات ـ وهي تسير متجهة نحو (متليلي) . وجذب (دهمان رمضان) رفيقه من ذراعه ، وقال له : « انظر ! إلى أين تريد الخروج ، وماذا تستطيع أن تفعل بمسدسك في مواجهة مئات الجنود ؟ » غير أنه لم يقتنع بما قاله رفيقه ؛ فحاول الوقوف ، وجذبه رفيقه مرة أخرى وهو يقول له : « هل جننت ؟ » . وأجاب (سي الأخضر) رفيقه وهو ينظر إلى الأفق البعيد : « لم يعد باستطاعتي البقاء هنا ، إنني أختنق ، فلنضع نهاية لذلك مرة واحدة وإلى الأبد » . ودفع بيده شجرات التمويه ، وأسرع خارجاً . كانت القافلة بعيدة عنه ، ونظر إليه رفيقه (دهمان رمضان) وهو يمضي نحو الطريق ، وقد أصابه نوع من الجمود فلم تصدر عنه أية حركة ، وتابع ببصره رفيقه حتى وصل إلى ارتفاع الطريق .

وفي تلك اللحظة ، ارتفع ضجيج طائرة عمودية ـ هيليكوبتر ـ كانت تتجه نحو المطار وما إن سمع (سي الأخضر) صوتها حتى استدار نحوها ، ورفع رأسه ، وأمسك مسدسه بيده ، واجتاز الطريق عدواً ـ ركضاً ـ . ورأته الطائرة ، واقتربت منه ، ولم يعد باستطاعة (دهمان رمضان) الانتظار في مكانه ، فنهض وتنكب بندقيته ، ووقف منتظراً . وانطلقت رصاصتان ، فأسرعت الطائرة العمودية بالصعود إلى الفضاء ، ثم عادت للهجوم . وأسرع (دهمان رمضان) لمغادرة الفرن ، متجهاً وهو يركض نحو هضبة لا تبتعد عنه بأكثر من خمسين متراً . وقذف بنفسه في أخدود شكلته مياه ساقية أثناء سيرها بين (غورين من الأغوار) . واقترب هدير محرك الطائرة العمودية ، وإذ ذاك انفجرت دفعة جديدة من الطلقات التي أطلقها (سي الأخضر) من مسدسه على الطائرة . وتبع ذلك مزيد من اطلاق النار استمر لعشرة دقائق . وعرف (دهمان رمضان) وهو في مخبئه نتيجة

الاشتباك . فانسابت قطرات كبيرة من العرق على جبينه ، واجتاحت كيانه نوبة من الضيق الشديد كادت تخنقه . وانطلقت صيحة من بين شفتيه . وتدحرجت قطرات من الدموع على خديه . فيما كانت الطائرة العمودية تتابع جولاتها ذهاباً وإياباً مستفيدة من بقية ضوء النهار . وشعر (دهمان رمضان) بنوع من اللامبالاة ، فلم يعد يهتم بما يحيط به من أخطار ، لقد كانت دموعه لفقد رفيقه تدفعه نحو التهور .

* * *

سمع (دهمان رمضان) وهو لا زال في مكانه من الساقية ، ضجيج محركات المركبات ـ السيارات ـ وهي ترتفع وتهبط حتى كأنها محاريث قوية جاءت لتقلب عالي الأرض سافلها ، ولم تكن هذه المركبات بعيدة عن مكمن المجاهد (دهمان) الذي عرف بأن القوات الاستعمارية قد انتشرت في مواقعها بهدف تمشيط المنطقة . بمذراة دقيقة ، الأمر الذي سيمكنها من إلقاء القبض عليه . فقال لنفسه : « يجب عدم تمكينهم من إلقاء القبض عليك حياً ! » لقد كان يعرف ما تعنيه كلمة (الأسير) من تعذيب وتشويه وآلام . فتحسس سلاحه ، لقد كان مخزن البارودة فارغاً إلا من طلقة واحدة . وبسط يده إلى مزودته ، وأفرغها ، فلم يجد فيها غير ثماني طلقات ، وهذا كل شيء . فأي أسلوب تعبوي ـ تكتيكي ـ يستطيع استخدامه ؟ . إن عليه مغادرة هذا المكان ، للوصول إلى (متليلي) قبل هبوط الظلام ، فإذا لم يتمكن من ذلك ، فإنه لن يستطيع رؤيتها أبداً . وعليه أيضاً الاقتصاد في استخدامه لذخيرته ، بحيث أن كل طلقة يجب أن تصيب هدفها . وكل طلقة تصرع عدواً . ويجب الاستعداد لاستقابل الموت عندما لا تبقى إلاّ طلقة واحدة. وها هو جندي فرنسي يقترب

من (دهمان) الذي أمسك بسكينه وغرسها في جنب عدوه ، وصرخ هذا صرخة حادة ، وسقط صريعاً ، وأمسك (دهمان) بسلاحه وانطلقت رصاصة ؛ فأصابه ألم حاد دفعه للصراخ : لقد احترقت . وأصابه مغص أليم حمله على الجمود في مكانه . غير أنه ما لبث أن أفاق من ذهوله ، ونظر فيما حوله ، فرأى شبحاً يتقدم نحوه .

وأثناء ذلك هبت عاصفة قوية حملت معها الرمال والغبار والحصى ، فأعاقت الرؤ ية . فما كان من (دهمان) إلا أن أغمض إحدى عينيه حتى يستطيع النظر بصورة أفضل ، ورأى شبحاً ثانياً ، فثالثاً ، فرابعاً . وكان أفراد دورية العدو يتجهون نحوه . ونسي في هذه اللحظة كل شيء ، وانتابته موجة من الحمى فقال لنفسه : (يجب أن أصرعهم جميعاً !) . وأمسك بندقيته ، وتنكبها ، وسدد نحو الشبح الأول ، وأطلق رصاصته التي مزقت العتمة ، وهوى الجندي وهو يطلق صيحة الموت ، وتدحرج مرتين على نفسه واستقر جثة هامدة . وخيم الصمت لثوان قليلة ، بدأ بعدها صليل الأسلحة . وانطلقت رصاصات مرت من فوق رأس (دهمان) وضاعت في المرتفعات . وعاد الصمت من جديد . وظهر شبح إلى جوار (دهمان) الذي لقم سلاحه وأطلق رصاصته بسرعة مذهلة ، وأطلق الشبح صراخاً وهو يسقط على ظهره . وجاء الرد في هذه المرة سريعاً ، إذ انطلقت نيران رشاش من الهضبة المقابلة ، واختلطت أصوات الضجيج ، وأخذت النيران تنطلق من الهضبتين المتقابلتين . وإذن فقد وقع (دهمان) بين نارين . فقرر هذا الانسحاب والوصول إلى المرتفعات حيث يمكن له بلوغ نقطة أكثر ارتفاعاً من ذروتي الهضبتين ، وبحيث يمكن له أيضاً تكبيد العدو خسائر أكبر ، حتى لا يموت رخيصاً .

اشتدت حميا المعركة بين الهضبتين ، وامتد اللهيب إلى كافة المرتفعات . وابتسم (دهمان) وراودته رغبة في الضحك بصراخ مرتفع ، فما أجمل أن يقتتل جند الجيش الاستعماري فيما بينهم ؟ وفكر (دهمان) بإنقاذ نفسه ، والوصول إلى غايته بأسرع ما يمكن ، متجنباً كل صدام مشؤوم ، أو الإصابة برصاصة طائشة . فأخذ يتقدم في الاتجاه المضاد ، وبدأ هبوطه على امتداد الساقية . سار المجاهد (دهمان) طويلاً ، وهو محني الظهر قدر المستطاع ، حتى نال منه الإعياء كل منال . والتمع برق في السماء ، مبشراً باقتراب هطول المطر ، وشعر (دهمان) بثقل في قدميه ، وبدوار في رأسه ، فانبطح على صدره ، وقال لنفسه بصوت خافت : « لم يعد ينقصني إلّا النوم ، ولا زالت ـ متليلي ـ تبعد مسافة خمسة عشر كيلومتراً . وهذا ما يتطلب السير لمدة أربعة وحتى خمسة ساعات » فقرر البحث عن ملجأ يقضي فيه الليل ، قبل أن يحاول الوصول إلى المدينة في اليوم التالي . وعثر على ثغرة تتسع لشخص واحد على أن ينام وهو مثني القدمين . ولم يكن هذا الملجأ بالمكان المريح ، غير أن الموقف لم يكن يحتمل خياراً آخر . فزج (دهمان) نفسه بالثغرة ، محاولاً أن يتحسس بأصابعه جوف الثغرة ، إذ لم يتمكن من دخولها إلّا بنصف جسمه . وزاد من سوء الموقف هطول المطر بغزارة . ولمست أصابع (دهمان) صخرة ضخمة حاول زحزحتها بجمع يديه ، غير أن جهوده عجزت عن تحقيق الهدف . وكرر (دهمان) محاولته مرات عديدة ، حتى بلله العرق ، وأخيراً اكتفى بوضع صف من الحجارة أوصد بها فتحة الثغرة . ووضع بارودته جانباً ، وتمدد أرضاً وهو يشعر بالراحة ، فيما كان يصيخ بسمعه لأصوات المطر وهو يقرع بحباته الكبيرة الصخور الصامدة . وانصرف تفكيره عن المعركة ، واجتاحه شعور

بالأمن ، فراح في نوم عميق .

استفاق (دهمان) على ثغاء قطيع من الأغنام ، وشعر أنه مصاب (بالحمى) . إذ كانت قطرات من العرق البارد تنساب على صدغيه ، وقلبه يخفق بقوة ، مع صعوبة في التنفس . وأقبل راعي الأغنام فقدم الماء لهذا البائس ، واستعلم منه عما يجري في المنطقة . وكلفه بإبلاغ (سي طيب بن عبد القادر) عن مكانه . وأصبح باستطاعته أخيراً الوصول إلى (قسمة شاعمبا) . وانتهت بذلك مهمته . وكان لا بد له من الراحة قبل إرساله في مهمة جديدة .

٦ ـ بطل من الأبطال(*)

تمتد سلسلة جبال (تراراس) من الحدود الجزائرية ـ المغربية وحتى الحد الفاصل (لوهران) وهي ترتفع مقفرة وموحشة لتطاول السماء الزرقاء المكفهرة بالغيوم السوداء والتي حملها معه شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ **١٩٥٦** . حيث أخذت هذه الغيوم بإسقاط مطرها الغزير ، وكأنها تحاول غسل الجبال من ثياب الحداد السوداء التي كانت ترتديها باستمرار .

نظمت هذه المنطقة في إطار (الولاية الخامسة) التي تولى قيادتها البطل الشهير (لطفي ـ الذي استشهد في معارك حرب التحرير) . وقسمت الولاية بدورها إلى مناطق ، منها : (ولد بن راشد) حيث كان هناك دوار صغير يعشش في جوف قمع ضخم شكلته سلسلة الجبال ويمتد إلى المنطقة الأولى التي تولى قيادتها الملازم (سي بن الحسين ـ وهو اسم حركي) . وكان الوصول إلى الدوار من الأمور المتناهية في صعوبتها ، إذ لم يكن هناك أي طريق يصل إليه ، أو حتى أي درب ، وكل اتصال بهذا الدوار مرتبط بمسلك يتلوى كالأفعى عبر (فيلاوسين) المشهورة ، ويسمح بالوصول إلى

(*) RÉCITS DE FEU. P.P. 289- 297. PAR: HAMMOU- CHAÏB.

مدينة (نيدروما) . وهكذا لم تكن المنطقة إلاّ مجموعة من الصخور والثوار والجبال . إنها مكان يبتغيه كل حالم بالراحة ،وكل محتاج للامذاد من أبطال المجاهدين الميامين .

تولى مسؤ ولية الإدارة المدنية للمنطقة شاب حمل أصالة البطولة الثورية كابراً عن كابر ، وعرف باسم (مجيدي الشيخ ولد الشيخ) والذي اجتذب اسمه اهتمام كل الشعب الجزائري ، نظراً لما قدمه للثورة الجزائرية من خدمات يصعب وصفها ، إذ بقيت هذه الخدمات مجهولة في معظمها ، ولم يعرف منها إلاّ النذر اليسير .

أظهر (سي الشيخ) اهتمامه بالأمور السياسية وهو لا زال في مقتبل العمر . وقد أنهى دراسته للقرآن الكريم وحفظه له وهو لما يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، وأخذ في التهام ما ألفه الشيخ (بن باديس) وما كتبه . حتى إذا ما بلغ التاسعة عشرة من عمره ، قرر التوجه إلى (فزان) لمتابعة دراسته في علوم (التفسير) . وكان يلتقي ما بين فترة وأخرى برجل أثر فيه تأثيراً عميقاً . نظراً لكونه عضواً في (رابطة العلماء) . وما هي إلاّ أيام حتى أقبل (سي الشيخ) بحماسة وانضم إلى الحركة . واكتسب (سي أحمد دبوزا) بذلك شرف ضم رجل آخر إلى الحركة ،ولكن أي رجل ! لقد حدث ذلك في اللحظة التي انفجرت فيها الثورة الجزائرية المسلحة . وجاء (سي الشيخ) ليحتضن طريق الجهاد المقدس . وما هي إلاّ فترة قصيرة ، حتى ارتفع بكفاءته إلى مستوى القيادة ، وأصبح مسؤ ولاً أولاً عن إقليمه ، تحت توجيه جبهة التحرير الوطني . وقام ضباط جيش التحرير الوطني بتسليمه كل الأعمال الإدارية ، وحملوا له كل ما يستحقه من الاحترام . ونظر إليه ضباط الجيش الفرنسي نظرتهم إلى أكبر عدو لهم ، واعتبروه عقبة يجب تدميرها بكل الوسائل .

لم يكن (سي الشيخ) إلاّ زهرة في مقتبل العمر ، وبالرغم من ذلك ، فقد عزف عن كل مباهج الحياة ، وابتعد عن مسراتها . وآلى على نفسه أن يعيش للثورة ، ولم يكن هناك ما يعادل شجاعته إلاّ إيمانه العميق بالله الواحد القهار ، وبحتمية انتصار الثورة .

أقبلت عشية رأس السنة الجديدة في يوم ٣١ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٥٦ ، واستعد الاستعماريون للاحتفال بها كعادتهم : بالطعام والشراب والرقص والغناء ، فيما كان يعيش الشعب الجزائري محنته تحت وطأة التعذيب الوحشي والضغط الذي لا يحتمل .

في هذا اليوم ذاته ، كانت حلقة رهيبة تنغلق بصورة بطيئة وهي تحيط (بولد بن راشد) . حيث انطلق مئات الجنود الإستعماريين من كافة المراكز العسكرية المجاورة : من (سيدي علي بن زمرة) و(نيدورما) و(سيدي المشكور) و(العين الكبيرة) . وأخذوا في التقدم نحو الدوار المقفر من الرجال الذين شعروا بريح التحركات العسكرية لجنود الأعداء . فلجؤوا على عادتهم إلى (الكهف) . وكان هذا الكهف عبارة عن مغارة ضخمة قد لا يوجد لها مثيل في الجزائر كلها . وهو يقع عند الحد الشرقي للدوار ، حيث تمتد من هناك الحقول الزراعية لجبل (القرية) في وسط نباتات كثيفة للغاية . مما حمل على الاعتقاد بأنه من المحال الوصول إليه . ولهذا فقد أعد لإنقاذ آلاف الجنود المجاهدين . ولعله من الصعب تحديد اتساعه ، غيرأن الأمر المعروف هو أن الزائر يستطيع السير فيه طوال خمس ساعات من غير أن يتمكن من تحديد أبعاده ، حتى انه يستطيع إيواء ألفي شخص دون أن يضيق بهم .

* * *

وصلت القوات الفرنسية ، ومرت من أمام الكهف ، وتجاوزته إلى القرية ، ولم يكن من الغريب ألّا تكتشف القوات هذا الكهف أو تتوقف عنده ، فتابعت تقدمها نحو (القرية) . وهي تدفع أمامها رجلين من الفلاحين اعتقلتهما في الحقول . وكان (فرضي الهاشمي) هو الخفير المكلف بحراسة مدخل (الكهف) وقد تصادف وقوفه على بعد بضعة أمتار فقط من المدخل عندما مرت به القوات، فشعر بالخطر، وأراد الدخول لإنذار الرجال الذين لم يكن عددهم يزيد على ثمانية وسبعين رجلاً . غير أن حركته جاءت متأخرة جداً . فقد وصلت مجموعة أخرى من المرتزقة وهي تتقدم من الجهة المقابلة ، واعتقلته . وتمت صفقة (بيع) الكهف للأعداء . وتقدم دليل يلبس ثياب الجلادين فلا يظهر منه غير عينيه . وتولى قيادة الجنود نحو الكهف . وأثناء ذلك كان (البائس ـ فرضي) والفلاح الآخر ، قد تورما لكثرة ما نزل بهما من الضرب . وأرغما تحت سيل المطر على حفر قبرهما استعداداً لإعدامهما . غير أن حدثاً أنقذهما من الموت في تلك اللحظة ، إذ وصل (اللواء ماسون) قائد الدرك ـ الجندرمة ـ في (ندروما) وهبط من طائرة عمودية ـ هيليكوبتر ـ على مسافة قريبة منهما ، فشهد شهادة لمصلحتهما أمام الجنود المرتزقة .

بينما تابع (الرجل المقنع) مهمته في قيادة المرتزقة إلى مدخل الكهف . وقام هؤلاء المرتزقة بدفع البائس (فرضي) أمامهم بعد أن أدخلوه في ثياب عسكرية . اعتقاداً منهم أن ذلك هو تدبير احترازي للمرور من الشق الضيق الذي يشكل ممراً مجاوراً للمنحدر السحيق ، والذي لا يسمح بالمرور لأكثر من شخص واحد . وكانت الظلمة الحالكة مسيطرة على مدخل الكهف ، وسقط (البائس فرضي) بغتة إذ أصابته رصاصة انطلقت من الداخل . وأصيب



الابادة في كل مكان

الجندي الذي كان يتقدم خلفه بجراح قاتلة ، وأخذ الآخرون في القتال ـ قتالاً تراجعياً ـ وهم يبتعدون متسارعين . وسمع اللاجئون إلى الكهف النقاش الدائر بين جند الأعداء ـ باللغة الفرنسية . فعرفوا أن العدو قد اكتشف كهفهم ، ولم يبق عليهم إلاّ الاستعداد لبذل حياتهم بثمن مرتفع ، وعدم الموت ميتة رخيصة ، غير أنهم لم يكتشفوا وهم في الظلمة القاتمة بأنهم قد قتلوا على غير إرادة منهم واحداً من إخوانهم .

أخذت قوات الفرنسيين في تطويق الكهف ، وإحكام الحصار حوله . وقال قائد العملية معبّراً عن حقده الدفين : « سيخرج هؤلاء الكلاب من جحرهم عندما ينالهم الجوع والعطش » .

هيمن على الكهف صمت ثقيل بعد تلك اللحظة القصيرة من الفوضى والإضطراب . فماذا تستطيع أن تفعله هذه الحفنة من المواطنين الجزائريين في مواجهة جيش كامل ؟

لم يكن لدى (أصحاب الكهف) من الأسلحة سوى مسدس رشاش ، ومسدس ، وبارودتين (ماس ـ ٣٦) وثلاثة بواريد صيد قديمة مع قليل من الذخيرة . أما بالنسبة للطعام والتموين فقد كان باستطاعتهم الاعتماد على كيس من التين المجفف ، وكيسين من الشعيرية (كعك) وخمسة (بيدونات) من صفائح البترول . وكيس من الزيتون الجاف . وثلاثة صناديق من علب المحفوظات ـ كونسروة ـ مع قليل من الخبز ، غير أنه لم يكن لديهم شيء من الماء . وقد أدرك هؤلاء الرجال الخطر الرهيب الذي يتهددهم ، وهو الخطر الذي تصدى زعيمهم (سي الشيخ) لمجابهته عندما وقف بينهم ، وقال لهم الكلمات التالية : « **إخوتي الأحباء ، إنكم تعرفون الموقف بكامله . فالعدو هنا ، وأمامنا ، في اعتقادي ، ثلاثة**

حلول: الأول: هو محاولة الخروج بالقوة، غير أنني أحب أن أقول لكم مسبقاً بأننا سنسير في هذه المحاولة إلى موت محتم بسبب قلة الأسلحة المتوافرة بين أيدينا. والحل الثاني: هو الاستسلام للعدو. وعلينا أن نتوقع في هذه الحالة من عدونا أسوأ معاملة، وسنتعرض للتعذيب حتى الموت. غير أني استحلفكم أمام الله الالتزام بالصمت، وعلى هؤلاء الذين يقررون الاستسلام ألا يعطوا الخونة الأعداء أي اسم - غير اسمي أنا - وذلك حفاظاً على حياة هؤلاء الرجال الذين تحتاجهم الثورة، وتريد بقاءهم على قيد الحياة. أما الحل الثالث: فهو البقاء في الكهف والدفاع عنه، ويجب علينا في هذه الحالة أن نبرهن على تصميمنا وحزمنا وشجاعتنا، وذلك بألا نسمح لأي واحد من هؤلاء المرتزقة بالوصول إلينا. وإننا إذ نقاوم فلدينا الأمل بأن يقوم إخواننا المجاهدون بمد يد المعونة إلينا، ومحاولة بذل الجهد لإنقاذنا. ولقد سبق لي أن تحدثت مع صديق لي ذات يوم، وهو ضابط في جيش التحرير الوطني، فوعدني ببذل كل جهد مستطاع، والإسراع في القدوم لمساعدتنا إذا ما تعرضنا للحصار من قبل العدو. ولا أستطيع أن أؤكد حالياً مكان وجوده، ولكن هناك يقيناً (مراسل) هو في طريقه الآن إليه لإعلامه بالموقف الذي نجابهه».

لقد كان ما قاله الشيخ في الواقع حقاً وصدقاً، وكان الضابط الذي أشار إليه في حديثه هو القائد (بن الحسين) الذي وعد بالتدخل مع جنوده لرفع الحصار فيما إذا نجح العدو باكتشاف الكهف أو تطويقه. غير أن (بن الحسين) كان في (وجده) بالمغرب عندما وقعت هذه الأحداث. فقد خاض في المرحلة السابقة معارك ضارية، انسحب بعدها إلى القيادة العامة، وانتقل منها إلى

الحدود ، بهدف استعادة قوته والحصول على نصيبه من الراحة ، هو ورجاله . وقد وصله الإنذار بتطويق العدو للكهف فشرع فوراً بالتحرك ، غير أنه لم يتمكن من الوصول في الوقت المناسب نظراً لبعد المسافة الشاسعة التي كانت تفصل بينه وبين موقع الكهف .

* * *

لقد اكتسب هذا الكهف شهرة واسعة بحكم تكوينه ، فهو يبدأ بمدخل ضيق يشبه الدهليز ، وهو عبارة عن ثغرة واسعة لها من العمق متران ، تنتهي بصالة واسعة ، صالة شكلتها الصخور على شكل موقد ضخم يتسع عدة أمتار من الأصداف الصخرية الحادة والمثقبة كالغربال . وهذا الموقد ليس في واقعه إلاّ ممرات تنتهي ، أو تنفتح على عدد غير محدود من المغاور الصغرى المتداخلة بما يشبه التيه (المتاهة) . وقد يضطر المرء أحياناً للزحف مسافة عشرة حتى خمسة عشر متراً من أجل الوصول إلى غرف أو صالات رحبة ، حيث تضم هذه تجاويف (أنفاق) متعرجة تتصل بدهاليز كثيرة ، لا تسمح للداخل بالخروج منها إلى غيرها . ولعل أكثر ما يثير المرء عند توغله في الكهف هو تكوين تلك الصخور في داخل الكهف . والتي هي عبارة عن صخور رخامية من (المرمر) .

* * *

تلك هي المغاور التي لجأ إليها (سي الشيخ) وإخوانه ، وكان أول عمل قام به هؤلاء المواطنون هو تنظيم الحراسة ، وتعيين المناوبين بالتتابع . وبما أن المدخل إلى الكهف يقع في مقدمة دهليز لا يمكن رؤ يته من الخارج ، فقد تقرر تعيين مركز الحراسة في وسط هذا الدهليز ، كما تقرر أيضاً إيقاد نار ضخمة في الليل للإضاءة ،

ولمنع كل احتمال بالمباغتة ، أما في النهار ، فقد كانت بعض الأشعة المتسللة من الخارج ، كافية لإضاءة الدهليز . وتأمين الفترة الكافية للإنذار من أي غدر محتمل .

انقضت الليلة الأولى بهدوء وسلام . وأشرق الفجر ، والمطر ينهمر غزيراً فيما كانت الريح تضرب السيل المتدفق لتجعل منه قطعاً من الطين (الوحل) . وعاش الدوار مع الطبيعة الباكية ، فالنساء في بيوتهن يبكين في صمت مصير رجالهم ، ويترقبن انقضاء اللحظات بتخوف وحزن لا حدود لهما . وعادت ثلة من الأوغاد ـ الجنود ـ إلى القرية ، فهذه هي اللحظة المناسبة لممارسة الضغط الوحشي على النساء والأطفال ، وبدأت عملية تدمير بيوت القرية وإحراقها ، مع تعذيب الشيوخ ـ الكهول ـ قبل اقتيادهم لمرافقة الجند . وكانت زوجة (سي الشيخ) تحمل ابنها البكر وهي في شهرها السابع . وعلى الرغم من ذلك ، فإن وضعها الخاص لم يشفع لها ، وتعرضت لما تعرضت له من التعذيب والإهانة والمعاملة السيئة .

هبطت طائرة عمودية ـ هيليكوبتر ـ في هذه اللحظة ذاتها ، على بعد مائتي متر فقط من الكهف . ونزل منها ضباط يرافقهم بعض الجنود يحملون صناديق من الأعتدة. وتم على الفور تركيب محرك كهربائي ، فيما كانت المعاول والمطارق تهاجم الصخور في محاولة لشق ثغرة عميقة تصلح لاستيعاب كمية كافية من المتفجرات بهدف توسيع مدخل الكهف . غير أن الصخر الأصم امتنع على المعاول ، ولم يتمكن المهندسون من تفجير أكثر من شحنتين في اليوم الواحد . وفي الوقت ذاته ، كان جند الاستعمار يدفعون باستمرار أنبوباً ضخماً إلى مدخل الكهف . وكان هذا الأنبوب يتصل بنفاث قوي يدفع الغاز السام بهدف خنق المجاهدين اللاجئين إلى الكهف . وتراجع هؤلاء

المجاهدون نحو جوف الكهف ، ولم يبق في مركزه إلاّ أولئك المكلفين بحراسة المدخل وحمايته والذين حافظوا على مراكزهم بالرغم من مئات القنابل اليدوية الهجومية وقنابل الغاز التي قذفت نحو الداخل طوال أيام الحصار . وبعد أيام ثلاثة ، أصبح الجو مسمماً حتى بات من الصعب تنفس الهواء واستنشاقه . وحتى بات الهواء المسموم بالغاز الخانق حاراً وحارقاً . وأخذ المجاهدون في التقيؤ مرة بعد المرة . كما أخذت تنتابهم حالات من الإغماء . وبالرغم من ذلك ، فقد استمر المجاهدون في مقاومتهم ، وأخذوا في استخدام قطع من النسيج ـ القماش ـ يبللونها من الصخور ، ويضعونها أقنعة لحماية أنفسهم من تأثير الغاز الخانق . وبدأ العطش في تعذيب المجاهدين ، والضغط على بطونهم . واحتمل المجاهدون معاناتهم ببذل جهد يزيد على قدرة احتمال البشر حتى لا يفقدوا وعيهم .

كان (سي الشيخ) خلال ذلك كله ، يتنقل بحركة دائمة ليجلس إلى كل مجاهد من المجاهدين ، وليحدثه بكلمات تناسبه وتخفف من معاناته ، وتدعم من شجاعته ، فيتلو ما يتيسر له من آيات (القرآن الكريم) . ويحدث المجاهدين فيذكرهم بقصص الأنبياء وما احتملوه لأداء رسالاتهم ، وما عاناه أتباعهم من الصابرين المؤمنين . ولا زال من نجى من الموت يتذكر حتى اليوم ذلك الموقف الذي وقفه (سي الشيخ) وهو موقف يصعب تصديقه لو لم يعشه من نجى بنفسه . فكيف استطاع (سي الشيخ) الصمود والمحافظة على قوته حتى يبقى واقفاً كالطود ؟ . ألم يقف وحده ، وكأنه عصبة من الرجال ، في مجابهته للعدو طوال اكثر من يومين ، متيقظاً لأية محاولة قد يقدم عليها جند العدو للاقتراب من الكهف ؟ . ـ إنها قوة الإيمان التي لا تقهر .

أقبل صباح يوم ٧ كانون الثاني - يناير - ١٩٥٧ وقد مضى على الحصار ثمانية أيام . ولا زال المجاهدون في ملجئهم من الكهف ، ولا زال الموقف خارج الكهف كما كان عليه . غير أن قوة المجاهدين قد استنزفت وأصابهم التسمم ، فاضطجعوا جميعاً وهم في حالة من الإغماء ، وظهر واضحاً أنهم اقتربوا من حافة الموت . وجلس (سي الشيخ) إلى صديقه الوفي ومعاونه (رباح شايب) وإلى بعض إخوته المجاهدين الذين أمكن لهم حتى الآن المحافظة على تماسكهم وتجلدهم وصحوهم . وفي هذه الجلسة ، أخرج (سي الشيخ) من محفظته ثلاثة ملايين فرنك فرنسي (ثلاثين ألف دينار جزائري حالياً) كما أخرج مجموعة من الوثائق والرسائل وبطاقة هويته الشخصية وذلك من أجل إحراقها جميعاً . وكان هذا المبلغ من المال قد تجمع من اشتراكات مجاهدي الإقليم . ثم عمل على تحطيم مسدسه الرشاش على كتلة الصخور ، وكذلك فعل بمسدسه وببقية الأسلحة التي تجمعت في الكهف ، حتى أنه حطم ساعة يده . لقد أراد عدم تسليم شيء من الغنائم للعدو . ثم توجه لإيقاظ أخيه (بن عمار) والذي كان تلميذه في الوقت ذاته ، وطلب إليه أن يتزوج زوجته (رحمه) في حالة استشهاده ، وتبني الولد الذي ستلده زوجته . ثم نهض فصلى بالجماعة ، وتوسل إلى من بقي في حالة من الصحو الخروج لمقابلة العدو ، وشرح حالة الإغماء التي أصابت اللاجئين إلى الكهف . وقال لهم : « **عليكم عدم الاهتمام بأمري ، أو الانشغال بمصيري . قولوا لهم بشأني كل ما ترونه مناسباً لإنقاذكم . أما بالنسبة لي ، فإنهم لن يحلموا برؤيتي حياً ، إنني سأقتل واحداً منهم وسأموت** » .

* * *

على هذا خرجت المجموعة الأولى من الرجال ، ولكن ما إن صفعتهم نسمات الهواء النقية حتى فقدوا وعيهم وسقطوا على الأرض ، فأيقظتهم من إغماءتهم ضربات أقدام الجنود الأوغاد المشتركة مع ضربات أخماص ـ أعقاب ـ بنادقهم . وجرت مناقشة قصيرة بين المرتزقة الفرنسيين قرروا بعدها استخدام الأسرى كستار للحماية واقتحموابهم الزواياالأمامية من الكهف ، فعثروا على كافة الرجال تقريباً . وتم إخلاء رجال المقاومة من غير مقاومة ، فيما كان هدير الرعد في السماء يقصف بصورة مرعبة . واستعاد كل رجل من الرجال وعيه ، ورجعت إليه أفكاره بتأثير صدمة الرعد ، ومياه الأمطار التي مسحت وجوه المعذبين فأنعشتها وأعادت إليها حيويتها . وعندها أخذ المرتزقة المجرمون في إطلاق عنانهم لممارسة وحشيتهم . فَبدؤوا باقتياد الرِّجال ودفعهم نحو الطرف المرتفع من الكهف ، وانطلقوا يضربونهم بقسوة فوق الأرض المتموجة . وتطورت النوبة الجنونية ـ الهستيرية ـ لهؤلاء الأوغاد الأنذال فقذفوا بالأسرى داخل حفر عميقة تم إعدادها لهذه الغاية ، فغاص الأسرى بالوحل حتى لم يعد يظهر إلاّ رؤ وسهم المعروضة لسيل المطر ، وشهدت السماء ما فعله جند الاستعمار الذين أخذوا يمتعون أنظارهم بهذا المشهد الغريب ، ويشفون غليل حقدهم من مجاهدي شعب صابر . ولم يتوقف جند الاستعمار عن ممارساتهم ، إلاّ للتأكد من شخصية كل واحد من الأسرى . وإذ ذاك تبين لهم غياب الشخص الأول الذي يريدونه ويبحثون عنه : « الثائر ـ او الفلاقة ـ سي الشيخ » . وأرسلت برقية فورية : « لا زال هناك شخص في الكهف » وأسرع أفراد زمرة من القتلة لينذروه بأنه : إذا لم يخرج خلال ربع ساعة ، فسيعملون على إعدام كافة رفاقه . ولم يكن باستطاعة (سي الشيخ) احتمال

هذه المسؤولية ، فأسرع بالخروج من ملجئه . ووقف على عتبة عرينه ، شامخاً ، وعلى بعد أمتار فقط من الضابط الذي وقف في انتظاره .

وقف (سي الشيخ) وهو يتأمل بنظره هؤلاء الذين جاؤ وا من عالم غريب ليمارسوا ما أطلقوا عليه اسم (تهدئة البلاد) . لقد جاؤ وا من بلاد يزعمون أنها (بلاد متحضرة) و (بلاد متمدنة) تمثل القوة . فأين تكمن هذه القوة ؟ وهل من القوة التعامل بوحشية مع النساء والأطفال ، ومع الشيوخ والأسرى المجردين من كل سلاح ؟ أية قوة برهن عليها هذا العالم النذل الجبان ؟ فهل تكمن القوة فقط في كتلة هذه الدبابات الضخمة والمنتشرة في كل مكان ومعها أسراب طائراتها ومدفعيتها ؟ كلا : إن القوة ، كل القوة ، هي تلك القدرة الكامنة في الإيمان ، وبالثقة العميقة في الشعب . وتابع (سي الشيخ) التجول بنظراته الحارقة وهو يتأمل تلك الجموع من الخونة ، ثم تقدم قليلاً . وفتشه الضابط تفتيشاً دقيقاً ، ثم سأله عن الأسلحة ، فأجاب الشيخ : « ليست لدي أيه قطعة سلاح . لقد دمرتها » وصاح به الضابط : « هيا عد ، وهات ما بقي منها » .

رجع (سي الشيخ) إلى المتاهة (التيه) . وفي هذه اللحظة قرر يقيناً المجازفة ، فإما أن يكسب حريته وإما أن يموت دونها . وأخذ في انتظار اللحظة المناسبة وهو في ظلمة دهليز الكهف ، متحفزاً لاغتنام أول بادرة . وجاءته الفرصة غير المتوقعة ، فقد تم استدعاء الضابط الذي كان ينتظره من قبل قائده الواقف مع بقية الأسرى . ولم يبق هناك غير جندي وقف منتظراً خروج الأسير من الكهف . وانزلق (سي الشيخ) برفق نحو المخرج ، واندفع من الفتحة بسرعة مذهلة ، وضرب الجندي على كتفه ضربة أفقدته توازنه ، وقفز من

فوق صخرة مرتفعة ، فسقط أربعة أمتار ليستقر فوق قمة الأشجار الكثيفة ، وصرخ الجندي الذي تلقى الضربة ، فأسرع لتلبية صراخه نفر من الجند المتعطشين للدماء وقد ساد الصخب والضجيج فيما بينهم . وبقي (سي الشيخ) مختبئاً وقد حمته الأشجار من أنظار المراقبين والمستطلعين . ولم يكن باستطاعته الخروج من الغيضة الآن إلا تحت مراقبة العدو ، ولا زال أمامه ثلث الجبل الذي يجب عليه أن يجتازه حتى يبتعد عن منطقة الخطر . ولم يبق أمامه إلاّ حل واحد للخروج من مأزقه : محاولة الوصول إلى الوادي الواقع تحته ، حيث يمكنه بعد ذلك السير لاجتياز الحقول الطينية بصورة حتمية ، واذا ما أمكن اكتشاف أمره عندها ، فسيكون قد ابتعد مسافة لا تقل عن ثلاثمائة متر . وخلال هذه الفترة كانت هناك زمرتان من جند العدو قد انطلقتا بأقصى سرعة لهما للإمساك بمجنبتي الجبل ، وقطع كل طريق للانسحاب .

وقفز (سي الشيخ) بغتة ، وانطلق مسرعاً ـ كالصاروخ ـ فاجتاز آخر غيضة من الغياض ، وتابع مساره باندفاع مذهل في طريقه نحو السلامة ، غير أنه كان باستطاعة الواقفين على مرتفعات الجبل مراقبة كل حركة ، وكان الأسرى يبتهلون الله في سرهم بأن ينقذ شيخهم ، ويتابعون تقدمه عبر حقول الطين وقلوبهم تخفق بشدة . وانطلقت بغتة نيران متصلة ؛ وتدحرج الهارب ، وأخذ يتلوى من الألم ، غير أنه حاول الوقوف من جديد ، فعاجلته نيران انصبت عليه كالسيل ، فأغرقته ومزقت جسده . لقد استشهد (سي الشيخ) . وخسر الشعب الجزائري باستشهاده مجاهداً من أفضل أبنائه المجاهدين ، كما فقدت الثورة بطلاً من أبطالها الذين يحق لها أن تفخر بهم على الأيام .

استقر جسد البطل (سي الشيخ) فوق أرض الحقول ، وأحاط به قتلته وهم ينظرون إليه بحزن وأسف ، لقد أرادوه حياً حتى ينفثوا فيه بعض حقدهم الأسود ، غير أنه لم يمكنهم من إشفاء غليلهم ونيل مبتغاهم . وها هي حبات المطر ، تأتي لتغسل له وجهه ، وتكشف عن بياضه الناصع والذي كان يعبر ، وهو في جموده ، عن تحدٍ مشوب بالاحتقار لهؤلاء الجنود الذين جاؤوا من العالم الغريب . وما لبث (نبلاء التهدئة) حتى انسحبوا تاركين (الشهيد) في وسط الحقول ، والتحقوا بقافلة الأسرى للبدء بتنفيذ مذبحتهم ، فصفوا خمسة من الأسرى أمام رفاقهم ، وقتلوهم بسيل من رصاصهم ، وكانوا يعتزمون متابعة العملية عندما وصلتهم الأوامر بالعودة إلى الثكنات ، فتقرر نقل الأسرى إلى سجون (العين الكبيرة) . وعند الاقتراب من أحد المنحدرات ، اقترب الجنود من بعض أسراهم ، وأقنعوهم بإنقاذ أنفسهم عن طريق محاولة الفرار ، وتجربة حظهم . وأسرع أربعة من هؤلاء الأسرى في عدوهم يسابقون الريح ، غير أنهم لم يبتعدوا أكثر من أمتار قليلة عندما حصدهم سيل من الرصاص ، فسقط ثلاثة على الفور ، وتمكن المجاهد (مجيدي حسين) من الفرار وحده ، بعد أن أصابته جراح عميقة في فخذه ، وأمكن له الاختفاء في ملجأ يصعب اكتشافه في غيضة من الغياض . وقد بحث الجند الفرنسيون طويلاً في محاولة للعثور عليه . غير أن محاولتهم باءت بالفشل (وعاد هذا المجاهد فالتحق بقوات جيش التحرير الوطني عندما شفيت جراحه) .

وصلت قافلة الأسرى إلى سجن (العين الكبيرة) مع هبوط الظلام . ولم يسمح لهم بالحصول على أي فرصة للراحة ، حيث بدأت على الفور عملية تعريضهم للتعذيب الوحشي على أيدي

جلاديهم الأعداء . وعلى الرغم من ذلك ، فلم يحصل الجلادون من أسراهم على أية معلومات من تلك التي أوصدت دونها صدور المجاهدين .

علمت والدة (سي الشيخ) بمصرع ابنها وهي في (نيد روما) . وكانت مثلها كمثل بقية السكان ، قد غادرت الدوار ، تاركة أرضها وثروتها . فاتخذت المرأة العجوز قرارها بالسير عبر دروب (فيلاوسين) الضيقة حتى ترى جسد ابنها الحبيب ، وتودعه الوداع الأخير ، مهما كلفها ذلك من جهد وعناء . وأمكن لها الوصول إلى (الدوار) ثم إلى المكان الذي استشهد فيه البطل . فرأت بأن الفلاحين في (عين فارو) وهو الدوار الذي يبعد مسافة أربعة كيلومترات عن (ولد بن راشد) قد قاموا بواجبهم الديني بعد ابتعاد الأوغاد ، ودفنوا جثته .

مضى عـام على ذلك . وفي يـوم ٣ آذار ـ مـارس ـ ١٩٥٨ ، على وجه التحديد ، تلقت هذه المرأة الشجاعة صدمة جديدة . فقد أقدم القتلة على اغتيال زوجها ، بذات الرصاص الذي قتلوا فيه ابنها ، وذلك في وسط مدينة (نيد روما) ومعه سبعة من رفاقه . وكان ذلك بعد مضي ثلاثة أشهر من قصف دوار (ولد بن راشد) . وهو القصف الذي أزال هذا الدوار من عالم الوجود .

* * *

كلمة أخيرة

وبعد !

بمثل تلك النماذج البشرية العليا انتصرت الثورة الجزائرية .

وبمثل ذلك الإيمان العميق استطاعت جزائر الثورة إنجاز هدفها العظيم .

لم يكن المجاهدون جميعهم على درجة واحدة من الصبر والثبات والإيمان والقدرة على احتمال كره القتال . غير أن النماذج (الممتازة) ، إذا جاز التعبير ، قد دعمت روح الثورة بنوع من الصوفية وإنكار الذات لا يعرفه إلّا المجاهدون حقاً وصدقاً .

ترى هل كان باستطاعة جزائر الثورة الصمود في وجه أشرس حرب استعمارية عرفتها دنيا الاستعمار لو لم يتوافر لها جيل كامل من رواد الثورة العربية الإسلامية ؟ . . .

لقد مارست فرنسا وجندها ضد شعب الجزائر وثورته ما لا قبل لفرد أو لشعب باحتماله ؛ تقتيل وإبادة ، إحراق وتدمير ، نهب وسلب ، انتهاك للحرمات ، قمع يعجز القلم عن وصفه ويقصر الخيال عن تصوره ، وصمد الشعب الجزائري طوال سبع سنوات ونيف . فأية قوة تلك التي استطاعت احتمال هذا القدر من الجرائم الإنسانية ، والخروج من ذلك كله بالنصر ؟

إنها قوة الإيمان ، ولا شيء غير الإيمان .

إنها روح الجهاد في سبيل الله ، والدفاع عن الدين ومقدساته ، والدار وحرماتها .

وقد يغتر مغرور ، أو يندس دساس لئيم ، فيقول : ولكن كان هناك بعض المسلمين ، (كالقوم والحركيين) وسواهم ممن عملوا مع فرنسا ضد أبناء قومهم وإخوانهم في الدين .

إن أمثال هؤلاء يتجاوزون الحقيقة عن عمد .

يتجاوزون الحقيقة عندما يتجاهلون عوامل الضعف البشرية .

ويتجاوزون الحقيقة عندما يتجاهلون تأثير الاستعمار وأساليبه الذكية ـ الخبيثة ـ طوال مائة وستة وعشرين عاماً .

ومع ذلك ، فكيف كان موقف الكتلة الرئيسية من هؤلاء المضللين عندما كانت تصلهم دعوات إخوانهم للانضمام إليهم في الجهاد ضد أعداء الدين والوطن ؟ .

تلك حقيقة تبرزها وثائق الثورة ذاتها ، وتحفظها يوميات القتال . لقد كان معظم هؤلاء يستجيبون لنداء الثورة . ويهجرون معسكرهم ليعملوا مع إخوانهم في الله ، وفي الدين ، في الوطن ، لقد ضمت الثورة في طليعتها الريادية نخبة ، أو جيلاً ، من المؤمنين المسلمين الذين لم يتوافر مثلهم في جيل واحد ، إلاّ وكان النصر في ركابهم .

وبمثل تلك الناذج البشرية العليا انتصرت الثورة الجزائرية .

وبمثل تلك النماذج البشرية العليا ستبقى الجزائر المجاهدة قاعدة راسخة من قواعد العرب المسلمين . وستحتفظ بمكانتها منارة تهدي التائهين في صحراء الظلام .

محتوى الكتاب

الموضوع **الصفحة**